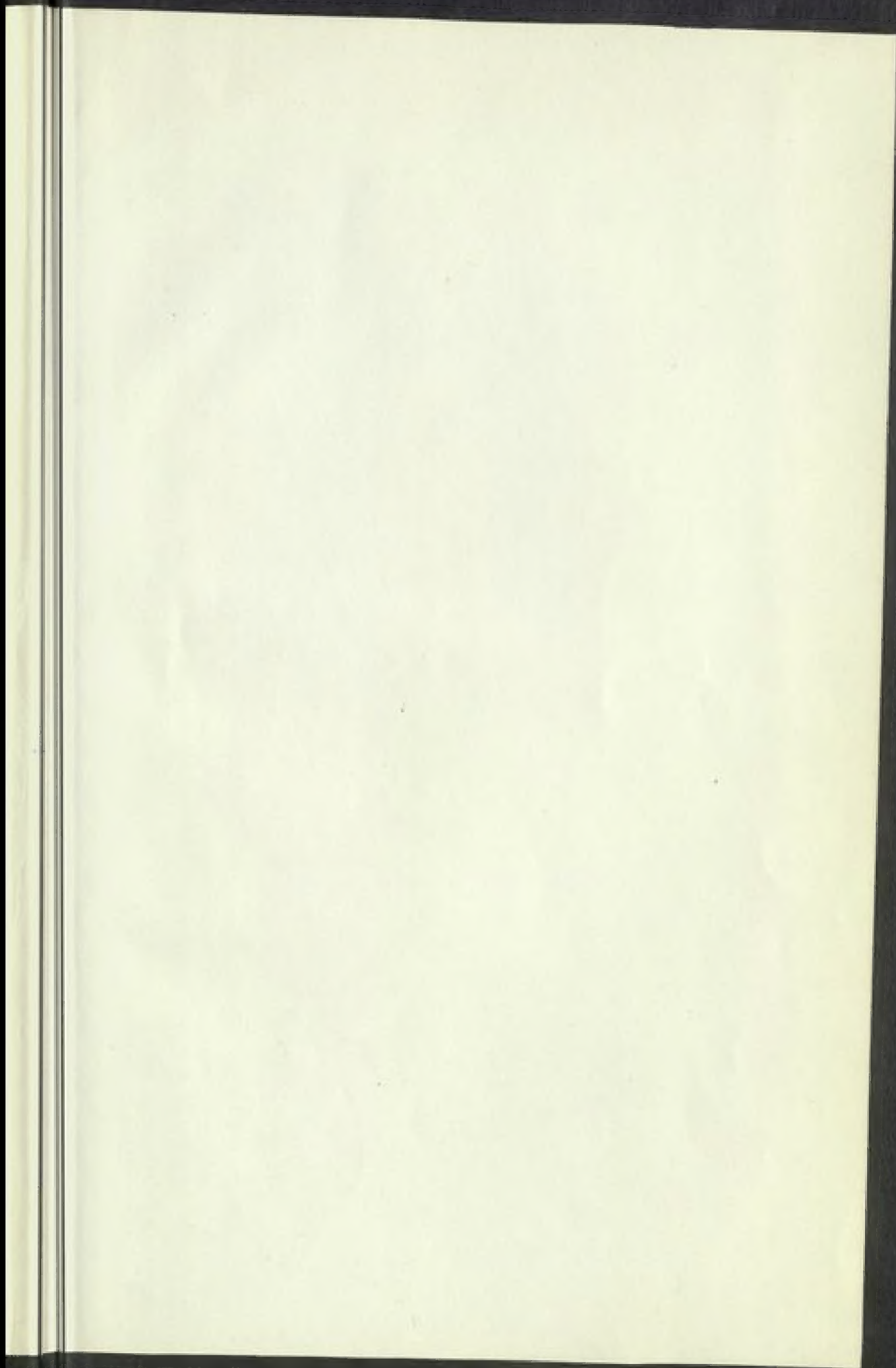


A.U.B. LIBRARY

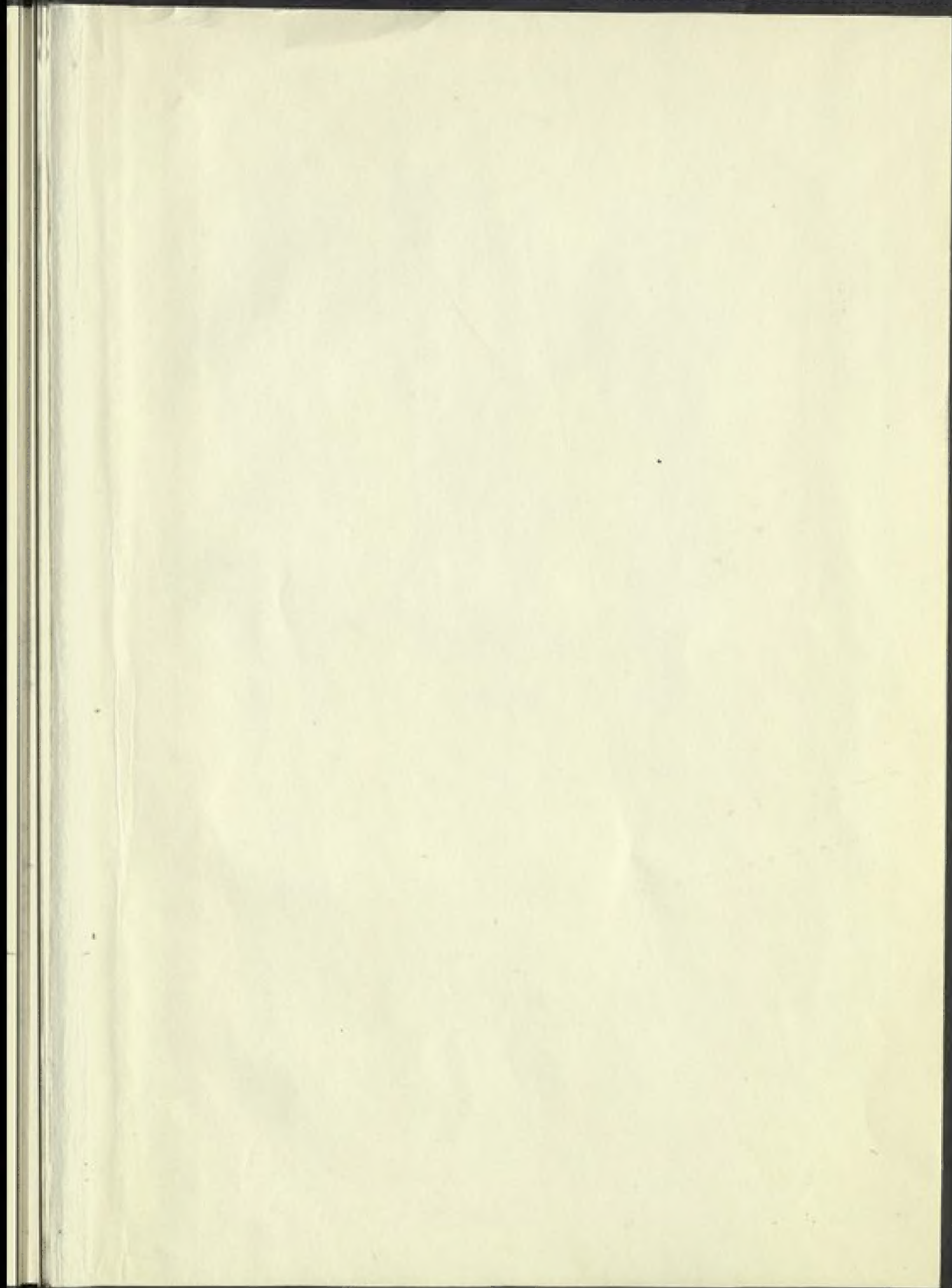
Y 25 1 144



بسم الله الرحمن الرحيم

ثلاثة اعوام
في محنة وحرارة

تحت إشراف وزارة المعارف والعلوم العالية



915.69
Y924A6
V.1

مباحث الجهنبيّة في تاريخ لبنان



ثلاثة أعوام في مصر وبر الشّمال

بقلم

س. ف. فولني

نقلها الى العربية

ادوار البستاني

الجزء الاول

مَنشورات وزارة التربية الوطنيّة والفنون الجميلة

عنوان الكتاب بالفرنسية



VOYAGE

EN SYRIE et en EGYPTÉ

pendant les années 1783, 1784 et 1785

par

M.C.-F. VOLNEY

PARIS, 1787

(Edition Originale)

avec Approbation et Privilège du Roi.

الطبعة الاولى ، بيروت - لبنان ، ايلول ١٩٤٩

كلمة المعرب

هذا الرجل البجاعة العبقري « فولني » الذي جاء الشرق في
اواخر القرن ~~الثامن~~ عشر ، لم يأت كسائر رحالي الفرنجة الذين
ندافعوا اليه على التوالي بسائفة الفضول ، مشغوفين بصوفيته
الغامضة ، وروحانيته المبهمة الغائبة . بل لعله انطلق اليه بقصد معين
ومهمة اناطتها به حكومته عهدئذ لاستطلاع احوال السلطنة
العثمانية في ذلك الشطر من العالم الذي ما يرح مطمح الفاتحين
ومحط اطماعهم منذ اقدم العصور والازمنة . على ان الذي يعيننا
من الامر ، وقد انقضت على رحلة هذا العالم الكبير مائة وست
وستون سنة ، ان نستجلي ، على ضوء معلوماته الدقيقة ومباحثه
الرصينة ، حقبة من تاريخنا الحديث اصبحت ، على قرب عهدنا بها ،
محاطة باحجية الشك والابهام ، وتكاد تطفو على حقيقتها الاطنانين
والاساطير . فقد خالط هذا الرحالة السكان وعاشهم وشافهم
بمعزل عن التواجم لانه تعلم لغتهم وانقضا كتابية ومكلمة . وتوغل
في اطراف البلاد واقاصيها ، ولم يبعادتها وشرائعها ، واستطلع
دخائلها ، فضاف رهبانها ومشايخها ، وحلل طبائع رجالها ، وتسلى
بالدرس الى اخدار نساها بما عرفه عنهم من الفرنجيات المقيبات في
البلاد . فلم تخف عنه شاردة ولا فائتة خفية . بل يدهشك ان

تراه ، وهو الاجنبي الفرنسي ، قد سير غور تلك الاصقاع الشرقية ،
وكشف النقاب عن احوال واخلاق وشيم وعادات دقت معرفتها
على مؤرخي ذلك العصر الذي كانت تسوده الغنصرية الذميمة
وتتحكم في مقدراته عصبية الدين والطائفة والمذهب .
وها نحن نفتح دفتي كتابه امام قراء العربية .

ادوار البستاني

دير القمر ، ايلول ١٩٤٩ .

المقدمة

نشر الاول ١٩٨٦.

منذ خمس سنوات - وكنت في مطلع الشباب - قد ولي ان
احصل عن طريق الارث على مقدار من المال فلكنني الحيرة في
وجه استعماله . واراد بعض صربي ان استمتع به بدلاً وانفاقاً ،
في حين ان بعضهم الآخر نصح لي ان استفيد من ريعه .
ورجعت الى نفسي ، فوجدت ان المبلغ اضعف من ان يزيد علي
دخلي شيئاً محسوساً ، وانه مع ذلك من الضخامة بحيث لا يجوز
لي تبديده في نفقات لا طائل نحتها . وكانت احوال حسنة الطالع
قد عودت شباني على الدرس والاطلاع ، فتذوقت الاقتباس حتى
كلفت به . ورأيت في ثروتي وسيلة جديدة لارضاء نزعتي ، وفتح
آفاق اوسع لثقافتي . وكنت قد قرأت وسمعت بالتوداد ان السفر
انجع الوسائل لتجليل العقل وتهديب فوته المميزه . فصممت على
السفر ، وبقي علي ان اخار ميداني . وازدته طريفاً زاهياً معجباً .
فبدت لي بلادتي وما جاورها من البلدان شيئاً اعرفه او تسهل
معرفة . وجذبتني تجربة نحو اميركا الناشئة ومتوحشيتها . بيد ان
اعتبارات أخرى صرفت عزمي الى آسيا . وبدأ لي ان سوريا
ومصر ، باضيمها وحاضرمها ، حقل صالح لما اردت الانصراف اليه
من الاتجاه السياسية والاخلاقية . وفلت في نفسي وان معظم

المذاهب التي تسوسنا قد نشأت في تلك الاصقاع . ومن هناك
انبثقت الافكار التي أثرت ابلغ التأثير في خالقياتنا العامة والخاصة ،
وفي شرائعنا ، وفي مجمل احوالنا الاجتماعية . فمن الجدير بالاهتمام
اذن التعرف بالاماكن التي ترعرعت فيها تلك المذاهب ، وبالعواديات
والاخلاق التي عملت على تكوينها ، وبذريعة وطبائع الامم التي
دانت بها . ومن الجدير بالاهتمام ايضاً البحث في تلك الاخلاق
والعواديات الى اي حد نشوهت او بقيت سليمة ، والتنقيب عن
مدى تأثير المناخ ومفاعيل الحكم واسباب العادات ، وبمسكلة
موجزة ، التقاد الى حالة العصور الفائرة على ضوء الحالة الحاضرة .
وقد تبصرت ، من ناحية اخرى ، بالاحوال السياسية التي تحيط
بسلطنة العثمانية منذ عشرين سنة ، ونأملت النتائج التي قد تسفر
عنها ، فوجدت موضوعاً لدغدغة فضولي في استقصاء المعلومات
الدقيقة عن نظامها الداخلي ، لا اخلص منه الى معرفة قوتها
ومواردها . ووضعت هذه الامور نصب عيني عندما ارتحلت الى
مصر في نهاية السنة ١٢٨٢ . ولبثت في القاهرة سبعة اشهر ،
فاعترضني خلالها عقبات حمة حالت دون طوافي داخل البلاد وتعلم
اللغة العربية . ونحويت الى سوريا . وكانت الحالة في هذه الولاية
اقل اضطراباً ، واكثر موائمة لقاصدي . فقد اقيمت قانية اشهر
عند الدروز في دير عوي (كذا) ، مما جعلني آلف اللغة . وقد
يسر لي هذا الاسر التنقل بحرية نهر سوريا طوال سنة كاملة .
ولدى عودتي الى فرنسا ، بعد غياب ثلاث سنوات ، حسبت ان
مباحثي قد تعود ببعض الفوائد ، وعزمت على نشر دروسي عن
الحالة الراهنة في سوريا ومصر . وقد شجعني على ذلك ان المعلومات

عن تلك الامصار قليلة ناقصة ، بسبب ان الرحلات اليها كثيرة
المشقة . وقد عني معظم الرحالة بالابحاث الاثرية اكثر منهم بوضع
البلاد الحديث . ولما كان اكثرهم قد اجتازوا البلاد على عجل ،
فقد اعوزتهم الوسائل الاساسية لمعرفة ، عنيت الوقت والاعلام
باللغة . فلا يمكن ، بعزل عن اللغة ، تقدير عبقرية امة وطبائع أهلها .
وما كانت ترجمة المترجمين تنقضي يوماً الى ما تنقضي اليه المشافهة
المباشرة . ولا يمكن ، بعزل عن عامل الوقت ، ابداء الحكم الصادق
السليم ، لان منظر الاشياء الجديدة ينير الدهشة لاول وهلة ، ويلقي
التشويش في العقول ، فيخلق بالرائي والحالة هذه ان يتوهم ان
يبدأ الجارية ، وان يعود الى تكرار الملاحظة ليهت في الصواب .
والنظرة الصائبة فنن يقضي من الممارسة فوق ما يحسبون .

تبين لي عند رجوعي ان فرنسا ان رحلة سبقني الى التحدث
عن مصر في كتاب اول سماه « الرسائل » ، ثم اتبعه بنشر جزئين
آخرين . على ان الحقل واسع خصب ، وفي بعض اقسامه الجديدة
بحال ليعتاد . هذا ، ولا اخل ان استأع شاهدين اثنين من اشياء
معلومة بما يغضب او يرضي .

ان سوريا لا تقل عن مصر إغراء واستمالة . الا ان في
موضوعها بحثاً اكثر جدة . وما كتبه عنها بعض الرحالة قد
تتادم عليه العهد ، بل يشوبه النقصان . وكنت قد آليت على
نفسى يادى ذي بدء ألا اكلم الا بما شاهدت بأم العين . على
اني رأيت ، في سبيل ارضاء القراء ، ان استكمل صورة هذه
الولاية بما دونته عن غيري كلما فكنت الشئ في صعته بالمقارنة
والمقابلة .

ونوخت في مرد الوقائع المحافظة على الروح التي سادني عند
بحثها ، عنيت بذلك حتى المجرد للحقيقة . وقد صنعت نفسي الصورة
التخيلية ، وان كنت لا اجهل افضليات الوهم عند جمهور القراء ،
لاني ارى ان الرحلات ملك التاريخ لا الرواية . واذن ، فلم امثل
البلاء اكثر جمالا مما بدت لناظري ، ولم احور الناس احسن
حالا لو اكثرت دراسة مما رأيتهم ، بل احسب اني كنت في وضع
تكنت معه من رؤيتهم كما هم ، لاني لم اتق منهم حسنة ولا سيئة .
اما فيما يتعلق بصيغة هذا الكتاب فاني لم اعتمد فيها طريقة
المرد المعتادة ، وقد تكون ايسر الطرق . ونبذت ، تحاشيا
للاسباب ، الترتيب والتفاصيل الغربية ، وكذلك الحوادث الشخصية .
فلم اطرق المواضيع الا رسوما شاملة لتسوعب الاكثر من الوقائع
والامكنة . وكنت حريصا على وقت القراء تجاه هذا السيل من
الكتب المتتالية . وقد صنعت بحني عن مصر وسوريا بخرائط
جغرافية زيادة في التوضيح . اما خارطة مصر المتعلقة بالدلتا وصحراء
سينا فقد وضعت بناء على المعلومات الفلكية التي نشرها المسيو
نيبهر Niebuhr رحالة ملك الدانمارك في السنة ١٧٦١ ، فهي
احدث وادق ما نشر بهذا الصدد . وقد اسدى لي هذا الرحالة
مساعدته في وضع خارطة سوريا التي استعملتها بما اخذته عن
خارطة دانفيل Dainville وعن يوميات رحلتي . ورأيت ، اخيراً ،
ان هواة العاديات يسرهم ان اضم الى الرسم وصفي الذي دونته
عن اجهل خرائب آسيا اي خرائب ندمر وهيكل الشمس في
بعلبك . ويلوح لي ان شدة الفنون الحديثة ينظرون بارتياح الى
اللوحتين اللتين تملآن هذه الآثار .

الجزء الاول

القسم الأول

طبيعة مصر

الفصل الأول

مصر عامة ومدينة الاسكندرية

من العيب ان تهيء مطالعة الكتب معرفة العادات والاخلاق عند الامم ، فنية مجال بين تأثير الانباء على العقل وتأثير الاشياء على الخواص . فالصور المرسومة بالاصوات تعوزها الدقة في التصوير والحيوية في النلون وتعلق في لوحاتها هذهات غائبة لا تترك الا اثرأ هارباً مريع الزوال . وانا لنستشعر ذلك خاصة اذا كانت الاشياء المراد تصويرها غريبة غساً ، لان المحيلة اذ لا نجد حداً للمقابلة كامل التكوين فهي مضطربة الى جمع اعضاء شتى لتتصب منها اجساماً جديدة ، ومن الصعب عليها في هذا العمل المبهم المفروض الذي ثباته بعجلة ألا تخلط بين الخطوط وتشوه الاشكال . انعجب بعد ذلك انها اذا رأت المثل ، انكرت ما شئت عنها واقبلت منها تأثيرات جديدة كل الجدة ؟

هذه هي حال الغربي الذي يصل عن طريق البحر الى تركيا . فعبثاً يكون قد طالع التواريخ والاعخبار ، وعيناً يكون اعناده على وصفها في محاولته تصوير هيئة الارض وترتيب المدن والارباب والساليب السكان : فجميع تلك الاشياء جديدة في نظره . وفي

ثلوعها ما يهره ، وما نصوره عنها يذوب ويضمحل ، فيبقى تحت
سيطرة شعور المفاجأة والاعجاب .

وقلما وجدت مكاناً كالاسكندرية يحدث فيك هذا التأثير
المزدوج ، هذه المدينة التي يذكر اسمها بعقوبة وجل عجيب ، واسم
هذه البلاد المتصل بالعديد من الحدائق والأفكار ، ومنظر المكان في
الطارد الواسع ، وذلك النخل المنتصب كالمظال ، وتلك البيوت
ذات السطوح وسكانها لا سذوف لها ، وتلك السهام الدقيقة تعلو
المآذن وتحمل الشرفات في الهواء ، كل ذلك يدل المسافر على انه في
عالم آخر . فإذا ما انحدر الى الارض احاطت به مجهولات عديدة
من كل ناحية ، فثمة لغة تخيف اذنه باجرامها البربرية ونبراتها الخلقية
النابية ، وثمة ازياء عجيبة الهندام ووجوه تتسم بالغرابة . وعوضاً
عن حدودنا العارية ورؤوسنا الكاسية الشعور وقبعاتنا المثلثة الزوايا ،
وثيابنا القصيرة الضيقة ، تراه ينظر بدهشة الى تلك الحدود المحروقة
المسلحة بالهش والشوارب ، وهذا الاطار من القماش المتجمد الذي
يعتم به رأس حليق ، وهذه الجبة المستطيلة المنحدرة من العنق الى
الكاحل ، فتبدو وكأنها للجسم سنار لا ثوب يرتديه ، وتلك الغلايين ،
بطول عشر اقدام ، ولا تخلو يد منها ، وتلك النوق العسكرية التي
تقل الماء في غي جلدية ، وتلك الخمر المبرذعة الملجومة التي تنقل
برشافة راكبيها المتنعلين الخفاف ، وهذه السوق العامرة بالتمر والخبز
المستدير المسطح ، وهذا الرعيل القذر من الكلاب النائية في الارفة ،
وتلك الاشباح المتنقلة ، المعطاة بثوب واحد ، التي لا يبرز من
شكلها الانساني غير ناظري امرأة .

وفي وسط هذه الجلبة ، ينصرف بكليته الى حواسه فيما ينصرف

عقله عن التأمل ، ولا يبدأ روعه حتى يبلغ مقرة المشتبه ، فينبصر
عندئذ تلك الازفة الضيقة غير المبلطة ، وتلك البيوت الواطية التي
تجيب العرائش ضوءها النادر ، وهؤلاء الناس هؤلاء ، المشرقي
البشرة بالسواد ، الذين يسرون حفاة ولا رداء على اجسامهم سوى
قميص ازرق يشد وسطه نطاق جلدي او منديل احمر . فلا يلبث ،
وقد شهد هذا المشهد العام لشفاء البشر والاسرار التي تغتمر الممارل ،
ان يستشف ما هنالك من ظلم جشع الى جانب عبودية حذرة
متبقطة .

على ان ما يستوعبي اعيناه ، بعدئذ ، واسعات الخراب التي يراها
من ناحية البر . ان الاخرة في نواحيها امر يستوعبي الفضول ، اذ
يندر ان نعر في الاماكن النائية على قصر قدم ، ان دل ندمه على
شيء ، فعلى هجر سيد القصر لا على فقر المكان . اما في الاسكندرية
فانك ، بالعكس ، لا تكاد تخرج من المدينة الجديدة صوب البر ،
حتى يجيبك منظر ارض فسيحة الجنبات تغطيها الخراب . وانك
لنمشي مسافة ساعتين ، متبعاً خطين من الجدر والابرار ، هي
اسوار الاسكندرية القديمة . فالارض مكدسة بانقاض القرب ،
والجدران والقناطر والشرفات المتهمة ، وعة حجارة فرضها النطرون
وشوة فيها . وتجاوز ساحة داخلية واسعة تنلمها الحفائر والآبار ،
ويقوم فيها وكام الجدران والعمد القديمة . وهناك الجبال الحديثة
والتخيل والصبار حيث لا ترى من الكائنات الحية الا بنات آوى
والبولاشق والبوم . اما السكان ، وقد القوا هذا المشهد ، فهم لا
يناثرون به فقط . ولكن الرجل الغريب الذي تشور فيه التذكارات ،
فانه يستشعر غصة كثيراً ما تتحول الى الدمع وتفتح امامه مجالاً

التأملات نشد القلب بكآبتها بقدر ما ترفع النفس بجلاها .
 ليس لي أن أكرر هنا ما وصف به جميع الرحالة عايدات
 الاسكندرية المدهشة . فقد أفاض لوردن Norden وبوكوك
 Ponce ونيوهر Niebuhr وسافاري Savary (في
 رسائله الاخيرة) في ذكر حمامات كليوباترة ومسلتيها والدياميس
 والآبار والعمود الموسوم خطأ باسم بومبيوس . ان لهذه الاسماء
 وقارها . غير ان نظرك الى التصاوير يختلف عن نظرك الى حقيقة
 الاشياء . فانعمود بارتفاعه الجريء ، وبحجم استدارته ، وبالعزلة
 التي تكتنفه ، يطلع فيك شعوراً بليغاً من الاعجاب والاحلال .
 ان الاسكندرية في حالتها الحاضرة محور تجارة عظيمة . فهي
 باب جميع السلع التي تخرج من مصر عبر المتوسط ، ما خلا اوز
 دمياط . فللاوروبيين هناك مناجر تصرف فيها بضائنا عن طريق
 المقايضة . وانك لتشاهد باستمرار سفن مرسيليا وليفرونو والبندقية
 وراغوز وغيرها . على ان الاشتاء فيها مخوف بالخطاير . فالمرفا
 الجديد ، وهو الوحيد الذي يتزل منه الاوروبيون ، قد امتلأ
 بالرمال الى حد ان حيازيم السفن تعظم بقاع البحر في ابات
 العواصف . ولما كان الغور صخرياً فان حبال المراسي لا تلبث ان
 تنقطع بفعل الاحتكاك ، حتى اذا افلئت سفينة تندفع على أخرى
 وهلكه على ثلاثة ، وهكذا دولبك ، حتى تفرق السفن جميعاً . وقد
 وقعت سابقة مشؤومة منذ غماني عشرة سنة اذ انحطت اثنتان
 واربعون سفينة على الرصيف في عاصفة هبت من الشمال الغربي .
 أما المرفا القديم الذي تقوم على مدخله رقعة الارض المسماة
 رأس النين ، فهو غير معرض لمثل تلك التحوارات . على ان

الأتراك لا يستقبلون فيه إلا سفن المسلمين . وقد يسأل سائل في
أوروبا : لماذا لا يرممون المرفأ الجديد ؟ ذلك ان الأتراك ينفقون
ولا يرممون . وسيهدمون المرفأ القديم أيضاً حيث ترمى صوابير
السفن منذ مئتي عام . ان ذهنية التركي هي ان يهدم اعمال الماضي
وأعمال المستقبل . وما من غد يرجى للجهل والبربرية .

ان الاسكندرية لا تحسب شيئاً من الناحية الحربية ، لانك لا
ترى فيها اي تحصين ، حتى ان المنارة بأبراجها العالية غير جدوة
باسمها . فهي لا تفتحها مدافع صاخة ولا مدفعيون يقومون على
ادارتها . اما الانكشارية الخمائة الذين يجب ان تتألف منهم
الحامية فقد انزل عددهم الى نصفه . وهم عملة لا يحسنون عملاً الا
تدخين القلايين . والأتراك يرتاحون الى ان مصلحة الفرنسيين قائمة
في عدم التعرض لهذه المدينة . ان باستطاعة دارقة تنطلق من
مالطة او من روسيا ان تحوها الى رماد . على ان فتحاً كهذا
لا فائدة منه ولا يجدي . فالاجني لا يطبق الإقامة فيها ، لان
الارض تعوزها المياه ويقضي جررها اليها من النيل بواسطة ترعة
او قناة طولها اثنا عشر فرسخاً يسيل فيها الماء كل سنة عند
القبضان ، فيملأ المستودعات الارضية والآبار المحفورة تحت المدينة
التربة ليخزن فيها حتى السنة التالية ، ويشعر الاجني انه لو اراد
السكنى هناك لسدت بسببه القناة .

ولا يصل الاسكندرية بمصر إلا هذه التربة . فان هذه المدينة ،
بوقعها خارج الدلتا ، وبطبيعة ارضها ، تنصل في الحقيقة بصحراء
افريقيا . والضواحي ارياف رملية مسطحة مجذبة لا شجر فيها ولا
مساكن ، لا تعرف فيها إلا على نبتة يستخرج منها ملح القلي ،

ويخط من النخيل ينأى مياه النيل عن طريق الخليج .
وانك لا تدخل مصر حقيقة حتى تطلأ بلاد الرشيد حيث نهجر
الرمال التي تتميز بها أفريقيا ، وتنتقل الى تربة خصبة سوداء هي
خاصة مصر الميزة . وعندئذ ، ولأول مرة تقع العين على مياه النيل
الشهير . فتري مجراه بين ضفتين عموديتين ، وكأنه نهر السين Seine
بين اوتوي Antoni وباني Passy . اما غابات النخيل التي
تجاورها ، والجنان التي تروني بمياهه ، والشجار الليمون والبرتقال
والنوز والدراق وغيرها ، فانها تسبق على الرشيد من الخضراوها
الدائم جمالا بسندرونه خاصة من مقابلته بالاسكندرية وبالبحر
الذي تركه انساغر .

والك ، في أثناء هذه الرحلة اذا تقيعت النهر في اتجاه منبعه ،
تصورت لك فكرة عامة عن الارض والمناخ والمنتجات في هذه
البلاد الشهيرة ، وايس بانها في المنظر كغياض نهر اللوار الادنى
او سهول الفلاندر ، اذا طرحت جانباً منازل الحقول المتعددة
والاشجار واحلات محليا بعض غابات النخيل والجسيز ، وبعض
المزارع الترايبية القائمة على مرتفعات مصطنعة . وجميع هذه الارض
هي من التساوي والانخفاض بحيث ان الواصل من البحر ، اذا
ابتعد ثلاثة اميال عن الشاطئ ، لا يلبث ان يرى في الافق النخيل
وما تحتها من رمال . والنهر هنا في انحدار لطيف لا تجاوز سرعة
مياهه الميل الواحد في الساعة . اما منظر الحقول فقليل التنوع ،
وهو عبارة عن اشجار نخيل منفردات او منجمعات يندر وجودها
كلما جلت بك القدم ، وقرى مبنية بالطين عليها مسحة الخراب ،
وسهل لا حد له يتحول حسب الفصول من بحر امطار الى مستنقع

موحل ، الى بساط الخضر او حقل غيار . وفي كل النواحي افق
سحب بخاري تقف دونه الابصار وتقل . واخيراً تروح لك عند
ملتقى ساعدي النهر من جهة الشرق جبال القاهرة ، وفي جهة
الجنوب المائلة للغرب كتل ثلاث منعزلة بذلك شكلها المثلث الزوايا
على انها الاهرام . وتدخل هنا في الوادي بين سلسلتين من المرتفعات
المنوازية . فسلسلة الشرق التي تمتد حتى البحر الاحمر جديرة بان
تسمى جبلا بسبب ارتفاعها المفاجئ ، وان تسمى صغرها بمنظرها
العاري الوحشي ^١ . اما سلسلة المغرب فليست إلا ذروة صخر
تكسوها الرمال ، وما احسن ما اسجوها بالبد أو بالوصيف . فاذا
ما شئت ان تصور مصر بكلمتين مثل من ناحية بحراً ضيقاً
وصخوراً ، ومن ناحية اخرى سهولاً من الرمال عظيمة ، وفي الوسط
نهرآ يجري في واد طوله خمسمائة وخمسون فرسخاً بعرض ثلاثة
فراسخ الى سبعة ، لا يصل الى مسافة ثلاثين فرسخاً عن البحر حتى
ينشطر الى ساعدين تصل فروعها في ارض عديدة العقبات تكاد لا
تتحدو .

ان تذوق علم الطبيعيات الذائع في هذا العصر يتطلب ولا شك
تفاصيل عن طبيعة الارض والمعادن في هذه البلاد الواسعة . على
ان ما يؤسف له ان طريقة الاسفار فيها لا توافي لمثل هذه المباحث .
وليس الامر في تركيا شأنه في اوروبا . ان الاسفار عندنا نزعات
مستحبة ، اما هنا فانها اشغال شاقة خطيرة . وهي كذلك بنوع
خاص للاوروبيين الذين يتصلب الشعب الموسوس في نظره اليهم

١ وتسمى بالعربية المقطم او الجبل المقطم (المقطم) .

كسجرة يأفونه لينزعوا بالرقى كنوزاً تخرج منها الأرواح تحت الأخرية .
 أن هذا الاعتقاد المضحك ، على كونه متأخلاً ، إذا أضفت إليه حالة
 الحرب والاضطراب المعتاد ، يتزع كل وسيلة احتراز وبحول دون
 أي اكتشاف ، فلا نستطيع أن نتحصى الخلل وحيداً أو أن نصحب
 إليه لاحقاً ، بل تجدك محصوراً عند ضفاف النهر وفي سبيل يطردها
 الجميع ، وهو مسير لا يفيد منه شيئاً جديداً . وليس لك ، حتى
 نكتسب بعض المعلومات العامة ، إلا أن نضم ما لاحظته فترك إلى
 ما رأيته أنت . وعلى مثل هذا الأساس تراك محمولاً على القول
 بأن هكل القطر المصري بأجمعه من اصوان حتى البحر المتوسط
 عبارة عن طبقة من حجر الجص المشرب بالبياض القليل الصلابة
 والمتحول من الاصداف التي تجد متباعدة في البحرين المجاورين^١ ،
 ولها من هذا النوع في الأهرام وفي الصخور الليبية التي تحنها ،
 وتجدها أيضاً في الآبار وفي دياميس الاسكندرية وعلى صخور
 الشاطئ حيث يند ، كذلك في الجبال الشرقية مقابل القاهرة .
 ومواد البناء في هذه المدينة مركبة منها ، وتألف منها المقامع
 العظيمة الممتدة من سواحي إلى منفوط على مسافة خمسة وعشرين
 فرسخاً بحسب شهادة سيكتار Siceard . ويفيدنا هذا المرسل عن
 وجود الرخام في بلاد يند عند قدم الجبال الشرقية على البحر
 الأحمر ، وفي الجبال القائمة في الجنوب الشرقي من اصوان . وبين
 هذه المدينة والشلال أهم منابت الصوان الأحمر . ولعل هناك منابت

١ هذه الاصداف هي بنوع خاص من القناطر والاصداف الغرومبية الشكل
 والاصداف المتلاصقة . راجع الدكتور شو : رحلة إلى الشرق .

غيرها في جبل سبأ^١ والجبال التي تليه على الضفة المتقابلة مسن
 البحر الاحمر على مسافة نهارين صوب الشمال . وعلى مقربة مسن
 اصوان صوب الشمال الغربي مقلع من حجر الحية يستعمله السكان
 غير مصقول لصنع الآنية التي تعرض للنار . وفي الحط نفسه على
 البحر الاحمر كان يقوم في ما مضى منجم زمرد قد غقت آثاره .
 والنحاس هو المعدن الوحيد الذي ذكر القدماء وجوده في تلك
 النواحي ، وعلى طريق السويس حصن حصي مصر وان تكن
 في جوهرها حجارة حص صلبة رفاة . وقد وجدت هناك حجارة
 يحمل شكلها على الظن بانها عبدان منحجرة . وهي في الواقع تشبه
 حطباً تنخله نقوب كأنها الحباشيم . على ان المصافاة هيأت لي ان
 اغتر في طريق عرب الحواطات^٢ على عرق عظيم من هذا النوع
 تبينت معه انه من المعدن . وما هو اجدر بالاهتمام بحجراً نظرون
 اللتان وصفهما سبكتار نفسه . ويقعان في صحراء غربي الدلتا . اما
 فاعلمها فهو عبارة عن حفيرة طييبة يراوح طولها بين ثلاثة الى
 اربعة فراسخ على ربع فرسخ عرضاً . وارضها صلبة حجرية . وهي
 جافة طوال تسعة اشهر من السنة . على انه في الشتاء ينبسج من
 الارض ماء احمر بنفسجي يسلاً البحيرة حتى عشر اقدام علواً .
 وعند عودة القيظ تنبخر المياه فتترسب طبقة سميكة من الملح بمقدار
 قدمين ، وهي صلبة تدق بالحديد حتى تقطع ، ويستخرج منها في
 السنة ٣٦ الف قنطاراً . وهذا الحدث الذي يدل على ان الارض

١ كون هذا الجبل اشبه على بقع سوداء وفي بعض الاحيان حمراء .

٢ لكل قبيلة سبلها الخاصة بها تلاًفاً للمخاضة والنزاع .

مشربة بالملح يتكرر في مجمل القطر المصري . فحينما تحفر الأرض
يتبع ماء أجاج يحتوي التطرون والملح البحري وبعض
البورق . فإذا حدث أن قاضت المياه على الجنائن اللوي ، فإنك ترى
بعد تبخرها وتشرف المياه أن الملح يطفو على وجه الأرض . ويلاحظ
أن هذه الأرض كسائر القارة الأفريقية والعربية إنما هي من الملح
أو صالحة لتكوينه .

وفي وسط هذه المعادن المتنوعة وفي هذه الرمال الدقيقة المشربة
بالحمة والمختصة بأفريقيا ، تبدو تربة وادي النيل بخصائصها التي
تجعل منها طبقة متميزة . فإن لونها المشرب بالسواد وميزتها الحزفية
الزجة تدلنا على أصلها الأجنبي . فالنهر يحملها من قلب الحبشة .
وكان الطبيعة شامت أن تنفض في تكوين هذه الجزيرة الآهله في
صقع كانت قد منعت عنه كل شيء . فلولا ذلك الطين الحصب
المؤلف للعرت لما تها مصر أن تنتج شيئاً . فهو وحده يحتوي
بنور النبات والحصب ، وهو مدين بذلك للنهر الذي هو آلة كليهما .

الفصل الثاني

النيل واتساع الدنيا

النيل علة وجود مصر من الناحيتين الطبيعية والسياسية : فهو وحده يسد أثرى حاجات الكائنات العضوية ، وهي الحاجة الى الماء ، وما أمساها في المناخات الحارة المتعطشة ابداً الى ذلك العنصر الرئيسي . فالنيل وحده يعزل عن معونة سماء شحيحة المطر يحمل الى كل صقع غذاء الزرع ، فهو يخلوله ثلاثة اشهر على الارض بشرها مقداراً من الماء يجعلها في غنى عنه سائر ايام السنة . ولولا فيضانه لما امكن استغلال الارض الا في بقعة ضيقة الحدود كثيرة الكاليف . ومن الصواب القول انه مقياس البحيوحة والخير والحياة . ولو ان البرونغالي « البوكرك » استطاع تنفيذ مشروعه بتحويل مجراه من اثيوبيا الى البحر الاخر ، لما كانت هذه البقعة الخصبة الا صحراء تضاهي بوحشتها الفلوات المحيطة بها . ومتى رأينا الى اي مدى يستخدم الانسان طاقة هذا النهر ، لا يبقى في وسعنا ان نلوم الطبيعة على انها منعت عنه المزيد . وقد حق للمصريين في سائر الازمنة واليوم ان ينظروا الى النيل نظرة اجلال ديني^١ ، ولكن يجب ان نغفر الاجني الذي يسمع

١ يسمونه القديس والعماد ، وعند تفجير المياه الجديدة اي عند فتح الترع ترى

تجدهم بمحلات تلك المياه فيبتدئ من جهتهم . فلن يكون فله
المياه المعتكرة الموحلة قط في نظره سحر البنديع الصافية والجداول
الزلابية . وما لم يكن قد برّح به الحرمان فلن يذكره جسد
المصرية المقتنع الراشح بالمياه الصفراوية بالناثيات^١ الخارجات من
الابتعاد . ومياه النهر طوال سنة أشهر كثيرة الاعتكار حتى انها
لا تسوغ للشرب ما لم تصف^٢ . وفي الشهور الثلاثة التي تسبق
الفيضان يقل عصفها وتسخن في مسائله فتخضر وناسن وغشلي
بالديدان ، فتدعو الحاجة عندئذ الى استخدام المياه المخرونة في
الآبار . اما المتفرجون فانهم يظفرون الماء ويبردونه بالتبخير^٣ .

لقد كتب الرحالون والمؤرخون كثيراً عن النيل وغرائبه
حتى كدت اعتقد باديء ذي بدء ان الموضوع افصح الى غاد .
على ان الآراء تتبدل في اقل الاشياء تبداً . فان لم يكن لديك

الاميات بطقن اصناف في اخرى تتركها بظاهرة المياه وخصائصها الالهية على ما ذهب
اليه اعتقاد القدمين في الانور جميعاً .

١ الناثيات ترجمة لكلمة Salades اصطلاحاً . وهي آفات من نبات جوبيتر تشرف
على البانيس والانيور .

٢ بذلك الاء بالمزج وهو البوز المر . فيصبح سائلاً خفيفاً .

٣ يمتون في وضع آية حلقية غير مغطاة بالمياه في جميع العرف وشمع الماء منها
بأسنوار ٢ وكذا وضع الاء زائدت برودته . وثرام من اجل هذا السبب يعتقدونه غالباً
في مجاري الهواء وفي ظلال الاشجار . وفي سوريا يشربون الاء الراشح فيما يشربون في
مصر الاء المعتكر في الاء . ومما يكن من امر غريب من بلاد كنده البلاد في كثرة
استخدام الاء . وان اول امر يأتيه المصري عند دخوله الى بيت موافق يقبض على « القلة »
ويشرب منها جرعة صغيرة . وفي كان العرف يتصب غزيراً من المصريين فلا ترعجه
كثرة الشرب .

في بعض الاحيان جديد يقال ، فلا اقل من ان تخرج ما قيل .
وهذا هو شأني تجاه بعض الآراء التي تخمينا المسير سافاري رسالته
وقد مثلت بانطبع حديثاً . فان ما اراد البتة من امر انبساط
الدلتا وارتفاعها يختلف عن النتائج التي ايدتها الوقائع في نظري
والاسناد التي يحتاج بها هو نفسه اختلافاً يحلني على بسط مناقضاتنا
امام الرأي العام . ومنى عرفت ان اقامة السيد سافاري امتدت
الى سنتين في تلك البلاد ، مما يجعل رأيه وزناً لا يثبت ان يصح
حجة راجعة ، تبين لك ضرورة هذا الجدل الذي ابشره . فلنبسط
المسائل ولنعالج اولاً قضية الانبساط الدلتا او انبساطها .

ان مؤرخاً يونانياً قد ذكر عن مصر كل ما نعرفه عنها
تقريباً وما يؤيده الايام . غيب به هيرودوتس الهاليكارناقي
Hérodote d'Halicarnasse الذي كتب من اثنين وعشرين قرناً
ما يلي :

« ان مصر حيث ينزل الاغارقة من البحر الدلتا هي ارض
مكتسبة ، وهي هبة النهر شأن كل الاصقاع المستنقعة التي تمتد
صعداً على مسافة ثلاثة ايام ركوباً في النهر . »
والاسباب التي يحتاج بها اثباتاً لقوله تدل على انه لا يستند
الى حكم مبسّر ، اذ يقول :

« وفي الواقع ان ارض مصر التي هي مسن الطين الاسود
الاغضر تختلف تمام الاختلاف عن ارض افريقيا الرملية الحمراء وعن
ارض جزيرة العرب الحزفية المصخرة . . . وهذا الطين ينقله النيل
من اثيوبيا . . . والاصداف التي تحتويها الصحراء تدل دلالة كافية
على ان البحر ، فيها سلف ، كان اكثر افتتاحاً للارض . »

ان هيرودوتس باعتقافه بخططي النهر ، وهو امر يوالم علمه
الاشياء . لم يعن مدى خططيه . على ان سافاري حسب انه بإمكانه
ان يفعل . فلتفحص كيف علل ذلك :

وان مصر ١ اذا تزايدت ارتفاعاً تزايدت في الطول ايضاً .
وبين الرفائع الكثيرة التي اوردها التاريخ اختار واحدة فقط .
انه في ايام الملك بسامتيكوس رست مراكب المييزيين وعندها
ثلاثون عند مصب بلطين ، وهي اليوم الرشيد ، وتحصنوا فيها .
وبنوا مدينة اجوها متليس (راجع استرابون ، الكتاب ١٧) ، وهي
« فتوة » التي احتفظت باسم « مسيل » في مصطلحات الافباط .
ان هذه المدينة « التي كانت فيما مضى على البحر ، أصبحت تبعد عنه
اليوم تسعة فراسخ . وهو المدى الذي ابسط عليه الدلائل من ايام
بسامتيكوس الى اليوم . »

اول ما يتبادر الى الذهن ان هذا التعليل في متنبس الدقة .
على اننا يرجعنا الى الاصل الذي استقى منه سافاري نجد انه
غفل عن الامر الاهم . واليك نص استرابون متوجهاً بحرفه ٢ :

« بعد مصب بلطين يقوم رأس زملي منخفض يسمى قروت
الحمل وينفذ بعيداً (في البحر) ، ثم يأتي مرفق برسيا وسور
المييزيين ، لان هؤلاء جاوزوا ثلاثين سفينة الى مصب بلطين
ونزلوا الى البر في ايام كسياسكارس ملك الميديين التي كانت
ايام الملك بسامتيكوس ، وشيدوا الحصن الذي يقدم باسمهم . وما

١ رسالة عن مصر - الجزء الاول - الصفحة ١٦ .

٢ جوجوس استرابون - طبعة سنة ١٧٠٦ ، الكتاب ١٧ ، الصفحة ١١٥٢ .

انقضى زمن حتى تقدموا صوب سائس وقهرروا الجاربس في معركة
على النهر ، وانشأوا مدينة نقراطس فيها وراء شاذبه . وبعد سور
الميليزيين بالنجاء مصب (الدلتا) تقع بحيرات منها بحيرة يوطس
الخ... »

هذه هي النقطة التي ينكم فيها استرابون عن الميليزيين ، ولا
ترى فيها ذكراً لميليس التي لم يرد اسمها في الكتاب كله . وقد
استأها دانقيل^١ عن بطليموس دون ان ينسبها الى الميليزيين .
وما لم يثبت النسب سافاري نسبة ميليس الى سور الميليزيين
بتقنيات قد يكون قام بها في المكان نفسه ، فلا يجوز التسليم
بقوله .

وقد حسب ان هومبروس يدي اليه شهادة مماثلة في المقاطع
التي ينكم فيها عن المسافة بين جزيرة المنار ومصر ، وسيحكم
القارئ اذا كان هنا اكثر توفيقاً . في اورد ترجمة مدام داسبه^٢
وهي على كونها اقل روعة من غيرها ، إلا انها اكثر نقيداً
بالحرف :

« روى ميللاس انه تقوم في البحر مقابل النيل جزيرة تدعى
المنار ، وهي تبعد عن احد مصاب هذا النهر مسافة ما يقطع في
يوم واحد مركب نواتيه الرياح ... (وبعد ذلك يقول برونتوس
لميللاس) : ان القدر القاسي لا يسمح بان ترى وطنك العزيز ...
ما لم تعد مرة اخرى الى النهر (ايجوبتوس) وتقدم الذبايح الكاملة

١ - راجع مذكرات داهيل الواقعة عن مصر ، طبعة سنة ١٧٦٥ . ص ٧٧ .

٢ - الاوثنية ، الكتاب الرابع .

الى الخالدون . (واستطرد منيلاس) : قال هذا وامثالا فلبي كتابة
وانما لان هذا الاله يأمرني بالرجوع الى النهر ايجوبيتوس الذي لحق
طريقه المشقات والمخاطر .

يريد المسبو سافاري في هذه الشواهد وعلى الاخص اولها ان
يستخلص ان اشارة ، وهي اليوم لاصقة بالشاطئ ، كانت فيها مضي
بعيدة عنه كثيراً ، على ان هوميروس عندما ذكر المسافة من
هذه الجزيرة لم يشأ تطبيقها على « الشاطئ » ، المقابل كما ترجم الرحالة ،
بل على « ارض مصر » ونهر النيل ، ومن جهة ثانية انه من
الخطا القول ان « نهار الابحار » يعني المسافة غير المحدودة التي تستطيع
اجتيازها مراكب الافدمن ، وكان الاغارقة باستعمالهم هذا التعبير
يحددونه بمقدار ثابت هو خمسةة واربعون غلوة^١ . ويوضح هيرودوتس
هذا الامر صراحة فيورد عليه مثالا ويقول ان النيل يجاوز على
البحر بالارض التي تمتد بعداً حتى ثلاثة ايام ابحار ، وان الالف
والسائة وعشرين غلوة التي نحصل توافق حسابها الادق لمسافة
الالف والخمسةة غلوة الواقعة بين هليوبولس والبحر على ما ذكر
في مكان آخر . فاذا ما اعتبرنا مع ذلك ان الخمسةة واربعين
غلوة تساوي سبعة وعشرين الف خطوة^٢ ، اي ما يقرب من نصف
درجة ، نرى بواسطة البركار ان هذا المقياس يوازي المسافة بين
اشارة والنيل نفسه ، وهي تنطبق خاصة على ثلثي فرسخ فوق

١ غلوة ، وهي مقدار زمنية ص من ثلاث مئة الى اربع مئة فراع ، ترجمة لكلفة
الفرنسية Stades التي تعيد عند اليونانيين مقدار ١٠٠ قدم يونانية .
٢ الخطوة مقياس طول من القدم واستعملها العرب لكفة *misra* وهي مقياس
طول من القدم ايضاً .

الرشيد ، في مكانه يحق لنا بعض الحق ان نحن فيه المدينة التي
 اعطت اسمها مصب بنطين . ومن الجدير بالذكر انها المدينة التي
 تردد عليها اليونانيون ونزل فيها المبغضون قبل هوميروس بقرون
 ونصف القرن . فليس ما ثبت اذن ان تجاوز الدلتا او القارة
 حصل بالسرعة التي يفترضونها افتراضا . فاذا سلمنا بها بقي علينا ان
 نفهم كيف ان هذا الشاطئ الذي لم يكسب نصف فرسخ من
 ايام الاسكندرية ، قد كسب احد عشر ميلا في سحابة زمن لا
 نحسب شيئا بالنسبة الى الاولى ، فقد انقضت بين ميناس وذلك
 الفانيح ^١ .

وهذه طريقة اصح لتقدير هذا التجاوز في اعتماد القياس الوضعي
 الذي ذكره هيروودوتس ، واليك النص :

« ان عرض مصر في البحر من الخليج البلطيني حتى مستنقعات
 سريونيدا بالقرب من فاسيوس هو ثلاثة آلاف وستمائة غلوة ،
 وطولها من البحر حتى هنيوبولس الف وخمسة غلوة . »
 فلنحصر هنا في هذه الفقرة . لقد برهن دانقيل بحذقه المعتاد ان
 غلوة هيروودوتس يجب ان تقدر بخمسين او احدى وخمسين خطوة
 فرنسية . فاذا اعتمدنا هذا الرقم تبين ان ١٥٠٠ غلوة توازي ٧٦٠٠٠
 خطوة ، اي درجة وما يقرب من الدقيقة ونصف الدقيقة . والحال

١ يؤخذ على هوميروس عدم الدقة بقرينة ان المارة كانت تقع مقابل النيل ،
 ولعلنا نلاحظ في انه تكلم عن مصر كما تكلم عن طرف الشمال ، هو يرمز بالتوضيح
 الواجب . ومن جهة اخرى فان الفرع القنوي canopique من النيل كان يمتد الى
 البحر ان يفتح قرب ابوقير ، واذا صح انه مر في غربي ابوقير كما يعنى عن هذا الاعداد
 منظر الارض ، يكون هوميروس على صواب بقوله ان المارة كانت مقابل النيل .

ان الملاحظات الفلكية التي ابداعها نيبوهر وحالة ملك الدانارك في
السنة ١٧٦١ تدل على ان فرق العرض بالنسبة لحظ الاستواء بين
هليوبولس (حالياً المطرية) والبحر هو درجة وتسع وعشرون
دقيقة تحت دمياط ودرجة والرابع وعشرون دقيقة تحت الرشيد
فيحصل من جهة ثلاث دقائق ونصف الدقيقة او تجاوز مسافة
فرسخ ونصف الفرسخ ، ومن الجهة الاخرى ثلثي دقائق ونصف
الدقيقة او ثلاثة فراسخ ونصف الفرسخ . وبذل هذا على ان الشاطئ
القديم كان يضاوي احد عشر الف وثلاثمائة خطوة فيما تحت الرشيد ،
وهذا ما ينحرف بعض الانحراف عن الخط الذي اراد في فقرة
هوميروس ، في حين ان التطبيق على فرع دمياط ينزل الى تسعمائة
وخمسين خطوة تحت المدينة المذكورة . صحيح ان القياس فوراً
بواسطة البركار يجعل ان خط الشاطئ يتضاعف نحواً من ثلاثة
فراسخ جهة الرشيد ، ويقع على دمياط نفسها ، وهذا ما يحصل
من حساب المثلث باعتبار الفرق في الطول . ولكن بلبطين التي
اشار اليها هيرودوتس تصبح عندئذ خارج الخط ولا يبقى صحيحاً
ان بوسيريس في وسط الدلتا على ما ذكر المؤرخ نفسه . ولا ريب
ان ما اورده القدماء وما نعرفه نحن عن هذا المكان ليس من
الوضوح بحيث يجوز لنا ان نعين بدقة درجات التجاوز المتعاقبة .
ولا يستطيع التفكير بحزم إلا من تهيأ له القيام بالبحاث كالتي قام
بها الكونت ده شوازول Le Comte de Choiseul في مياندربا ،
ويقتضي لذلك تنقيب في الارض . على ان اعمالاً من هذا النوع

تستدعي تآلف اسباب لا يتيسر وجودها إلا للقليل من الرحالين .
وتشخص هنا جموعية نشئة عن كون الارض الرملية التي تتكون
منها الدلتا تتبدل من يوم الى آخر تبديلاً عظيماً ، لأن البحر والنيل
ليسا عاملين الوحيدين ، فالرياح هنا طويلة اليباع ، فهي تارة تملأ
الترع وتدفع النهر على ما حدث للساعد القنوبي القديم ، وتارة تسفي
الرمال وتدفن الجوانب حتى نجو معالمها . ويورد نيروهر مثلاً
جديراً بالنظر ، وهو انه يوم كان في الرشيد سنة ١٧٦٢ كشفت
المصادفة في تلال الرمل القائفة جنوبي المدينة عن الخربة فدية مختلفة
بينها عشرون وكبيرة جبهة من الرخام قمت الى الفن الاغريقي ،
ولم يرد في التقاليد اسم المدينة التي كانت قائمة هناك . وقد بدا
لي ان الصحراء المتجاوزة على النمط نفسه . ان هذه الرقعة التي كانت
فيما سلف عامرة بالترع والمدن اصبحت تلالاً كاسية بالرمال الناعمة
الصفراء التي تركها الرياح على قدم كل حاجز وكثيراً ما تغير
النخيل . ولذلك ، وعلى ما بذل دانقيل من جهد ، فلا يمكن الركون
بتاكيد الى مطابقتها بين كثير من الاماكن القديمة والحديثة .

اما سافاري فقد كان اكثر اصابة في ما ذكره عن احدى
ثورات النيل التي يبدو منها ان هذا النهر قد اتسبب كله فيما سلف
عبر ليبيا في غربي منقيس . على ان رواية هيرودوتس نفسه التي
اعتمدها سافاري تصطدم ببعض المصاعب . يقول هذا المؤرخ نقلاً
عن كهنة هليوبولس ان مينيس اول ملوك مصر قد سده الكونع
الذي كان يدور فيه النهر على مسافة فرسخين وربع الفرسخ

١ ان هذا الموقع يوافق كثيراً بلطين .

(مائة غلوة) تحت منقبيس واحفر له مجرى جديداً شرقي هذه المدينة . ألا يستدل من هذا ان منقبيس كانت حين ذلك الزمن في صحراء قاحلة محرومة من الماء ؟ وهل يجوز التسليم بهذا الافتراض ؟ أصبح التصديق بالحرف ان منقبيس قام بهذه الاعمال العظيمة وانشأ مدينة ورد اليها كائنة قبله ، وان يكون حضر الاقضية والبحيرات واقام الجسور وشيد القصور والديار كل والارصفة ، كل ذلك في بدء نشأة أمة وفي طفولة جميع الفنون ؟ ومنقبيس هذا هل هو مؤرخ ؟ أثبتت روايات كثيرة تلك الجاهلية من صعيد الميثولوجيا ؟ في اعتقادي ان المسيل الذي سده منقبيس لم يكن الا انحرافاً في النيل من شأنه ايذاء الري في الدلتا . وما يعزز هذا الافتراض ، على رغم شهادة هيرودوتس ، انك اذا سرحت النظر من الاهرام ، في هذا الوادي ، لا تتيين فيه اي مضيق يحمل على الظن بقيام حاجز قديم هناك . ويلوح ان سافاري اجهد نفسه ليبين ان الفجوة الكبيرة المسماة « بحر بلا ماء » اشارة الى كونها مجرى قديماً للنيل ، كانت تنتهي الى السد الوارد ذكره تحت منقبيس ، في حين ان جميع الرحالين الذين المنع اليهم دانقيل يجعلون نهايتها في الفيوم التي هي تلة طبيعية هائلة . ويقتضي لاثبات هذا الواقع الجديد رؤية الامكنة نفسها . ولم اسمع قط في القاهرة من قال ان سافاري قد تقدم في الجنوب الى ما يجاوز اهرام الجيزة . ان تكون الدلتا الذي يستدل عليه سافاري من

١ . بذلك نفحص الحارطة على ان مجرى النهر كان في هذا المكان . اما الصواري والسفن المتحجرة التي تكثر عنها سيكار فهي تحتاج الى ان يبينها وحالون اوسع علماً من هذا المرسل .

هذا التبدل امر لا يعقل ، اذ كيف يجوز لك ، في هذه الثورة
المفاجئة ، ان تصور ، ان وطأة المياه الهائلة التي انصببت في مدخل
الخليج قد جزرت مياه البحر ، لا ان اصطدام كتلتين سائلتين
لا يحدث الا امتزاجاً لا يلبث ان يفضي الى مستوى مشترك
بينهما . صحيح ان الرحالة يضيف : « لقد تراكم الطين والرمل
الاذان جرهما التبل ، وجزيرة الدانا التي كانت صغيرة بادي ذي
يده قد خرجت من مياه البحر وارجعت حدوده . »
ولكن كيف تخرج جزيرة من البحر ، ان المياه الجارية تحدث
انبساطاً لا تراكمًا ، وهذا ما يسوقنا الى مسألة الارتفاع .

الفصل الثالث

ارتفاع الدلتا

ان هيرودوتس ، الذي عرف عن الارتفاع ما عرفه عن الانبساط ، لم ينطرق الى مقدار كليها . على انه اورد واقعة يستند اليها سافاري ليخلص منها الى نتائج وضعية . والبك ملخص قوله :

« في ايام مواريس الذي عاش قبل حرب طروادة بخمس مئة سنة ، كانت ثنائي اذرع كافية لغمر الدلتا في كامل اناسيا . ولما جاء هيرودوتس الى مصر كان يقتضي لذلك خمس عشرة ، وفي عهد الامبراطورية الرومانية ست عشرة ، وفي ايام العرب سبع عشرة . اما اليوم فالحد المئوي ثنائي عشرة ، والنيل يضخم حتى اثنتي عشرة . واذن فقد ارتفعت الدلتا اربع عشرة ذراعاً خلال ثلاثة الاف ومائتين وثمانين سنة . »

نعم ، اذا سلمنا بلوقائع على ما بسطت . بيد اننا اذا استقيناها من ينابيعها نجد ان بعض اللواحق تشوه المبدأ ، والنتائج . فلنورد نص هيرودوتس :

« بروي الكهنة المصريون انه في ايام الملك مواريس كانت النيل يغمر الدلتا بارتفاعه ثنائي اذرع فقط . وفي ايامنا نحن لا يمتد على البلاد اذا لم يرتفع ست عشرة ذراعاً او خمس عشرة على

الافل ، والحال انه لم تنقضى بعد فسمائة سنة على موت موريس
حتى يومنا هذا .

فلنحسب : من موريس حتى هيروودوتس : ٩٠٠ سنة ، من
هيروودوتس حتى ١٧٧٧ : ٢٢٢٧ ، او الفان ومثان واربعون
سنة اذا حُثت ، فيكون الجمع ٣١٤٠ .
فمن اين انت الزيادة (١٤٤ سنة) في حساب المسبو
سافاري ؟

ولم يعتمد حساباً غير حساب المؤلف ؟

فلتخط ذلك الى التسلسل التاريخي .

في ايام هيروودوتس كان يقضي لغمر الدلتا ست عشرة ذراعاً
او خمس عشرة على الاقل ، كذلك في ايام الرومانيين كان الحد
المعين خمس عشرة وست عشرة .

يقول استرابون : « ان الفيضان لم يكن ليعم البلاد ، قبل
بثرونيس ، ما لم يبلغ ارتفاع النيل اربع عشرة ذراعاً . » على
ان هذا الحاكم كان يحصل عن طريق الفن على ما كانت الطبيعة
تضن به . فكان الفيضان يعم اذا ما ارتفع النيل اثني عشرة
ذراعاً . ولم ينقض العرب هذا القول . فان احد كتبهم ينطوي
على جدول مفصل لجميع فيضانات النيل من السنة الاولى للهجرة
(٦٢٢) حتى السنة ٨٧٥ هجرية (١٤٧٠) . وينين من هذا
الكتاب ان النيل ، في احدث العهود ، اذا كان عمق مجراه
اربع عشرة ذراعاً ، فالخير والمؤنة مضمونتان لسنة ، او كان عمقه
ست عشرة فالمؤنة لسنتين ، ولكنه اذا ندى عن اربع عشرة او
بلغ الثاني عشرة فهناك قحط . وهذا ما يتفق ورواية هيروودوتس .

ان الكتاب الذي استشهد به عربي اللغة ، ولكن النتائج في
منازل الجميع . وحسب المطالع ان تراجع كلمة النيل في
المكتبة الشرقية لميلو Herbelot او مختارات الفلشندي في « رحلة »
الدكتور شو .

ان نوع الاذرع لا يحمل الالتباس . فقد برهن فريره ودانفيل
وبابي Freret, Dainville, et Bailli ان الذراع المصرية مسا انكسرت
محددة باربعة وعشرين قيراطاً مسا يولزي عندنا عشرين قيراطاً
ونصف القيراط . والذراع المصرية الحالية بحزاة الى اربعة وعشرين
قيراطاً . على ان الاعمدة المستعملة لقياس علو النهر قد طرأ عليها
تشويه لا يجوز اغفله .
يقول الفلشندي :

« تبين للعرب ، اول عهدهم في مصر ، ان الناس كانوا يتهافون
على جمع مؤنة السنة كلها ظهر ان النيل لم يبلغ حدة الفيضان .
وكان هذا الامر يشوش النظام . فرفعت الشكوى الى الخليفة عمر ،
فأمر عمرو ان يتفحص الامر . واليك ما بسط عمرو امام الخليفة :
لقد قمنا بالبحث الذي امرت به ، فتبين لنا ان النيل اذا ارتفع
الى اربع عشرة ذراعاً فالغلة تكفي للسنة ، واذا بلغ ست عشرة
ذراعاً كانت الغلال فائضة ، ولكنها رديئة اذا كان الارتفاع اثني
عشرة ذراعاً او ثاني عشرة . ولما كان الشعب يعرف ذلك مما يذاع
عليه في الخطب عادة ، فقد نتجت بعض الامور التي نعرفها
الشجاعة . »

وقد يكون عمر فكثر في الغاء الخطب تلافياً لهذه المخازير ،
ولكن الامر لم يكن مما يمكن حدوثه ، فابتدع - برأيي اني طالب -

طريقة أسفرت عن النتيجة نفسها . كان مقياس النيل مجزأ الى
اذرع واحدتها اربعة وعشرون فيراطاً ، فأمر عمر بالتلافه وابدل
منه آخر وضعه في جزيرة الروضة ، وأمر ان تكون اذرع الاثني
عشرة السفلى مؤلفة من ثمانية وعشرين فيراطاً عوضاً عن اربعة
وعشرين ، وان تبقى الاذرع العليا على ما كانت عليه من قبل ، اي
اربعة وعشرين فيراطاً للذراع الواحدة . وافضى الامر عندئذ الى
ان النيل اذا علم على التقياس درجة اثني عشرة ذراعاً كانت
حقيقة ارتفاعه اربع عشرة ذراعاً ، لان كل ذراع من هذه الاذرع
الاثني عشرة كانت تريد اربعة فراريط اي مجموعاً مقداره ثمانية
واربعون فيراطاً توازي ذراعين اثنتين ، بنوع ان الاعلان عن
ارتفاع المياه الى اربع عشرة ذراعاً ، وهو الحد المؤذن بغلال
« كافية » ، كان يشير في الحقيقة الى انها بلغت درجة « القبض » .
على ان هذه الحدة التي جازت على الجمهور لم تفت مؤرخي العرب .
فقد اضافوا على ما سبق ان مقاييس الصعيد - او مصر العليا -
بقيت مقسمة على اساس اربعة وعشرين فيراطاً ، وان الحد « ثمانية
عشر » كان دائماً ضاراً ، و « التسعة عشر » نادراً جداً ، والعشرين
يكاد يكون اعجوبة ^١ .

وما كان الاطراد اذن الا زعماً باطلاً ، وباستطاعتنا ان ندحضه
بواقعة اولى هي ان حالة النيل لم تتبدل سحابة زمن معروف
يطول الى ثمانية عشر قرناً ، فلماذا تبدلت حاله اليوم ، وكيف انتقل

١ ان الدكتور بوكوك الذي ابدى ملاحظات صائبة كثيرة على النيل قد ضل كل
الضلال في تفسير نص الفيلسوف . وقد حسب بالاعتقاد على فكرة مشبوهة ان مقياس النيل
في عهد عمر لم يكن الا اثني عشرة ذراعاً ، وبين على هذا الخطأ برهاناً من الافتراضات .

منذ السنة الالف والأربعمئة والثلاث والسبعين من خمسة عشر فيراطاً
الى اثنين وعشرين يمثل هذه المفاجأة ؟ ان هذه المسألة سهلة الحل .
ولست ابحث عن تفسير لها في الوقائع الطبيعية ، بل في ملاساعها .
فليس النيل هو الذي تبدل ، بل العمود ومقاييسه . والسر الذي يحيطه
به الاتراك بحول دون تثبت الرحالين فيه . على ان بوكوك الذي
استطاع ان يراه سنة ١٧٣٩ يروي ان درجات الاذرع كانت مشوهة
وغير متساوية . وهذا ما يحصل على الاعتقاد بان الاتراك غفلوا
بعض وشوهوا فيه تشويهاً جديداً . وثقة امر يبدد الشك في هذا
الصدد : ان نيهوهر - الذي لا يجوز التريب في ملاحظته - فأم
سنة ١٧٦٢ بقياس معالم الفيضان على حائط في الجزيرة ، فتبين له
ان النيل قد هبط في حزيران (يوليو) اربع وعشرين قدماً فرنسية ،
اذا حولتها الى اذرع باعتبار الذراع عشرين فيراطاً ونصف الفيراط ،
حصل لك اربع عشرة ذراعاً وفيراطاً واحداً . صحيح ان النيل
يسهر في الهبوط بعد ذلك ثمانية عشر يوماً ، ولكن اذا حسبنا
درجة هبوط نصف ذراع بحسب تقدير بوكوك ١ يكون المحصل
اربع عشرة ذراعاً ونصف الذراع . وهذا ما يلتقي والحساب القديم
تماماً .

وثقة زعم اخذ به سافاري لا يمكنني التسليم به دون تحفظ .

يقول في الصفحة الرابعة عشرة من رسالته الاولى :

« منذ اقامتي في مصر ، درت حول الدلتا مرتين حتى اتي

١ في ١٧ ابركان طول الميلاس خارج المياه احدى عشرة قدماً ، وفي ٣ حزيران
احدى عشرة ونصف ، اي نصف ذراع في مدة ١٧ يوماً .

اجتمعنا من قناة الشوكة ، وكان النهر يجري من خلفه في
ساعدي دمياط والرشد وفي السواعد التي تخترق داخل البلاد ،
ولكنه لم يكن يطوي على الأرض الا في الاماكن المنخفضة
حيث كانت تبضع السدود لري حقول الارز .

وباستنتاج من هذا :

« ان الدلتا هي حالياً في الوضع الاكثر مواءمة للزراعة ،
لان هذه الجزيرة بحرماتها الفيضان قد رجحت « كل سنة ثلاثة اشهر
يقضيها الصعيد تحت المياه . »

ليس ما هو اعزب من هذا الريح ، فاذا كانت الدلتا توبح من
عدم الفيضان فلاي سبب كان الفيضان مرغوباً فيه في اي زمن كان ؟
يقول ان « المجاري تقوم مقام الفيضان . »

على ان تشييه الدلتا بغياض السين من الخطأ بمكان . فالماء
ليس في مستوى الأرض الا حبال البحر ، وهو دوت مستواها
في اي مكان آخر . والخفاف ترتفع كلما صعدت في البر . واذا
جاز لي ان اورد شهادتي ، اثبت انني عند المخدري من القاهرة الى
الرشد لاحظت في السادس والعشرين والسابع والعشرين والثامن
والعشرين من شهر ايلول (سبتمبر) ١٧٨٣ ان بعض رقايع الحقول ما
برحت مغطاة ، على كون المياه قد تقاصت عنها منذ خمسة عشر
يوماً ، وان الاماكن المكتشفة تعمل آثار الفيضان . فالامر الذي
يلعب اليه سافاري ، ان هو الا نتيجة فيضات رديء ، ولا يجوز
القول ان ارتفاع الأرض قد غير في حالة الدلتا او ان الامر

١ ان يجري النهر قد ارتفع ايضاً كسائر الارض .

أفنى بالنصريين إلى أن يحصلوا على الماء بمجرد الوسائل الميكانيكية وهي مرهقة ومحدودة^١.

بقي علينا أن نحل مسألة أذرع مواريس النخفي، ولا حسب أن لها اسباباً من غير هذا النوع. يظهر أن النقايس قد طرأ عليها تبديل بعد عهد هذا الأمير، فأصبحت الذراع ذراعين. ويعزز هذا الافتراض أن مصر لم تكن في عهد مواريس ملكة واحدة، بل ثلاثاً ما بين اصران والبحر. فجاء سيوزوتريس ووجدها بالفتح، ولكنها عادت بعد هذا الأمير إلى انقسامها وظلت عليه حتى عهد سامتيث. إن هذا الانقلاب في النقايس ينطبق كل المطابقة على سيوزوتريس الذي أحدث مثله في الحكومة. فهو الذي جسد الشرائع والادارة، وأقام السدود، ومهد طرق المدن والقرى، وحفر من الترع عدداً تمكنت معه مصر من أعمال العجلات التي كانت تستخدم حتى ذلك العهد، على ما ذكر هيرودوتس^٢.

ومن الحسن أن نذكر أن الفيضان متفاوت الدرجات، فهو غير متماثل في مصر كلها، بل يتدرج في المبوط كلها انحدار النهر. فالطمي في اصران أضخم منه في القاهرة بمعدل السدس. وعندما يبلغ سبعاً وعشرين قدماً في القاهرة، لا يكاد يبلغ أربع أقدام في دمياط والرشيد. ومرد ذلك إلى أن النهر يرتفع أكثر فأكثر في مجراه الواحد وواديه الضيق برغم كمية الماء التي تنسحبها

١ تروى الدلتا السفلى بواسطة الدوايب لأن الماء فيها يمتوى الأرض، ويختلف الأمر في الدلتا العليا حيث تستخدم الشواجر.

٢ هيرودوتس، الكتاب ٢. إن هذه الرواية تؤيد المؤرخين القديسين الذين يعملون سيوزوتريس قبل عهد موسى إذ كانت العجلات ما تزال مستخدمة.

الأراضي ، وبالعكس فهو بعد مجاوزته القاهرة وانعكاسه من
تضييق الجبال عليه وتوزعه بين آلاف الشعاب ، بحسر حتم في
العمق ما يربحه في الانبساط .

يدرك مما ذكرت مبلغ غرور الذين توهموا أنهم عرفوا بالضبط
مقدار ارتفاع الدلتا وتوسعها . ولكنني ، وقد نبذت الأحوال التوهمية ،
لا يعني انكار أساس الوقائع نفسها ، فهي مؤيدة بالتعليل وبفحص
الأرض . مثل ذلك ان ارتفاع الأرض يثبت ، في نظري ، أمر لم
يؤيده له كثيراً : انك اذا ذهبت من الرشيد الى القاهرة ، والمياه
منخفضة شأنها في شهر اذار (مارس) ، تبين لك كلما صعدت في النهر
ان الضفة ترتفع تدريجياً فوق المياه ، فاذا علاها قدمين في الرشيد
علاها ثلاثاً او اربعاً في الفتوة واكثر من اثني عشرة في القاهرة .
فاذا علانا هذا الواقع يمكن الاستدلال منه على ارتفاع الأرض
بفعل الرواسب ، لان طبقة الطين التي تتناسب وسماكة طبقات الماء
الراسبة منها يجب ان تكون اكثف او اظف بحسب
عمق الطبقات ، وقد رأينا انها تسير بتدرج مماثل من الحواف
حتى البحر .

ويظهر تضخم الدلتا بصورة مذهشة في شكل الأرض المصرية
على البحر المتوسط . فاذا ترسبتها على الخارطة رأيت ان الأرض
التي في خط النهر - تلك الأرض المكونة من مائة غربية - قد
اتخذت تنوعاً نصف دائري ، وان خطوط شاطئ جزيرة العرب
وأفريقيا التي يضاف عليها تذهب في اتجاه ولوجي نحو عمق الدلتا
يدل على ان هذه الأرض كانت خليجاً ملاء الزمن .

ان ظاهرة المثل ، وهي عامة لكل الأنهر، تجري بطريقة آلية

عامة ايضاً ، فمياه الامطار والثلوج المنحدرة من الجبال الى الاودية
 تجتوف ما تقلعه من الاتربة في سقوطها . اما القسم الوارث من
 هذه الانقاض كالخصى والرمال فلا يلبث ان يقف اذا لم يدفعه
 نيار سريع . على ان المياه اذا لم تصادف الاتربة ناعمة خفيفة فهي
 تحمل منها كميات وافرة وتجري كثبانها بسهولة . والنيل الذي صادف
 من امثال هذه المواد في بلاد الحبشة وافريقيا الداخلية قد استخدمها
 لتعجيل العمل . فقد حملتها مياهه وامتلأ منها مجراه ، حتى انه غالباً
 ما يرم بها وعرقلت مجراه . على انه عندما يستعيد قواه بالفيضان
 يدفع هذه الكثبان الى البحر ، ويستقدم غيرها في الوقت نفسه
 للفصل الثاني : فاذا ما بلغت الاوحال مصبه تراكت وتكونت
 منها رملات ، لان المنحدر يخفف من قاعلية الجري ، في حين ان
 البحر يقيم توازن مقاومة . وينتج عن ذلك ركود يضطر العسكر
 الطافي ان يتحدر الى اسفل ويستقر في الاماكن الاقل اضطراباً
 كالشواطىء . وهكذا ينوي الريف شيئاً فشيئاً من انقاض البلاد
 العليا والدلتا نفسها ، لان النيل ينزع من الحبشة ما يعطي الصعيد ،
 ومن الصعيد ما يعطي الدلتا ، ومن الدلتا ما يدفعه الى البحر . فحينئذ
 ينساب يجري الارض التي يغنيها في وقت معاً . فاذا جمدت نحو
 القاهرة ، والمياه منخفضة ، رأيت الحواف المنحوتة عمودياً تنهار
 رقماً لان النيل يحفرها شيئاً فشيئاً من اسفلها ، مانعاً تربتها الرقيقة
 من السند ، فتتهدأ في مسيله . وعند فيوضه المياه قبيل التربة وتنداف ،
 ثم لا تلبث ان تنقلع بفعل الشمس والجفاف وتنساقط رفعاً
 كبيرة يجريها النيل . وعلى هذه الصورة تكسبت الترع الكثيرة
 واتسع غيرها بارتفاع قعر النهر ارتفاعاً مستمراً . وهذا ما حدث

لأثره الممتدة من النضير إلى فرع دمياط . فهذه القناة التي حفرها
في البدء يد الإنسان قد أصبحت شبيهة بنهر السين في أماكن
متعددة ، وهي تسد مسد الفرع الأصلي الواصل بطن البقرة بالنضير
الذي يتكبد حتى يوشك أن يصبح أرضاً يابسة إذا لم يستفرغ .
وسبب ذلك أن النهر ينزع باستمرار نحو الخط المستقيم حيث هو
أكثر ما يكون قوة واندفاعاً . وهو من أجل هذا السبب نفسه
قد نحول نحو فرع بلطین الذي لم يكن في الأصل إلا قناة
اصطناعية .

ويستدل أيضاً من حركات النهر هذه أن التكبد يجب أن
يحدث على خطوط المصاب الكبرى والنيارات الأشد . ومنظر
الأرض ينطبق على هذه النظرية ، لأن تفحص الخارطة يدل على
أن نواحي الأرض أكثر ما تلاحظ في اتجاه ساعدي دمياط
والرشد ، وما يجاورهما أو يتوسطهما من الأراضي بقي بحيرات
ومستنقعات شائعة بين الباسية والبحر ، لأن الأودية الصغيرة التي
تخلها لم يكن في استطاعتها أن تحدث إلا نكسباً ناقصاً .
فالرواسب والطين تهد ببطء لا يرتفع بها إلى ما فوق المياه ما
ثم يتدخل عامل أكثر فاعلية وهو البحر . فهو الذي يعمل دون
ما قبل على رفع مستوى الشطوط الواقعة فوق مياهه . وفي
الواقع أن أمواجه المتلاحمة على الشاطئ تدفع ما تصادفه من
طين ورمل ، وتركم دفعاتها هذا السد الطفيف وتكسبه ارتفاعاً لا
يتيسر قط في المياه الساكنة . وهذه الظاهرة ينحسب المائر على
خفاف البحر عند شاطئه وأطرافه خاسف ، شرط ألا يكون
للبحر تيارات على الساحل ، لأنه إذا كان يخسر في الأماكن

التي تدور فيها مياهه فهو يربيع حيناً تتحرك . ومتى أصبحت
الرمالات الحصى في مستوى الماء استولت عليها يد الانسان ،
ولكن عوضاً عن ان يقال انها رفعت مستواها فوق المياه يجب
ان يقال انها انزلت مستوى المياه ، لان الاقنية المحفورة تجمع في
مساحات صغيرة طبقات الماء التي كانت تمتد على مساحات اكثر
اتساعاً . ويبدو ان الدلتا تكونت ببطء استمر سجاية قرون
بحرولة المدى ، ولكن الطبيعة لا يعوزها الزمن .

لا شك ان المجال ما يزال واسعاً في هذه البلاد الاستقرام
واعادة النظر ، ولكنها ، على ما سبق وذكرت ، بصطدمان بعقبات
يحتاج تذليلها الى وقت ومهارة وبذل . وكثيراً ما تكونت
العقبات المرضية اكثر خطورة من العقبات الجوهرية . دليـل
ذلك ما حدث للبارون دي توت le Baron de Toll في حدد
مقياس النيل . فقد بذل المال عيشاً للعشاق حتى يتبين حقيقة
ارتفاع النيل ، فكانت افواهم انتفاضة تدل على احد امرين :
اما سؤ النية ، او الجبل المشترك . وقد يقول فائل انه يحسن
صنع ركائز فياسية في بيوتات خاوة . بيد ان هذه العمليات
البسيطة نظرياً ، مستحيلة التحقيق عملياً ، وتعرض من باشرها الى
اخطار جسيمة ، لان مجرد فضول الفرنسيين عند قدومهم بسوء
الانراك ، فهم يحسبون ان غم مطبوعاً في البلاد ، لان ما يقوم به
الروس مضافاً الى الاطمان السائرة لما يعزف فيهم التريب ، وتروج

ان عدد هذه الاقنية من الاسباب التي تغير معها درجات الفيضان ، فبالا كانت
الاقنية كثيرة عميقة كانت المياه اكثر سرعة واقل ارتفاعاً ، ويحدث العكس اذا كانت
قليلة سطحية.

في هذا الوقت الشائعات ان الزمن المتنبأ عنه قد حل ، وان ثمة انقلاباً في الحكم والدين والمصير النخ . وبعد ، فلنعد الى ما نحن في صدده .

اني الم الماماً خفيفاً بفصل^١ الفيضان وهو معروف، ويتدرجه تدرجاً ضئيلاً وغير فجائي ، ويتنوع حالاته التي تظهره قارة خفيفاً وتارة شديداً ، او بما لا يؤبه له في بعض الاحايين . والحالة الاخيرة قادرة جداً وان تكن قد حدثت مرتين او ثلاثاً على ما يذكر . ان جميع هذه الامور عمت معرفتها الى حد لا يجوز معه التكرار . ومن المعروف ايضاً ان اسباب تلك العوارض التي كانت لغزاً^٢ للاقدمين لم تعد لغزاً للاوروبيين . فمذ انبأهم رجالهم ان الحبشة والبقاع الملاصقة لها من افريقيا تغمرها الامطار في ايار وحزيران وتوز ، فقد استدلوا بذلك على ان تلك الامطار بحكم طبيعة الارض تنحدر من آلاف الجداول وتستجمع في واد واحد لتظهر على الضفاف البعيدة غمرآ مهبياً يستغرق سيلانه ثلاثة شهور .

اننا نتوك للقيزيين اليونانيين الزعم القائل بان ضغط الرياح الشمالية يوقف مجرى النهر . ومن العجب ان يكونوا القائلين بهذا التفسير ، لان الرياح اذا كانت تؤثر في سطح المياه فهي لا تحول دور خضوع العمق للانهيار . وعشياً حاول بعض المعاصرين الاستشهاد بمثل البحر المتوسط الذي اذا ما استمرت الرياح الشرقية

١ يحددون له موعداً ثابتاً في ١٩ حزيران ، ولكن من الصعب تبين ذلك في الاول بالذقة التي يريدونها الاتباع .

٢ ولكن ديموقريثس قد حل هذا اللغز . راجع تاريخ ديونورس سيبليا ، الكتاب الثاني .

يعبري شاطئ، سوربا مقدار قدم او قدم ونصف القدم ليغطي
شواطئ اسبانيا بالمقدار نفسه، حتى اذا هبت الريح الغربية كان
المفعول معكوساً، فلا وجه مقابلة بين بحر لا انحدار فيه ونهر،
وبين بركة المتوسط والنيل، وبين ست وعشرين قدماً وثمانية عشر
قيراطاً.

الفصل الرابع

في الرياح واعراضها

ان تلك الرياح الشمالية التي تعود كل سنة في مواقيت معينة تجتمع في سماء الحبشة وكأماً عجيباً من السحب . فمن نيسان الى تموز لا تنفك الغيوم متجهة نحو الجنوب حتى يجبل اليك ان المطر وشبك السقوط ، ولكن عبثاً نطلب من هذه الارض المحرقة نعمة كذلك . فلا مضر قط في الدلتا ايان الصيف ، حتى انه نادر شحيح خلال السنة . اما السنة ١٧٦١ التي لاحظها ليهوهر فقد كانت ظاهرة غريبة ما يرح الناس يتحدثون بها . والحوادث التي نشأت عن الامطار وفنتسند في مصر السفلى ، كانهببار بعض القرى النارية الساكن ، تدل دلالة كافية على ان الناس قليلاً ما يتوقعون هذه الغزارة في الامطار . ويرى الملاحظ ان المطر يصبح نادراً كلما رقي نحو الصعيد . فهو في الاسكندرية والرشيد اكثر حدوثاً منه في القاهرة ، وفي القاهرة اكثر حدوثاً منه في المنيا ، ويكاد يكون اعجوبة في جرجا . ولا يصح لنا نحن سكان النواحي الرطبة ان نتصور كيف يعيش فطر بلا قطر .

١ اذا نزل المطر في مصر وفلسطين تلك الشهب فرح جميع ، فيجتمع الناس في الازقة ينددون الاثني عشر مارغين بله اصواتهم : يا الله ، يا مبارك !

على ان كميات المياه التي تحتفظها الارض من الفيضان في مصر
فضلاً عن التمدد الهام في ايام الصيف لما يكفي النبات . وبالطبع
احد الشواهد اليقينة ، اذ غالباً ما يكون جذعه في تراب جاف ،
فيما تنعم اورافه بالطراوة . وثمة ظاهرة مشتركة بين هذه الانداء
والامطار ، فهذه كذلك غزيرة صوب البحر تتناقص كلما ابتعدت
عنه ، وتختلف في ان الانداء افضل في الشتاء منها في الصيف .
وحالما تغيب الشمس عن الاسكندرية في شهر نيسان تبثل الثياب
والسلوح كما لو كان شتاء . وهذه الانداء ، كالامطار ، كثيفة
او لطيفة بحسب نوع الريح الطالعة . فالريح الثقيلة من الجنوب
او الجنوب الشرقي لا تجود بها ، والشالية غزيرة منها ، والغربية
اغزر ايضاً . ومن السهل تليل هذه الفوارق متى لوحظ ان
الرياحين الاوليين قبلان من صغاري افريقيا وجزيرة العرب حيث
لا تقعان على فطرة ماء ، في حين ان الشالية والغربية تطردان
نحو مصر ابخرة المتوسط الذي يجتازهما احدهما عرضاً والاخرى في
مسافة طوله . واني ارى ، اذ اقابل ملاحظاتي في البروفانس
وسوريا ومصر بملاحظات نيبوهر في جزيرة العرب وبومباي ، ان
مواقع البحار بالنسبة للبابية انما هي السبب في تعدد خصائص
الريح الواحدة التي تبدو بمطرة في بلد على كونها جافة ابداً
في بلد آخر . وهذا الامر يحل كثيراً في مذاهب الفلكيين القدماء
والحديثين القائمين بتأثيرات الكواكب .

وثمة عارض آخر عجيب ، غنيت به عودة كل ربيع من الربيع
عودة دورية ، وتخصها - اذا صح التعبير - ببعض فصول السنة .
وهذا الانتظام في مصر وسوريا جدير باستيفاف النظر .

وفي مصر ، عندما تقترب الشمس من مناطقها ، تنقل الرياح التي في الشرق الى دائرة الشمال وتلبث فيها . وفي حزيران تهب باستمرار من الشمال والشمال الغربي . وهذا الفصل يؤدي السفر الى الشرق ، حتى ان السفينة التي تفلح من مرسيليا باستطاعتها ان تلقى مراسيلها في قبرص او الاسكندرية في اليوم الرابع عشر ، وفي بعض الاحيان في اليوم الحادي عشر من اطلاقها . والرياح في تموز لا تزال تهب شمالية منتفلة يميناً وشمالاً بين شمالية غربية وشمالية شرقية . وتصبح شمالية صرفاً في اواخر تموز وطوال آب والنصف الاول من ايلول ، فتكون معتدلة ، اكثر ما تخفق في النهار ، فيما هي في الليل اكثر سكوناً . ويسود المتوسط سكون شامل تمتد معه العودة الى فرنسا حتى سبعين يوماً او ثمانين . وفي اواخر ايلول عندما ترجع الشمس عن خط الاستواء ، تعود الرياح الى الشرق ، وهي وان لم تستقر فيه تهب منه اكثر من هبوبها من اي جزء آخر من اجزاء دائرة الرياح باستثناء الشمالي منها . وتغتم السفن فرجة هذا الفصل الذي يستمر طوال تشرين الاول لتعود الى اوروبا ، فيستفرق مسيرها الى مرسيليا خبة وثلاثين يوماً او ثلاثين . وكلما انقلبت الشمس عن خط الدائرة تصبح الرياح اكثر نقلياً واضطراباً ، وتنفذ المناطق الشمالية وما جانبها من شرق وغرب ، وتبقى على حالتها هذه في كانون الاول وكانون الثاني وشباط ، ويتألف منها في مصر وعندنا فصل الشتاء . ويحدث عندئذ ان انجرة المتوسط المتراكمة والمتقلبة بعبودة الهواء تقترب من اليابسة وتكون الضباب والامطار . اما في اواخر شباط وفي آذار عند اقتراب الشمس من خط الاستواء فتهب

الرياح أكثر من أي وقت آخر من الجنوب . وهي في هذا الشهر ، كما في نيسان ، تهب جنوبية وجنوبية شرقية وجنوبية غربية . وتخرج بها الغربية والشمالية والشرقية . وهذه الأخيرة تصبح عادة في آخر نيسان ، وتسلط مع الشمالية على البحر في أيار ، وتجعل مدة العودة الى فرنسا اقصر مما كانت عليه قبل ان يعادل الليل النهار على هذه الصورة .

السموم أو الخمسين

هذه الرياح الجنوبية التي تحدث عنها يطلق عليها في مصر اسم رياح الخمسين ، ليس لأنها تستمر خمسين يوماً متوالية ، بل لأنها أكثر ما تهب في أثناء الخمسين يوماً التي تدور حول الاعتدال الربيعي . وقد ذكرها الرحالون في أوروبا باسم الرياح المسمومة ، أو بتعبير أصح : الرياح الصحراوية الحارة . وهذه هي في الواقع خاصتها ، لأن حرارتها ترتفع الى حد يصعب معه على المرء ان يتحمل ما هي ما لم يكابدتها بنفسه ، ولكن يمكن تشبيه تأثيرها باللفحة التي تصفحك من فوهة الفرن .

عندما يبدأ هبوب هذه الرياح يضطرب الجو ، وتعتكر السماء اعتكاًراً خفيفاً ، وتنفقد الشمس من سطوعها حتى تحسبها أسطوانة بنفسجية . أما الجو فلا يبدو غائماً ، بل رمادياً ، ينشرف فيه غبار لا يرسب ، ويغشى كل مكان . وهذه الرياح الخفيفة السريعة ليست

وهي التي يسميها العرب السموم .

شديدة الحرارة عند بدء هبوبها ، ولحقتها تشد شيئاً فشيئاً .
وتستشعرها الاجسام الحية فوراً لما يطرأ عليها بسببها من التبدل .
فان الرئة يعوزها الهواء الكافي فتتقلص وتتململ . ويضيق فيها
النفس وتسرع حركاته ، ويحف الاديم وتناكل الحرارة باطن
الجلد . ومهما تتواتر جرعات الماء فلا يتسبب العرق . وعندئذ
يبعث المراء عن الطرارة ، والاجسام الرطبة تخرج اليد التي تلامسها .
فالرخام والحديد والماء حارة الملمس برغم احتجاب الشمس . وعندئذ
تقفر الشوارع ويحجم عليها الصمت شأنها في الليل . ويأوي سكان
المدن والقرى الى منازلهم ، واهل البادية الى خيامهم او الى الآبار
المحفورة في الارض حيث ينتظرون زوال العاصفة . وهي تستمر
عادة ثلاثة ايام . فاذا تجاوزت هذا الحد اصبحت فوق طاقة الاحتمال .
والويل للمسافرين الذين تقبأهم بعيداً عن مأويهم ، فهم يكابدون
من نتائجها اسوأ مصير قد ينتهي بالموت . واكثر ما يكون الخطر
في ايام الزوابع ، اذ تنشأ من سرعة الرياح حرارة تقلى فتلا صاعقاً .
ويكون الموت اختناقاً حقيقياً ، لان الرئة تنفس في الفراغ
وتختلج ، وتضطرب دورة الدم في الشرايين ، ويطرد القلب الدم
الى الرأس والصدر . وهذا ما يفسر النزف الذي يحصل من الانف
والفم بعد الوفاة . واكثر ما تفعل هذه الرياح في البدنة وفي الذنب
حطيم التعب لوالب عضلاتهم وشرايينهم . اما الجنة فتستمر حرارتها
وقتاً طويلاً ، فتتفقع وتترق وتترق بسهولة . وهذه العوارض تدل
على الاختيار التعفني الذي يحصل في اجسام الحيوانات عندما ناسن
فيها الاخلاط .

وبقتضي لاجل التخلص من هذه الاعراض سد الانف والفم

بالمناذيل . وئة وسيلة ذات جدوى تلجأ اليها الجبال فتغزو انوفها
في الرمال ريثما تهدأ العاصفة .

وعند الرياح شديدة الجفاف حتى انها تبخر ماء الغرفة المرشوشة
في دفائق معدودات ، وتذبل النباتات وتعيه ، وتنقص افرازات
الاجسام الحية ، فيقلص الاديم وتسد خلاياه ، وتحدث هذه الحرارة
الشديدة التي توافق احتباس العرق .

ولست هذه الرياح الحارة خاصة بمصر ، فهي تحدث في سوريا
على الساحل غالباً . وهي في الصحراء اكثر منها في الجبال .
ومصادفها نهبهر في جزيرة العرب وبيومباي وديار بكر . ولا تخلو
منها القرس واقرقيا واسبانيا نفسها . ونتائجها متشابهة في كل
مكان ، ولكن اتجاهاتها تختلف باختلاف الامكنة . ففي مصر يقبل
اشدها من الجنوب والجنوب الغربي ، وفي مصر من الشرق ،
وفي حورات من الشمال ، وفي البصرة من الشمال الغربي ، وفي بغداد
من الغرب ، وفي سوريا من الجنوب الشرقي . ان هذا التناقض
الذي يشير الارتباك لاول وهلة لا يلبث ان يصبح في التأمل
وسيلة لحل اللغز ، اذ يتبين لدى تفحص المواقع الجغرافية ان
الرياح الحارة تنطلق ابدأ من البقاع الصحراوية . ومن الطبيعي
ان الهواء الذي يغطي السهول العظيمة في ليبيا وجزيرة العرب ،
حيث لا جدول ولا بحيرة ولا غاب ، يسخن بفعل الشمس المحرقة
ويانعكس الرمال ، ويستوعب ما يستطيع استيعابه من درجة
الحرارة والجفاف . فاذا طرأ سبب يحوله الى مجرى معين تدافع
فيه نافلاً ما اكتسبه من ميزات عجيبة . وما يثبت ان هذه الميزات
ناشئة عن فعل الشمس في الرمال هو ان هذه الرياح تبدل

بتبديل الفصول .

ويؤكدون مثلاً انها في مصر ، خلال شهري كانون الاول والثاني ، تظاهي الريح الشمالية في البرودة . وسبب ذلك ان الشمس ، وقد انقلبت الى دائرتها الاخرى ، لا تلب عندئذ اقرباً الشمالية ، فيما تكون الحبشة مكسوة بالثلوج . ويجب ان تكون الشمس قد نذرت من خط الاستواء حتى تحدث هذه العوارض . وفي سبب مماثل يجعل الريح الجنوبية تصل الى قبرص مرطبة بالبحر المتوسط . اما الريح الشمالية فهي شديدة الحرارة في هذه الجزيرة خلال الصيف ، فيما هي تلجبة في الشتاء . وهذا ناتج بلا شك من مناخ آسيا الصغرى التي يشهد فيها القبط صيفاً ، والصقيع شتاء . ان هذا الموضوع يشير مسائل عديدة تستدعي فضول علماء الفيزياء . أليس جديراً بالاهتمام الاطلاع على الامور التالية :

- ١ - ما هو منشأ علاقة الفصول ومسير الشمس بنوع الرياح وبالشاطق التي تهب منها ؟
- ٢ - لماذا تسلط الرياح الشمالية على بحل المتوسط خلال تسعة شهور من اهل اثني عشر شهراً ؟
- ٣ - لماذا تهب الرياح الشرقية بانتظام بعد الاعتدال الخريفي والصيفي ؟
- ٤ - ما السبب في ان الندى اغزر في الشتاء منه في الصيف ؟ ومع العلم ان الغيوم تحصل من تبخر مياه البحر ، وان التبخر اشد في الصيف منه في الشتاء ، لماذا تكثر الغيوم في الشتاء ، فيما هي قليلة في الصيف ؟
- ٥ - واخيراً ، لماذا تنذر الامطار في مصر ، ونتجها الغيوم الى سماء الحبشة ؟

الفصل الخامس

المناخ والهواء

المناخ في مصر شديد الحرارة اذ تبلغ درجتها خلال تموز وآب ٢٤ او ٢٥ في اكثر الظلال اعتدالاً . ويقال انها تبلغ درجة اعلى في الصيف . والسبب الرئيسي في ذلك مجاورة الشمس هذا القطر ، وهي تكاد تكون عمودية في الصيف . ولكن متى عرفت ان هنالك افطاراً اخرى واقعة في مثل هذا الموقع من خط الاستواء هي اكثر من مصر اعتدالاً هواء ، بين لك وجود سبب آخر يوازي الاول بغاظيته ، غيببت به مستوى الارض الذي يكاد لا يرتفع فوق البحر . وتقتصر فصول مصر ، بسبب هذه الحرارة ، على فصلين اثنين : الربيع والصيف ، اي البرودة والقيظ . وهذه الحالة الاخيرة تستمر من آذار حتى تشرين الثاني . ويمكن القول ان الاوروبي لا يطبق احتمال الشمس ابتداء من آخر شباط لدى الساعة التاسعة من النهار ، اذ يستعر الهواء طوال هذا الفصل ، وتوهج السماء ، ويرهق القبط الاجسام التي لم تعود من قبل . فانك مهما توق نسيابك ومهما تستسلم للراحة ، يتعذب العرق منك بغزارة ، ولكنه يصبح ضرورياً ، حتى اذا انقطع عنك انسيابك المرض . وارى انه عوضاً عن التجهية المعتادة « كيف انت ؟ » يجب ان يقال « كيف تعرق ؟ » ان غروب الشمس يعدل هذه الحرارة شيئاً . فالبحر الذي تنشرحه

الأرض من النيل ، فضلا عن التي تحملها رياح الغرب والشمال ، تطفئ
 التوهج المنتشر في الهواء وتنتشر برودة لطيفة ، حتى أنها تحدث
 برداً لا ذعاً إذا صح قول الطبيعيين وبعض التجار الأوروبيين .
 بيد ان المصريين ، وهم شبه عراة تعودوا العرق ، يشعرون من البرودة
 ولو خفيفة . وميزان الحرارة الذي ترواح درجته خلال شباط بين
 الثماني والتسع في حالة الندى يثبت ما نحن في صدد ، حتى يمكن
 القول ان البرد والتلج حدثان قد لا يعرفهما قط مصري بلغ من
 العمر خمسين عاماً . على ان ما في تجارنا من رهافة الاحساس يرجع
 الى افراطهم في لبس القراء . فهم يتدثرون في الشتاء بفرويتين او
 ثلاث من جلود الثعالب ، ويحفظون بفراء السمور حتى في اشد
 حرارة حزيران . وهم ينجون على ذلك بالبرودة التي يحسونها في
 الظل . وفي الواقع ان تيارات الشمال والغرب التي تكاد تسيطر
 باستمرار تشيع الطرارة في كل الاماكن المحجوبة عن الشمس . على
 ان عقدة السر الحقيقية هي في تلك الفروة ، شارة التبرج في تركيا .
 وهي اشارة الالة ، وعلامة العظمة ، والمهدة المفضلة لمن
 يتولون المناصب الخطيرة . فكان مهديا يقول لمن يرندها انه السيد
 العظيم الذي اصبح ولا شغل له الا ان يعرق .

نجمل اليك ، بالنظر الى شدة الحر وكثرة المستنقعات طوال ثلاثة
 اشهر ، ان مصر بلد ردي النتائج . وهذا هو التأثير الاول الذي
 اعتزاني حالما وطئت ارضها . فلما وقعت عيني في القاهرة على
 منازل تجارنا الجائفة على طول الخليج حيث تركد المياه حتى شهر
 نيسان ، حسبت انهم معرضون لختلف الامراض بسبب الانجاسة
 المتصاعدة . بيد ان الاختبار يكذب هذه النظرية . فان روائح

المياه الآسنة ، وهي قتالة في قبرص والاسكندرية ، لا تحدث المفعول نفسه في مصر . ويلوح لي ان السبب في ذلك جناف الهواء فيها ومجاورتها لافريقيا وجزيرة العرب اللتين تنشران الرطوبة فضلاً عن تيارات الهواء المستمرة من دون حاجز . وهذا الجفاف هو من الشدة بحيث ان الاحوم المعرضة للرياح الشمالية ، حتى في الصيف ، لا تقصد ، بل تنشف وتقسو كالخطب . وتعرض الصحراء منظر جثث جافة أصبحت من خفة الوزن بحيث يسهل على الرجل ان يرفع باليد الواحدة هيكل حمل كامل ^١ .

ويضيف اقراء الى هذا الجفاف رواسب ملحبة تلتصق في كل مكان . فالحجارة يقرضها النطرون . وهناك في الاماكن الرطبة مسلات طويلة متبلورة نحسب انها البورق . وجدار حديقة اليسوعيين في القاهرة المبني بالاجر والتراب محكسو بقشرة من النطرون بسماكة الفلس . وعندما تغمر مياه الخليج مربعات هذه الحديقة ، ترى عند تراجعها ان الارض تلتصق فيها كريات بيضاء لا شك انها لم تأت مع الماء ، لان هذا الماء لا يعطي اي دلالة على الملح سواء اكان بالذوق ام بالتقطير .

لا ريب ان هذه الخاصة المزدوجة في الهواء وفي الارض - مضافة الى الحرارة - هي التي تكسب النباتات نشاطاً يكاد لا يصدق في مناخاتنا الباردة ، فحينما تنعم الزروع بالماء تنمو بسرعة عجيبة ، ويمكن من قصد الى القاهرة او الرشيد ان يتبين

١ - يلاحظ ان هواء الساحل اقل جفافاً ، اذ ان الحديد المعرض للهواء مدة اوسع وعشرين ساعة في الاسكندرية والرشيد لا يلبث ان يصدئ .

ن القرع تطول فروعه في اربع وعشرين ساعة ما يقارب اربعة
قراريط .

على اني الاحظ ، وبهذا الختم البحث ، ان هذه الارض مائعة
جائرة ، بمعنى ان الاغراس الاجنبية تؤول فيها الى انحطاط سريع ،
وهو امر اثبتته الاختبارات المذكورة . وترى تجارفا مضطربين الى
تجديد البزور في كل سنة ، فيستقدمون من ماطة بزور التبييط
والشمندر والجوز . فاذا ما زرعت هذه البزور احابت في اول
الامر نجاحاً كبيراً ، ولكن البزور التي تتولد منها لا تثبت الا
اغراساً سقيمة . وحدث الشيء نفسه للوبياء والاجاص والدراقن
المستورد من الرشيد . ويلوح ان نمو النباتات في هذه الارض
عنيف الى حد انه تفوته تغذية الاثفاف الاسفنجية الغضرة . فيجب
ان نألفها الطبيعة تدريجياً وان يؤانها المناخ عن طريق العناية
الزراعية .

القسم الثاني

حالة مصر السياسية

الفصل السادس

سكان مصر واجناسهم الغريبة

قليلة هي البلاد التي احتفظت بسكانها الاقحاح الصرحاء خلال الثورات التي عجزت على النواحي مقدرات الشعوب . فان الجشع الذي يحمل الافراد على التطاول والتعسف هو نفسه الذي دفع الامم الى الوقوف وجهاً لوجه . وفد نتج من هذا الاصطدام في المصالح والقوى ان دخل البلاد غريب متعصر . فهو عندئذ اما مقتصب عات يعرسي الامة المغلوبة من التراث الذي جادت عليها به الطبيعة ، واما فاتح اكثر تهيئاً لو غدتا يقتصر على مقاسمتها المنافع التي ضمت بها عليه ارض موطنه . وهكذا نشأت في الدول اجناس مختلفة من السكان فتربت بينها الطبائع والمصالح في بعض الاجيان ، فتأرجحت بالتزاوج ، او فرقت بينها في اكثر الاجيان الاعتباريات السياسية والدينية ، فتعايشت على الارض الواحدة دون ما اختلاط وامتزاج . ففي الحالة الاولى فقدت الاجناس المختلطة خواصها المميزة فاصبحت شعباً متجانساً ، وفي الحالة الثانية بقيت الفوارق واستمرت متميزة حتى غالبت العصور بحيث يمكن الركون اليها في بعض الحالات للاستعاضة بها عن سكوت التاريخ .

وهذا هو شأن مصر . فهي قد تزعت من ممالكها الطبيعيين منذ ثلاثة وعشرين قرناً ، وشهدت على التعاقب الفرس والمقدونيين والرومانيين والاعريقين والعرب والكرجية ، واخيراً هذا الجنس النثري المعروف بالأتراك العثمانيين . وكثيرة هي الشعوب التي تركت فيها أثراً بئناً . أما وقد تخالطت في تعاقبها فقد اصح من المتعذر التفريق بين مييزات كل منها على حدة . بيد انه يمكن تمييز اربعة شعوب من سكان مصر .

فالشعب الاول والاكثر انتشاراً هم العرب ويقسمون طبقات ثلاث :

١ - ذراري الذين تألبوا على هذه البلاد الحبيرة من الحجاز واثار اجزاء جزيرة العرب عندما دخلها عمر في السنة ٦٤٠ . فقد تهاافتوا على امتلاك الاراضي حتى ضاقت بهم الدلتا واغفرت من الاغارقة المدحورين . ان هذا الشعب الذي تتألف منه طبقة الفلاحين والصناعيين الحالية قد احتفظ بسياته الاصلية ، ولكن به اكتسب بنية اصلب وقواماً اطول ، وهما نتيجة طبيعية للغذاء الوفير الذي لم يكن منسباً له في الصحراء . وفلاح مصر يبلغ طوله عادة خمس اقدام واربعة قراريط . وكثيرون يبالغون ست اقدام ، بل سبعة . واجسامهم عضلة دون بدانة . ولهم قوة الرجال المتوسين بالنعب . وجلودهم التي لوحتها الشمس تكاد تكون سوداء . وليس في وجوههم ما ينفر . ومعظمهم ذو رأس اهلبيجي جميل ، وجبين عريضة ناتئة ، وحاجب اسود على عين سوداء عميقة برافة ، وانف ينزع الى الضخامة غير افنى ، وفم منتظم الحوافي على اسنان جميلة ابدأ . ان سكان المدن اقل تشابهاً بسبب كثرة

الاختلاط ، أما سكان القرى الذين لا يتزوجون الا بدوي قريتهم
فسماهم اكثر تشابها وبروزاً . وفي سبيلهم خشونة يرجع سببها الى
مبول في النفس ما يوحى تغذيتها حالة الحرب والظلم التي تحيط بهم .
٢ - وثمة طبقة ثابتة من العرب هي طبقة الافريقيين او المغاربة
الذين انضموا الى اهل الطبقة الاولى على التوالي . وهم منهم
انسال الفاتحين المسلمين الذين اجلوا اليونانيين عن بلاد المغرب .
ويتعاطلون مثلهم الزراعة والحرف ، ولهم اكثر انتشاراً في
الصحراء حيث يستقلون في قراهم ، وفي امراهم ايضاً .
والطبقة الثالثة البدو او رجال البادية او اهل الحجام .
فبعض هؤلاء موزع عشائر تقطن الصحور والمغاور والخرائب
والاماكن المنعزلة حيث الماء . وبعضهم الآخر يتجمع قبائل تنزل
الحجام الواطئة المسودة بالدخان وتعيش في رحل مستديم . وسواء
اقاموا في البادية ام على ضفاف النهر فهم لا يعلقون بالارض
الا بقدر ما يربطهم بها الامان والمرعى . ومنهم قبائل تأتي كل
سنة بعد الفيضان من قلب افريقيا لتفيد من الكلا الثابت ، ثم لا
تلبث ان تنوغل في الصحراء خلال الربيع . ومنهم قبائل مقبلة
في مصر تستأجر الارض وتزرعها . وبين تلك القبائل جميعها حدود
متعارفة محترمة المعالم ، فاذا تجاوزتها قبيلة تعرضت للحرب . وهؤلاء
القوم نط واحد في المعيشة وعادات واخلاق واحدة . والبدو
قراء اميون ذوو خصائص فيزهم من الامم المحيطة بهم . وهم

١ في اللغة العربية : بدوي مشتق من اليد وهي الصحراء غير المأهولة (الحاشية
للؤلف) .

مسالمون في ربهم ، ولكنهم في حالة حرب في اي مكان آخر .
يكرههم المزارعون والمهاجرون بسبب النهب والتعدي ، ويحشاهم
الأتراك فيدسون بينهم بالفرقة والرشوة .

يقدر عدد هذه القبائل في مصر بثلاثين الف خيال ، ولعل
قواتهم مبعثرة غير متألفة ، وينظر اليهم كسرقة متشردين .

والجنس الثاني من السكان هم الاقباط ، فمنهم بعض الاسر في
الدلتا ، ولكن معظمهم يقطن الصعيد حيث تتألف منهم قري
بكاملها . ويثبت التاريخ فضلا عن التقاليد انهم متحذرون من
القوم الذين جردهم العرب ، اي من هذا الخليط من المصريين
والفرس واليونانيين بنوع خاص ، الذين ظفروا مصر زمناً طويلاً
في ايام بطليموس وقسطنطين ومن تعاقبوا على الملك بعدهم
الاسمين . وهم بخلاف العرب يدينون بالنصرانية ، ويشيرون من
سائر المسيحيين في مذهبهم الذي هو مذهب اوتيجيوس . وكانت
من نتيجة اعتناقهم لمبادئ هذا الرجل اللاهوتية ان سائر الروم
ساموم من الاضطهاد ما جعلهم ينفرون من المسألة . فلما فتح
العرب البلاد افادوا من هذه الحالة لبضعفوا الفريقين . وانتهى
الامر بالاقباط ان ابعادوا مناوئهم . ثم اصبحوا ، لمعرفتهم
اصول الادارة الداخلية في مصر ، امراء سجلات الاراضي
والقبائل ، واتخذوا اسم « الكتبة » فكانوا وكلاء وجباة لدى الحكومة
والبيكات . وهؤلاء الكتبة الذين يخنفهم الاتراك بخدومهم ،
ويكرههم الفلاحون بسبب جورهم ، يؤلفون هيئة يرأسها كاتب القائد
الرئيسي . فهو الذي يتصرف بجميع المناصب فلا يمنحها بغير مقابل
من المال .

يرى عموم ان لفظة قبطي مشتقة من اسم مدينة فوبطوس التي
 لجأ اليها الاقباط عند اضطهاد الروم لهم ، ولكنني اجد لها اصلاً
 اعمق واصوب . ان لفظة قبطي العربية هي بلا شك تحريف
 الكلمة اليونانية ايجوبتس اي مصري ، لانه نجب
 الملاحظة ان حرف « كان يلفظه اليونانيون القدماء uu ، وان
 العرب لا يعرفون p او « قبل u, u, u فهم يستبدلون من هذه
 الحروف دائماً حرفي « و « . فالاقباط اذن يمثلون المصريين^١ وعندهم
 حرف « الذي لا يتبدل امام الاحرف الصوتية شأن حرف «
 عندنا . وفي اعتبار آخر يجلي على هذا الاعتقاد ، وهو ان وجوه
 الاقباط على الاطلاق تنسم بسمة خاصة قد استرعت انتباهي :
 عنيت هذه البشرة الصفراوية الدخانية اللون التي ينسبها اصل يوناني
 لا عربي . فثمة وجه منتفخ ، وعين مورومة ، وانف اقطح ، وشفة
 ضيقة ، ومجمل القول وجه خلاشي واضح .

وقد بدا لي ان انسب هذه الخصائص الى المناخ^٢ ، فلما زرت
 ابا الهول تكشف لي السر في منظره . نظرت الى هذا الرأس وهو

١ خصوصاً وانهم سكنوا الصعيد قبل ديوكليتيانوس وان اليونانيين كانوا في الصعيد
 اقل منهم في الدلتا .

٢ وفي الواقع لاحظت ان وجوه الزنوج متفصلة تقص وجوهها عند مجاميع الدور
 وانعكاس الحرارة . فيتطد الحاحب عندئذ ، وتتلو الوجنتان ، وتتقارب الاعداب ، وينسج
 الفم . وهذا التشنج الذي يحصل باستمرار في بلاد الزنوج الجرداء الحارة الا يصح القول
 انه اصبح ميزة خاصة لوجوههم ؟ ان الصليح والريح والتلج تفضي الى النتيجة نفسها السني
 تظهر في هذه الاحوال عند النتر ، في حين ان هذه الحالة لا توجد في المناطق المعتدلة
 حيث تستطيل القسبات ، وتكون العيون اكثر قرباً من مستوى الرأس ، والوجه كله اكثر
 تنعماً .

رأس زنجي في جميع قسائه ، فتذكرت هذا المقطع الشهير من
هيروودونس حيث يقول :

« اما انا فاعتقد ان الكشبيين جالية من المصريين لانهم يثألونهم
في سواد الوجه وتجمع الشعر . »

ويدل هذا على ان قدماء المصريين كانوا من الزنوج سكان
افريقيا الاصليين جميعاً ، ويفسر لنا كيف ان دمهم الذي امتزج
على مر العصور بدم الرومانيين والاغريق قد فقد حليته الاولى
واستبقى منها ما يدل على طابعه الاصلي ، حتى ان يجوز اطلاق
هذه الملاحظة والقول ان السياه اثر يضيء شواهد التاريخ عن
اصول الشعوب . وعندنا في فرنسا ، لم يكن انقضاء تسعمائة سنة
كافياً لازالة الفارق الذي يميز سكان غاليا ، هؤلاء الشماليين الذين
احتلوا اغنى مقاطعاتنا في عهد كارلوس السمين ، ويحدثك المسافرون
من نورمانديا الى اندلوارك بدمشة عن الشبه الاخوي بين سكان
هاتين المقاطعتين ، ذلك الشبه المحفوظ برغم الفاصل الزمني والمكاني .
وبلاحظ الامر نفسه بين فرانكونيا وبورغونيا . ومن تبسر له
ان يتجول مثلياً في فرنسا وانكشترت زبين اثر الهجرة على وجوه
السكان . أليس في اليهود آثار لا تطمس حيث حلوا ؟

وفي البلدان التي يكون شرفاؤها اغراباً دخلوها عن طريق
الفتح ، اذا كان هؤلاء لم يخسروا الوطنيين بالزواج ، احتفظوا
بطابع خاص بهم ، والدم الكلدوني في الهند ما برح متميزاً من
غيره . فاذا تهيأ لاحد ان يدرس مختلف الامم الاسيوية
والاوروبية لا يعدم ان يجد من هذه المائلات ما ارضى عليه
النسيان سدوله .

ما ادعى عبدة التاريخ في مصر الى التأمل ! ان الاقباط على ما هم عليه اليوم من جهل وهمجية يتحدرون من تزاوج عبقرية المصريين العريقة والفكر الاغريقي الساطع . فهذا الشعب الاسود الذي هو اليوم عبدنا وموضوع احتقارنا هو هو نفسه الذي نحن مدينون له بالعلوم والفنون وحتى بالحرف . ولننصور اخيراً ان اكثر العبوديات همجية قد نشأت بين هذه الشعوب التي تزعم انها اكثر الشعوب حباً للحرية والانسانية ، وهي التي اثارَت مسألة ما اذا كان الجنس الاسود ياتل الجنس الابيض في الذكاء !

واللسان اثر آخر له دلالاته الصادقة المفيدة . واللسان الذي كان يستعمله الاقباط مثبت لما ازعم . فان شكل حروفهم ومعظم كلماتهم يدل على ان الامة اليونانية قد وصلت مصر بطابعها العميق خلال الف سنة^١ . ونرى من ناحية اخرى ان الابجدية القبطية تنطوي على حجة حروف ، والمعجم على كلمات عديدة هي انقاض اللغة المصرية القديمة وبغاها . فاذا تفحصت هذه الكلمات وجدت مماثلة بيّنة بينها وبين لغات الشعوب المجاورة القديمة كالعرب والانيوبيين والسوريين ، بل وسكان ضفاف الفرات ، حتى يمكن التاكيد ان جميع هذه اللغات مشتقة من اصل مشترك . اما لغة الاقباط فقد تلاشت منذ ثلاثة قرون ، لان العرب احتقروا السن الشعوب المغلوبة على امرها ، وفرضوا عليها نير الفتح ونعلم لغتهم في وقت معاً . وقد اصبح هذا الالتزام شريعة في نهاية القرن الاول للهجرة اذ حرم معاوية اللغة اليونانية في ارض الدولة كلها .

١ راجع القاموس القطبي : لاسكروز .

فعمت اللغة العربية ، فيما اتزوت اللغات الاخرى في الكتب سداً
لحاجة العلماء الذين ما لبثوا ان اعملوها . وهذا كان مصير الفبطية
في كتب العبادة والكنائس . فلم يبق عليها زمن حتى دثت فيها
على الكنيسة والرهبان ، واصبحت العربية اللغة المتداولة في مصر
وفي سوريا حيث يتكلمها المسيحي والمسلم على السواء ولا يفهمان
غيرها .

وفي هذا العهد تعرض ملاحظات لا تخلو من الالهمية التاريخية
والجغرافية . من المؤلف بل من الضروري ان يورد الرحالون
في ابحاثهم عن بلد ما كلمات من اللغة الشائعة فيه ، خصوصاً
فيما يتعلق باسماء العلم للشعوب والمدن والانهر وغيرها . وقد نتج
من هذا النقل تشويه وتحريف أخفيا مفهوم الكلم . واكثر ما
حصل ذلك في البلدان التي ادريها ، مما ادخل على كتب
التاريخ والجغرافيا بلبلة عظيمة . فالعربي الذي لا يتم بالفرنسية
لا يتعرف في خرائطنا الى عشر كلمات من لغته . واذا نحن
تعلمنا هذه اللغة وفعلنا في المخطوط نفسه ، واسباب ذلك عديدة :
١ - جهل معظم الرحالين اللغة العربية والنطق بها بنوع خاص .
وكان هذا الجهل سبباً في ان آذانهم التي لم تألف الاجراس
الاجنبية تقابلها مقابلة غائبة بأجراس لغتهم .
٢ - مخارج الالفاظ التي لا نجد ما يماثلها في اللغة المنقول

١ ان العالم يوتوك نفسه الذي برهن عن اقتدار في شرح النسايف لم يستطع
الاستغناء مرة عن المترجم ، وفوناهن Vonharen . استاذ اللغة العربية في الدنمارك لم يكنه
فهم ما معنى « السلام عليكم » حين عبث مصر مؤخرأ . اما وفيله فورسكال Forskal
الشاب فقد جلى عليه بعد سنة من الزمن .

اليها . مثل ذلك حرفا th من الانكليزية والحاء الاسبانية ، فعين لم يسمع هذه الحروف لا يستطيع ان يثبتها . وتزداد المشكلة مع لغة العرب المحدثه على ثلاثة احرف صوتية وسبعة او ثمانية احرف اخرى غريبة عن الاربوبيين ، فكيف تصورها لكي تحفظ ماهيتها وتجاشى خلطها بغيرها مما يختلف عنها معنى ؟

٣- وثمة سبب ثالث للنشوب ناشئ عن طريقة الكتاب في وضع الكتب والحرائط . فقد استقوا معلومتهم من جميع الاربوبيين الذين رحلوا الى الشرق ، واعتمدوا اطلاق اسماء العلم كما وجدوه عند هؤلاء . وفاتهم ان الاسم الاربوبية المختلفة ، وان كانت تستعمل الاحرف الرومانية ، الا انها تنطق بها على صور مختلفة . ان « الطليانية ليست » فرنسية بل ee . و gh عندم ليست ge بل gg ، و ee ليست ee بل tch . ومن هنا يحصل هذا الاختلاف الظاهر في الكلمات فيما هي هي نفسها . وعلى هذا ، فان الكلمة التي يجب ان تكتب بالفرنسية chail او chok ، تكتب على التوالي Schek او shekh او schehe او seiek بحسب ما تكون استخلصها من الانكليزية او الالمانية او الايطالية حيث ضم sh و sch و se ياتل che عندنا . ويكتبها البولونيون szeeh والاسبانيون chej . وهذا الفارق في آخر الكلمة ز و ch و kh ناشئ عن كون الحرف العربي يقابله jol الاسبانية و ch الالمانية التي لا مثيل لها عند الفرنسيين والانكليز والايطاليين . ومن اجل هذا السبب نفسه

- ١ يجب لابرار هذه الفوارق عند القراءة تهجئة الحروف واحداً واحداً .
- ٢ لا يقع ذلك في جميع الحالات ، بل قبل « و » تأتي فواك buch اي كتاب .

يكتب الانكليز Rouda اسم الجزيرة الذي يكتبه الايطاليون Rouda والذي يجب ان ننطق به نطق العرب له اي Rouda . وكتب بروكوك harammée عوضاً ان يكتب harami اي سارق ، وكتب نيبوهو dsjebei عوضاً عن djebel اي الجبل ، وكتب دانفيل الذي كثيراً ما استقى من مذكرات الانكليز sham بدلاً من ebam اي الشام ، وكتب wadi اي ouadi الوادي ، الى ما هنالك من الامثال العديدة .

وادى هذا التشوش في الاملاء الى اختلاط كثير اذا لم يتدارك افضى في حديث الامر الى المحذور الذي اعترض قديمه . ان اليونانيين والرومانيين ، بجهلهم لغة البرابرة ، قد تصرفوا في تكييف اجراسها على عوامهم ، فافتقدوا اثر الاسماء الاصلية ، وحالوا دون معرفتنا الحالة القديمة على ضوء الاثر الباقي . ان لغتنا كلغتهم تنطوي على هذه الطافة ، فهي تشوه كل شيء . ونلبو اذاً نرسا عن كل ما هو غير مألوف نبوعاً عن شيء برري . لا ريب انه لا طافة لنا في افعال اجراس جديدة عليها ، بل يستحسن ان نتقرب من الاجراس التي نترجمها ، وان نخصص بها اقرب الاجراس الى قسملها في لغتنا ، ونضيف اليها بعض العلامات الاصطلاحية . ولو جرى كل شعب من الشعوب على هذا النمط ، لتوحد الاصطلاح ، وكانت خطوة اولى نحو الجدية شامة توافق جميع اللغات ، الاوروبية منها على الاقل . وهو عمل سهل نس الحاجة اليه يوماً بعد يوم . سأورد خلال هذا المؤلف اقل ما استطيع من الكلمات العربية . ومتى اضطررت اليها فلا يدهش احد اذا انخرقت عن الاملاء الذي اعتمدته اكثر الرحالين . فاذا امعنا النظر فيها كتبوا

نبين لنا انه لم يلم احد منهم بحقيقة العناصر التي تتألف منها
الابجدية العربية ، او عرف المبادئ الواجب اتباعها لنقل الكلمات
الى كتابتنا . اعود الى موضوعي .

وفي مصر شعب ثالث هم الاتراك ، اسبأ البلاد ان لم يكن
فعلياً فاسمياً . ولم يكن لفظ « تركي » في الاصل خاصاً بالامة
التي نطلقه الآن عليها ، بل كان يشير بوجه عام الى الشعوب المنتشرة
شرقي بحر جرجان ، بل وفي شماله ايضاً ، حتى ما وراء بحيرة آرال
في المناطق الفسيحة التي اتخذت من اسمهم اسماً عاماً ، عنيت
تركستان^١ . فهؤلاء الشعوب هم الذين ذكرهم الاغارقة باسماء الفرت
والمعاجنين والكيشيين وندكرهم نحن باسم التتر ، وهم شأن عرب البادية
وعاة متشردون ، اظهروا في كل العصور انهم محاربون فساء شديدي
المراس . فلا كسرى ولا الاسكندر شكنا من اخضاعهم . اما العرب
فكانوا اكثر توفيقاً ، اذ دخلوا بلاد التوك بامر الخليفة الوليد في السنة
الثاني تقريباً للهجرة ، وعرفوهم بدينهم وبسلاحهم ، وفرضوا
عليهم الجزية ، ولكن الفوضى ما لبثت ان عمت الدولة العربية ، فتورد
حكامهم على الخليفة واستعملوهم عليه ، وما لبثوا ان تدخلوا في جميع
الشؤون وقويت شوكتهم واشتد ساعدتهم بفضل ما هم فيه من طريقة
العاش . فهم ابدأ تحت الحيام مدججون بالسلاح ، ومتمرسون بكل
اساليب القتال . وكانوا كالبدو منقسمين قبائل ، والقبيلة في لغتهم
« اورخه » التي اشتقت منها كلمة Horde للدلالة على عشائهم .

١ استان لفظ فارسي معناه بلد ، ويضم الى آخر اسم العلم ، فنقول عربستان
تركستان الخ ...

وسواء أكانت هذه القبائل متحالفة أو منقسمة على بعضها بسبب
تباين المصالح ، فقد كانت الحروب مستمرة بينها . وهذا هو السبب
الذي من أجله تجد في تاريخها أن شعوباً تركية عديدة تظاهروا
ويجلبوا الواحد الآخر على التوالي . وقد عمدت ، دفعاً للالتباس ، أن
أخص اسم الترك باتراك القسطنطينية فيما اسمي من تقدمهم ترككاً .
لم تلبث القبائل التركمانية التي درست في السلطنة العربية أن
سيطرت على الذين كانوا قد استدعوها كخلفاء مأجورات .
ونسى للخلفاء أن يجنبوا الأمر بأنفسهم ، فإن المنعم شقيق
المأمون وخليفته الذي اتخذ له حرساً من التركمان ، اضطر أن
يقادر بغداد بسبب ما أثاروا من القلاقل . وتزايد سلطانهم
وعنهم بعد هذا الخليفة ، حتى تحكموا بالعرش وبجباة الأمراء ،
فقتلوا منهم ثلاثة خلال ثلاثين سنة . وما كان
ازعاج الخلفاء من هذه الوصاية الأولى إيزيد في حكمهم ، فإن
الراضي بالله تفرغ عن الولاية في السنة ٩٣٥ في يد ترككاني مما
جعل خلفاءه يرزحون تحت القيود الأولى ، ثم أصبحوا أشباحاً
للسلطان تحت حراسة أمراء الأمراء . وفي بلبلة هذه القوضى
دخلت بعض القبائل التركمانية إلى السلطنة ، وأست دولاً مستقلة
في قزقان وخراسان وإيقونيا وحلب ودمشق ومصر ، ولكن
مرغان ما آلت إلى زوال .

وكان الاتراك حتى هذا العهد ما برحوا في شرقي بحر جرجان
وصوب جيجون حيث عرفوا باسم الاوغوز . على أن جانكيزخان
خرج في السنوات الأولى من القرن الثالث عشر بجميع قبائل
النتر على أمراء بلخ وسمرقند . ولم ير الاوغوز من الحكمة

انتظار المغول ، فاندفعوا بأمره قائدهم سليمان يسوفون ماشيتهم ،
حتى استقروا في السنة ١٢١٤ في اذربيجان ، وكان عددهم
خمسين الف فارس . ثم تبعهم المغول ودفعوهم ناحية الغرب في
ارمينيا . وغرق سليمان في السنة ١٢٢٠ قبلما كانت يحاول اجتياز
الفرات راكباً . فتسلم بعده القيادة ولده ارطغرل وتقدم بقبائله
في سهل آسيا الصغرى حيث وقعت المواقف على مرعى خصيب .
وكان هذا القائد ذا حكمة وبصيرة اكتسبته قوة ومقاماً ، فسعى
الى مخالفة امراء ذلك النواحي وفيهم التركماني علاء الدين سلطان
ايقونيا . فان هذا الرجل الذي كان يشمر بوهن الشيخوخة ويضيق
ذرعاً بمساواة نثر چانكيزخان له ، وهب اترك ارطغرل الاراضي
وعينه قائداً على الجيش . ولم يجيب ارطغرل ثقة السلاطنة فقهر
المغول . وازداد شهرة واقتداراً . وجاء بعده ابنه عثمان فتسلم من
علاء الدين ، خليفة الاول ، قفطاناً وطبلاً واذناب خيل ، وهي رمز
القيادة عند التتر . وشاء عثمان هذا ان يميز اترাকে من غيرهم ،
فسماهم عثمانيين نسبة الى اسمه . وما عثم هذا الاسم حتى اصبح رتبة
ليوناني القسطنطينية ، فاجتاح عثمان اراضيهم الواسعة ، وجعل منها
مملكة عظيمة . ثم اتخذ له اسم السلطان ، اي السيد المطلق . ومن
المعروف كيف توسع خلفاؤه ووارثو طموحه ونشاطه على حساب
اليونانيين ، وكيف انتزعوا منهم المقاطعة ثلو المقاطعة في اوروبا
وفي آسيا ، حتى زحفهم في اسوار القسطنطينية ، وكيف استولى
محمد الثاني ابن السلطان مراد على هذه المدينة في السنة ١٤٥٣ واجاد
هذا الفرع من امبراطورية روما . واذا نفى الاتراك يدهم من
شؤون اوروبا حولوا مطامعهم الى مقاطعات الجنوب ، وكان قد

مرّ على بغداد مثلاً عام وهي تحت نير التور . وقد زالت الخلافة عنها طوال هذه الحقبة من الدهر ، وآلت بعض ممتلكاتهم الى دولة جديدة قامت في الفرس ، وقامت دولة المماليك في مصر فالتزعت سوريا . فعزم الاتراك على تجريد هؤلاء الاخصام . فاستولى بيزيد بن محمد على ارمينيا منفذاً بذلك بعض مقاصده التي ابيع لابنه سليم ان يتمها في وجه المماليك . فقصده استقدمهم الى حلب في السنة ١٥١٧ بحجة مساعدتهم له على الفرس ، ثم حوّل السلطنة فجأة عليهم ، فالتزعزع منهم سوريا ومصر ونعقبهم فيها . ودخل الدم التركي في البلاد ، ولكنه فلما انتشر في القرى . وتكاد لا توى افراد هذه الامة في غير القاهرة حيث مارسون الصناعات ويحتلون المناصب الدينية والحربية ، وكانوا قبل اليوم يتمتعون بكل المراتب الحكومية . على ان الثورة الباطنة التي حصلت منذ ثلاثين سنة قد نزعّت منهم السلطة الفعلية ، وابتقت لهم على اللقب .

وقام بهذه الثورة شعب رابع بقي علينا ان نتحدث عنه . لقد نشأ هؤلاء القوم جميعهم عند اقدام جبال القوقاز . ويبرزهم من سائر السكان شعورهم الاشقر ، وهو لون غريب عن مصر . وهم هم انفسهم الذين وجدهم الصليبيون في القرن الثالث عشر واستحوهم المماليك . فبعد ان استضعفوا زهاء مئتي عام تحت سيطرة العثمانيين ، وجدوا وسيلة لاستعادة مكانهم . ان غاريغ هؤلاء الجنود ، والشؤون التي هبأت دخولهم الى مصر للمرة الاولى ، وطريقة استقرارهم فيها ، ونوع حكومتهم تكون جميعها حوادث سياسية هي من الغرابة بحيث يجدر تخصيص بعض الصفحات لمعالجة تطوراتها .

الفصل السابع

موجز تاريخ الممالك

سادت البروتانيين في القسطنطينية حكومة غاشية منطرفة ، فهانوا ،
وافلنت منهم انصب ولاياتهم لتزول الى شعب جديد . واستغفرت
العرب عصبيتهم الدينية وسكرتهم بياض الحياة التي لم يعودوها
من قبل ، فاستسجروا ، في سحابة ثمين غاماً ، الرقعة الشالية
من افريقيا حتى الجزر الخالدات ، وكامل القسم الجنوبي من آسيا
حتى الهند وبادة التور . على ان هؤلاء القوم الذين اتقنوا مراسم
الصوم والصلاة لم يتعرفوا الى علم التشريع ومبادئ الخلفيات
الطبيعية التي هي اساس الممالك والجماعات . فقد عرف العرب ما
الغلبة ، ولم يعرفوا قط سياسة الملك . فما عم بنیان دولتهم المسيح
ان تداعى وانهار ، ونهالت الفوضى والظلم على سلطنة الخلفاء
الواسعة فتفككت اوصالها ، وزال من اذهان الحكام الزمانيين
ما توهموه من قداسة رئيسهم الروحي فصبوا انفسهم اسبادة
وانشأوا دولة مستقلة . ولم تكن مصر آخر من افندى بهذا
النمل ، ولكن لم تقم فيها دولة نظامية الا في السنة ٩٦٩ (او
٩٧٤ حسب عربلو d'Herbelot) وهي دولة الخلفاء الفاطميين
الذين نارعوا خلفاء بغداد لقب الخلافة نفسه . وكان هؤلاء عبيد
ضعاف السلطان بسبب تسلط الميليشيا التركمانية عليهم ، فعجزوا

عن كبح جماح منافسيهم . وتبنى خلفاء مصر ان يبقوا اسبياداً
تأمر بالمال على هذا القطر الخصب الذي كان في وسعهم ان
يحولوا منه دولة ذات حول وطول . ولكن تاريخ العرب يدل
على ان هذه الامة لم تتعرف يوماً بأصول الحكم . فان خلفاء
مصر - شأنهم بذلك شأن خلفاء بغداد - ركبوا مركب الطغيان
وسلكوا طريقاً واحدة الى مصير واحد . فقد دخلوا في
المعارك الدينية ، وانضموا مذاهب جديدة ، واضطهدوا الناس
فيسكنوا من المشايخ والانصار . وبلغ من الخاتم بامر
الله ان ادعى انه الاله المتجسد . واستحكمت فيه روح منظرية
فامر باحراق القاهرة ليروح عن نفسه . وبدد آخرون مال الدولة
في ترف غريب ، فتكرهم الشعب المهان ، ورأى رجال حاشيتهم
من استضعافهم ما جرائهم على الطمع في خلعتهم . وهذا ما حدث
للعائد لدين الله آخر هذه السلالة . فبعد ان اكتسح الصليبيون بلاده
وفرضوا عليه الجزية ، عهده أحد فواده المنجيين بالتراع سلطته
التي لم يحسن سياستها . فلما شعر بعجزه عن المقاومة وعرف انه
لا يستطيع الاعتماد على الامة التي نفرها ، لجأ الى الغرباء . وعيناً
ذلك العقل وعبرة الايمان على ان هؤلاء الغرباء الذين اتعنهم على
ذاته لا يلتفتون ان يصبحوا اسباده ، فقد انزل من غبابة اولى
الى غبابة ثانية ، فاستقدم التركمان الذين سبق واستعبدوا خلفاء
بغداد ، واستنجد نور الدين سيد حلب ، فنجده لفره بجيش
وجهه على مصر ، وانقلبه من جزيرة الفرنجة ومن مطامع
فائده . وكان من امر الخليفة عندئذ انه استبدل عدواً بآخر ، فلم
يبق له من السلطان إلا ظله . وبقيت هذه حاله حتى تولى القيادة

صلاح الدين في السنة ١١٧١ واما بشفقة . وهكذا استكان عرب مصر
لغرباء قامت على الامر فيهم سلالة جديدة في شخص صلاح الدين .
وقبلا كانت تعاقب هذه الاحداث في مصر ، ويطرد
الصلبيون من سوريا بسبب بلطفتهم وفوضائهم ، كانت التطورات
العربية في آسيا العليا تنذر بثورات جديدة ، وكان جنكيز خان ،
وقد اصبحت اسما على معظم القبائل التركية ، يحسن العلاقات
بالدول المجاورة له . وجدت ان تحت اعانة بعض النصارى اللاتين
عربهم ، فزحف على سلطان بلخ وسمرقند في السنة ١٢١٨ .
فشهدت هذه الاصقاع من الكوارث الداميات ما لم يسجل مثله
تاريخ الفاتحين ، إذ انطلق المغول بالحديد والناار فاعملوا النهب
والذبح والحريق دون ما تمييز بين رجل وامرأة ، وبين شيخ
وطفل ، وحولوا بلاد جيحون حتى نهر دجلة الى بقاع من رماد ،
وتجاوزوا بحر جرجان شمالا فامتد الحراب حتى بلاد الروس
والقوبان . وهذه الحملة التي وقعت في السنة ١٢٢٧ افقت الى
دخول المماليك ارض مصر . ذلك أن التتار ، وقد ملكوا القفيل ،
استقدموا معهم جماعة من الارقاء قنبايا وقنبايات ، حتى غصت بهم
معسكراتهم واسواق آسيا . وكان خلفاء صلاح الدين ، وهم
تركمانيون ، ما زالوا على حالة بالقاء بحر جرجان ، فغنموا فرصة
لانشاء جندي زهيدة التكاليف ، متوافرة اسباب الشجاعة . فابتاع
اخدمهم حوالي السنة ١٢٣٠ اثني عشر الف شابا من التركس
والمنغوليين والاباطيين ، ودرهم على اساليب القتال حتى جعل
منهم في وقت وجيز فرقة من اجل جنود آسيا وابرهم ، ولكنهم
في الوقت نفسه من اكثرهم عنوا ، على ما خبره بنفسه بعد حين .

فما عثت هذه القرفة الشيبية بالحرس القبطي ان استطالت على سيدها ، وازدادت جرأة في عهد خلفه فخلعته . وفي السنة ١٢٥٠ ، على اثر نكبة القديس لوبس ، قتل جنودها آخر امير تركاني واستبدلوا منه احد رؤوسهم ، واطلقوا عليه لقب السلطان وعلى انفسهم اسم المماليك ومعناه الرفيق الحربي ^١ .

هذه هي فرقة الارقاء الطغاة التي ثلك زمام الامر في مصر منذ عدة قرون . ليس للمماليك عقيد اجتماعي يربط بينهم سوى المصلحة الراضية ، ولا حق دولي يجمعهم بالامانة غسيرة حتى الفتح ، ولا قاعدة للحكم سوى العنف على يد زمرة من الجنود كثيري الجراح ، غلاظ الوجاه . ان السلطان الاول الذي انتخبوه قد شغل ما بهم من نزعات الفتنه فألهم في فتح سوريا ، وتسمى له ان يملك سبع عشرة سنة . ولكن ما من احد بعده بلغ هذا الاجل . فالجديد والشنق والسم والقتل كانت مصير سلسلة من الطغاة تعاقب منهم على الحكم سبعة واربعون في حقبة مائتين وسبع وخمسين سنة . واخيراً جاء السلطان سليم العثماني في السنة ١٥١٧ فوقع في اسره قام بك آخر حكامهم ، فأمر بشنقه ، والنقضت به سلالته . كان على السلطان سليم ، لو شاء تنفيذ مبادئ الترك السياسية ، ان ينجو المماليك عن بكرة ايديهم ، ولكنه رأى بنظره الثاقب ان ينحرف هذه المرة عن القاعدة . وشعر انه اذا منح باشا مصر سلطة امثاله في الولايات الاخرى تعرض لثورة هذا الاخير عليه

١ ملوك اسم مفعول من ملك ، ومعناه المقتل والكناء ، اي الرفيق . على انه يجب التمييز بين هذا النوع من المماليك وبين خدمة المنازل ويسمون عبيداً (الحاشية المؤلف) .

بسبب بعده عن العاصمة ، وثلاثي هذا المحذور بان وُزع السلطة بين هيئات عديدة توازن بعضها بعضاً ، وبقي والحالة هذه تحت سيطرته . ورأى في جماعة المماليك التي نجت من الجزرة الاولى ما يتفق مع مقصده . فأنشأ مجلس وصاية مؤلفاً من الباشا ومن رؤساء الفرق الحربية السبع . وكانت مهمة الباشا ان يبلغ المجلس ارادة الباب العالي ويرسل الجزية ويسهر على امن البلاد من اعداء الخارج ويحول دون توسع الاحزاب في الداخل . وقد خول اعضاء المجلس الحق في رد اوامر الباشا ، على ان يملئوا الاسباب التي تحملهم على رفضها ، بل وفي خلعها ايضاً ، وفي المصادقة على القرارات المدنية كانت او سياسية . اما المماليك فقد تقرر ان يختار من بينهم حكام المقاطعات الاربع والعشرين او بكواتها ، وانيطت بهم مهمة دفع غزوات البدو والسير على جبهة الضرائب والمحافظة على الامن الداخلي ، ولكن سلطتهم كانت محض وعمية ، وما كانوا الا آلات تسيرها ارادة المجلس . وحصل احدهم المقيم في القاهرة على لقب شيخ البلد ، اي انه حاكم بالمعنى المدني دون ان يتمتع باية سلطة عسكرية .

وفرض السلطان ضرائب خصص قسماً منها لمرتبات عشرين الف رجل وكونية من اثني عشر الف فارس مقيمين في البلاد . وخصص القسم الآخر لامداد مكة والمدينة بما يعوزهما من مؤن البلاد ، والقسم الثالث لتغذية خزانة الاستانة والاتفاق على ترف السراي . اما الشعب الذي كان عليه توفير هذه النفقات فلم يكن ليُحسب له حساب ، على ما لاحظ سافاري بصواب ، وبقي خاضعاً كالسابق لقسوة استبداد عسكري .

لقد جاءت طريقة الحكم هذه بحققة لإقناع السلطان سليم بدليل
أنها استمرت ما يشوف على قرنين ، ولكن ثبسط الباب العالي ما
عم ان فضاءل منذ خمسين سنة ، فحدثت بعض التطورات التي أدت
الى تكاثر عدد المالكين ، واستعادتهم الثروة والجاه ، واستطاعتهم على
العثمانيين حتى أصبحت السلطة في يد هؤلاء شيئاً لا يعنى به .
ولكي نحيط تماماً بهذه الثورة يجب ان نلم بالاسباب التي ساعدت
على تزايد المالكين واستمرارهم في مصر .

ان بقاءهم في هذه البلاد مبروراً عديدة بحمل على الظن انهم
توالدوا فيها عن طريق التناسل العادية . ولكن اذا كانت بدء
استيطانهم امراً عجباً فان استمرارهم في البلاد لا يقل عن ذلك
غرابية . فبعد دخول المالكين مصر من خمسة وخمسين سنة
لم تقم فيهم ذرية واحدة ثابتة ، حتى انك لا ترى عيلة في جيلها
الذاني ، فجميع اولادهم يكون في العقد الاول او الثاني ، ويكاد
يكون العثمانيون في هذه الحالة ، لولا لجوؤهم الى الزواج من نساء
مشوطنات ، وهو امر يأنف منه المالك^١ . كيف تفسر بان رجالاً
اصحاء البنية متزوجين من نساء سليميات لا يستطيعون على خفاف
النيل نجس دم تكون عند اقدام الفوقاس . ولذا ذكر في هذا

١ نساء المالك اعاء قد استقدم من جورجيا ومنغوليا وغيرهما . شهدت الناس
كثيراً عن جماعهن ويجب تصديق ذلك بالاعتدال على التواتر . على ان الاوروي الذي لا
يعرف غير تركيا لا يحق له ان يؤدي مثل هذه الشهادة . فان هؤلاء النساء غير مكررات ،
بل لعين اكثر شجياً من غيرهن . وقد يكون في سر هذا التعجب ما يروى بجماعهن . على
انه ليس لي ان استقيم زوجة احد تجاراً التي يتاج لها دخول جميع المحرمات لتعرض منوجات
« ليون » ، فاكنت لي انها رأت الف ومائتي امرأة من الطبقة المختارة لم تجد عذراً

العدة ان اغراس اوروبا تنتع ابضاً من استبقاء نوعها في تلك الارض . قد لا يصدق الناس هذا العارض المزدوج ، ولكنه ثابت الحدوث ، ولا يبدو انه حديث العهد . فقد لاحظ الافدمون حوادث مماثلة : يقول اميوقراتس ان الكتيين والمصريين متشابهو الهيئات ، وان هاتين الامتين لا تشبهان اية امة اخرى ، ثم يضيف قائلاً ان المناخ والفصول والعناصر والارض في بلديهما تسير على نطل واحد لا تجد في بلد آخر . أليس في هذا ما يثبت ما نحن في صده من نفع الارض ؟ ولئن كانت بلاد كنتك تطيع ما هو في حوزتها بطابع خاص ، أفلا تجد ما مبرراً في تيد ما هو غريب عنها ؟ ويبدو ان الوسيلة الوحيدة لتبليد الحيوان والنبات هي تعويدها المناخ وتلقيحها باجتناس بلدية . وقد سبق لي وفلت ان الممالك اتفوا من هذه الطريقة . اذن ، فقد كان السبب في استمرارهم وتكاثرهم ما ادخلوا في انسابهم من الدم الجديد عن طريق الارقاء المستقدمين من بلاد نشأهم . وتجارة الرقيق كانت رابحة على شواطئ قوبان وفاس منذ عهد المغول . وهذا كانت شأنها في افريقيا سواء أكان ذلك نتيجة للحروب القائمة بين شعوب هذه

بمعن بالجمال الصحيح ، على ان الاتراك غير ملتصين ، وحسبهم ان تكون المرأة بيضاء ليسيوها جميلة . فإذا كانت جميلة كانت مدهشة . وان شاؤوا التميز عن مثال الجمال قالوا : « وجهاً كالقمر واورا كها كالوسائد » ، حتى يجوز القول انهم يلبسونها بالقطار . وعندم مثل غريب : خذ البيضاء من اجل عينيها . وإذا ضلت اللذة فتزوج المغربية . وقد دهم الاختيار على ان نساء الشمال اكثر برودة من نساء الجنوب .

كانت هذه الملامح منبع الرق في كل اليهود ، فقد أرسلت الارقاء الى اليونان والرومان وآسيا القديمة . اوليس من القريب ان تقرأ في هيرودوتس ان جورجيسا استقبلت فيما مضى عيد مصر وان ترى اليوم انها تيا لها جنساً جدد مختلف ؟

النواحي او لفقر السكان الذين يبيعون اولادهم للقيام بأورد المعيشة .
 وكان الارقاء من الجنين ينقلون الى الاسنانة اولاً ، ثم يوزعون
 على سائر السلطنة حيث يشتريهم الاثرياء . لا ريب ان الاتراك
 نوانوا في تحريم هذه التجارة الخطرة بعد استيلائهم على مصر .
 واذا هم لم يفعلوا فقد كانوا عوناً للنوازل التي تعمل اليوم على
 انتزاع ممتلكاتهم ، والتي كان من اسبابها النعسف والتهاوت في
 معاملة شؤون هذه الولاية . فان الباب العالي نوحى ككبح جماع
 الباشا فترك الديوان يوسع اختصاصاته ، واصبح رؤساء
 الانكشارية مرهوني الجانب ، والجنود انفسهم ، بعد ان اصبحوا
 مواطنين عن طريق الزواج ، لم يبقوا صنائع الاسنانة . وطراً على
 النظام تغيير ثقافت معه البلية . فقد كان للبيشات الحربية السبع
 خرافات مال مشتركة . واثن كانت الشركة غنية فما كان للأفراد
 ان يتصرفوا في شيء او يستطيعوا شيئاً . وقد ازعج هذا التدبير
 الرؤساء ، فاستصدروا الامر بالغاءه واستأذنوا تلك العقارات والاراضي
 والقرى . وكانت هذه الاراضي والقرى تابعة للحكام المحليين ، فعملوا
 على مداراتهم مخافة ان ييظوها بالضرائب . وراجعت من ذلك
 الوقت مكانة البكوات مكانة اهل الحرب فرجعتهم . وكان هؤلاء يحنقون
 البكوات فيما قبل . وزاد هذه المكانة شأناً ما دخل على اصحابها
 من الثروات الطائلة بفضل قيامهم على امر الادارة ، فاستعملوا
 المال ليجمعوا حوهم الاصدقاء والصناع ، واستكثروا من الارقاء
 فحردوهم ، ثم دفعوهم بما هم من نفوذ في مراتب الجندية والحكومة .
 فحفظ حديثو النعمة هؤلاء الاجلال لاسبابهم بحسب العادات
 الشرفية ، ونظموا لهم احزاباً تهالك في سبيل ارضائهم . وعلى

هذا النحو درج الكنيحة ابراهيم أحد قواد الانكشارية ، فتمكن
من الاستيلاء على الحكم حوالي السنة ١٧٤٦ . فقد كان يستكثر
من المعتنقين ويقدمهم في المراتب حتى أصبح عدد البكوات من
بينه ثمانية من اصل اربعة وعشرين . واكسبه هذا العدد ارجحية
راعية ، لان الباشا كان يبغي بعض المراكز شافرة لينتقاض وظائفها .
وساعده سفاؤه على اجتذاب الضباط والجنود اليه ، وآزره
« رضوان » اكثو القادة نفوذاً ، فاصبح الباشا خيلاً عديم الشأن ،
ورضاءت ارادات السلطان امام ارادة ابراهيم . ولما وافاه الاجل
في السنة ١٧٥٧ اتقدم معتقوه على انفسهم ، ولكنهم تمزبوا على
ما سوام واستمروا منحكمين . وخلف رضوان زميله ، ولكنه ما
لبث ان طرد وقتله بعض البكوات . ونعاقب بعده عدة حكام
في فترة قصيرة من الزمن .

وفي السنة ١٧٦٦ ظهر علي بك أحد مشيري الاضطرابات الذي
استوقف اهتمام اوروبا سنوات عديدة . فاستطاع على خصومه ،
ولقب امير الحج وشيخ البلد ، وجمع السلطات جميعها في يده . ولما
كانت قصة المماليك مرتبطة بقضته ، فاستمر في سرد احادها فيما
نيسط الاخرى .

الفصل السابع

موجز تاريخ علي بك

يعتبر مولد هذا الرجل غموض وريبة ، شأنه بذلك شأن معظم المماليك ، فهم وفد بأعهم ذورهم في سن الحداثة أو انتزعهم الأعداء ، لا يهون من أصلهم ومن وطنهم إلا قليلاً من شيء

بعد كتابة هذا المقال نشر السيد ساعاري كتابين جديدين عن مصر خارج في أحدهما حياة علي بك نفسه ، وحديث أبي وأجد عنده من الآباء ما اصطبغ به روايته أو اثبت منها . وكتم كانت ذهني عظيمة أذنين لي أنه يكاد لا يتكون بيتاً شيء مشترك . وقد سألني هذا الكتاب خصوصاً وإلى خالفته في الرأي بصدد أمور أخرى ، مما يدخل في روع القراء أن تأتي مما كتبه هذا الرحالة ، ولكنني فضلاً عن أبي لا اعترف السيد ساعاري بالذات ، أود لو اثبت أنني أتت نفسي عن تلك الاعتبارات . ولهذا كيف حدث أنه على كوشا زلنا الأماكن نفسها وشهادة الشواهد نفسها قد اختلفنا بالرواية هذا الاختلاف كله لا اعترف أنني أجعل السبب . وكل ما استطيع تأكيده أنني أقت في القاهرة طوال سنة أشهر كنت استلهم خلالها يدعة وأنشاء غارة المسيحيين الذين رأيت في أفعالهم العنصرية إضافة إلى ما يفعلون به من فطنة ضيافة لصدق ما شهدوا به . ورأيت أنهم متفقون في المسائل الرئيسية . وخدمني الحظ أن زكى رويانيم تاجر من التتغية (السيد روزاني Rosetti) الذي كان أحد مساعاري علي بك المقربين والعامل الأول في علاقته بالروس ومشاربته المتعلقة بتجارة الهند . والتقيت في سوريا شهود عيان للحوادث المشتركة بين الشيخ الصاهر وعلي بك مما هب لي أن احكم في درجة اطلاع المؤلفين الذين عالجوا قضية مصر . وأنشاء انامي عند الدروز سعابة ثانية أشهر عرفت من مطران حلب الذي كان مطران عكا خصوصيات عديدة يضاهف اعتقادي في صحتها أن ابراهيم الصباغ وزير الضاهر كان يزل في ضيافته وراة وفي فلسطين عاشت المسيحيين والمسلمين الذين تولوا قيادة جيوش الضاهر

وكثيراً ما يكتسبون ذلك . وفي رأي جديو بالشفة انه متجدد من
عشيرة الأباطين القاطنين في القوقاس . وأرقاء هذه العشيرة مرغوب
فيهم^١ . وقد نقله النحاسون الى القاهرة في جملة ما نقلوا ، فاستقره

وحاموهوا يافا مع علي بك وأزروه على محمد بك ، فقد شاهدت الامكنة وسمعت الشهود ،
ونقلت مذكرات ثوبجة من عامل البندية في يافا الذي اخذ قسطه من الانطرابات
جميعاً تلك هي المواد التي بنيت عليها روايتي . ولست اذكر اني لم اتين فيها بعض الملاحظات
ولكن اي الملاحظات خالية منها ؟ اما لدينا عشر روايات مختلفة عن معركة « فونتوي »
Fontenoi ؟ فحسبنا اننا ان فصل على النتائج الرئيسية ونذكر بالاحتمالات الكبرى .
وقد نسي لي ان اتين بنصي في هذه المناسبة صعوبة الوقوف على الحقيقة التاريخية
واقبائها بدقة .

ولست اذكر اني لم اسمع بعض الاجبار التي اوردتها السيد سافاري ، ولا يجوز ان
ينسب اليه انه قلبها لخللا . مرواينه نسخة طوق الاصل عن كتاب الاسكندر في مثل بالطبع في
السنة ١٧٨٥ بعنوان « موجز عن ثورة علي بك » ، وان يكن هذا المؤلف يقتصر على
معالجة الموضوع في اربعين صفحة ، مما يقتصر باقي الصفحات لدرس الاماكن والاخلاق
والجغرافيا . وكنت في القاهرة لما اذاعت دائرة الاوراق العمومية هذا الكتاب . واذكر
عندئذ ان تجاراً عندما سمعوا باسم امرأته تدعى « ماري » زوجة علي بك ، واسم
بوقالي يدعى داود والد هذا القائد ، نظر الواحد الى الآخر بدهشة ، وما لبثوا ان ضحكوا
من الاخبار الشاذة في أوروبا . فعلاً يدعي القياض الاسكندر الذي كان في مصر سنة
١٧٧١ انه اعتمد في روايته على كاتبة علي بك وجماعة من السكوات الذين راجعهم دون
« ان يعرف اللغة العربية » ، فلا يصح الزكوت الى اطلاع الكاتبة . وما يعزى لرياني في
مواهب ما يقول انه يبدأ موضوعه بفصلة لا تغتفر . هو يقول ان بلاد ابائله هي امانيا
نفسها ، في حين اننا الاولى مقاطعة في القوقاس والثانية مدينة في كبادوسيا .

وخلاصة القول اني في باريس « مذكرات عن علي بك » دونها احمد الفضلاء الذي
جاء مصر : كما جاءها السيد سافاري وجلبها لنا . وهي مذكرات غريب ما بقي من شك
حول هذا الموضوع .

١ يؤثر الاتراك في الدرجة الاولى الارقاء الشرقيين ثم الأباطين ، فالفراسيين ،
فالجورجيين ، فالروس والبولنديين ، فالجبر واللاتان ، فالعبيد ، وفي آخر المدرجات

هناك اليهوديان اسحق ويوسف واهدباه الى ابراهيم الكاخنية .
 وبقدر عمره وقتئذ بالتقريب عشرة سنة او اربع عشرة . بيد ان
 الشرقيين ، مسلمين ونصارى ، لا سجلات للمواليد عندهم ، فلا نعرف
 اعمارهم بالضبط . وقام علي عند سيده الجديد بمهام المهابيك وهي
 المهام التي يضطلع بها غلمان الامراء . وذرت هناك على الفروسية
 والرماية وتسييد الجريد وضرب السيف . ولحق بعض مبادئ
 الكتابة والقراءة . وظهر في ممارسته هذه الفنون من الترقى ما
 جعل القوم يلقبونه « الجن علي » ، وهي لفظة تركية معناها
 المجنون . على ان مشاغل الطموح ما عشت ان لبنت طباعه وكبحت
 من جهاجه . ولما راوحت سنة بين الثامنة عشرة والعشرين ، اذن له
 سيده بارسال حبيته . ومعنى ذلك انه اعتقه ، لان الوجه الامرد
 عند الاتراك خاص بالعبيد والنساء . وهم من اجل ذلك يتأفقون
 من منظر الاوروبيين لاول وهلة . ومنذ اعتقه ابراهيم وهدبه ، زوجة
 وريعا ، واسند اليه منصب كاشف ، اي حاكم مقاطعة . ثم احلته في
 مصاف البكوات الاربعة والعشرين . وما كانت هذه الرتب مضافة
 الى المكانة والثروة اللتين احرزهما الا لتوفيق فيه الطموح . فلما
 مات سيده في السنة ١٧٥٧ وجد المجال فسيحا امام مراميه ،
 فاشترك في كل الدسائس التي كانت تهدف الى تولية الحكم
 او عزله . وعليه تقع تبعة اغتيال الكاخنية رضوان . وتعاقت
 الحكماء بعد رضوان حتى السنة ١٧٦٢ ، وكانت الحاكم عندئذ

الاسبان والمناطيين وسائر الفرنكيين وهم يحقرونهم بسبب سكرهم وتهكمهم وغرورهم
 وقلة علمهم .

عبد الرحمن ، وهو رجل ضعيف السلطة بذاته ، الا ان بعض الاحزاب
 المتآلفة كانت تساعده . وكان علي عهده شيع البلد ، فرأى في
 وجود عبد الرحمن على رأس القافلة المتجهة الى مكة فرصة للايقاع
 به ، فنفاه . ولكنه ما لبث ان نفى بدوره الى غزة . سوى ان غزة
 الواقعة في ولاية الباشا التركي لم تكن في نظره مكاناً آمناً لطيب
 فيه الإقامة . فذهب في اتجاهها ايضاً ، ثم تحول في اليوم الثالث
 الى الصعيد حيث حقق به انتصاره . واقام في جرجا زهاء سنتين
 قضاها في تهينة وانساج ما يعتزمه من الاستيلاء على السلطة .
 وكان له في القاهرة اصدقاء يندم ائمال الوفير ، فاستدعوه اليها في
 السنة ١٧٦٦ . فظهر فيها على حين غرة ، وقتل في ليلة واحدة
 اربعة بكوات ، ونفى اربعة آخرين ، حتى اصبح رئيساً على الغالية .
 واذا استجعت السلطة كلها في يده ، عزم على ان يستخدمها في
 سبيل تعظيم شأنه . ولم تقف مظاهره عند لقب القائد ، بل رأى في
 سيادة الاسنانة ما يخرج كبرياءه ، ونهدت نفسه الى لقب سلطان
 مصر . وانحصرت جميع مساعيه في هذا الاتجاه ، فطرد الباشا الذي
 كان قد اصبغ مجرد اداة قنبلية ، ورفض الجزية المعتسدة . وفي
 السنة ١٧٦٨ امر بسك العملة ووسمها بطغرائه ^١ . فوجم الباب
 العالي لهذا الافتئات ، ولكن قبعة كان يقتضي حريصاً صريحة لم
 تكن الاحوال مؤاتية لها ، لان اسباب الاسنانة كانت تشغلهم مسائل
 بولونيا ومطامع الروس ، فصرفوا همهم كله الى الشمال ، وحاولوا

^١ بعد هلاك علي بك سقطت قيمة فروشه عشرين بائة بحجة انها غير صافية المدن ،
 فأرسل احد التجار عشرة الاف منها الى مرسيها حيث صهرت واماها منها ربحاً عظيماً .

تجاه علي طريقتهم المعنادة في مثل هذه الاحوال ، فأوفدوا نحوه
مبعوثيهم المعروفين باسم القبوجيين يحملون مرساة المشقة . ولكنه
كان يستقبلهم بالسلم او الخنجر ، فيحيط مساعدهم . فرأى علي ان
الفرصة مناسبة للايغال في مقاصده الى ابعد حدود النجاح . وكان
يحتل الصعيد وقتئذ شيوخ من العربان على شيء من التردد . وكان
احدهم مهام يمنع بنفوذ يدعو الى القلق . فشاء علي ان ينخلص
منه ، واحتج بكون هذا الشيخ يمسك على ابرهيم الكاخية مالا قد
اثنى عليه ، وبانه يؤاوي العصاة اللاتدين به . فوجه عليه
كتيبة من المماليك بقيادة محمد بك ابادت مهاماً وقواته في يوم
واحد . وكان ذلك في السنة ١٧٦٩ .

وشهد هذا العام حملة اخرى ترامت نتائجها الى القارة الاوروبية
نفسها . فقد سلح علي السفن في السويس واطلق عليها المماليك
صوب جدة مرفأ مكة ، وامر القائد حسن بك ان يحميها ، فجا
انطلقت من البر كوكبة من الفرسان بقيادة محمد بك فاستولت
على مكة نفسها ، واعملت النهب فيها . وكان غرضه ان يجعل من
جدة مستودعاً لتجارة الهند . وهذه الخطة التي اوعز بها اليه تاجر
شاب من البندقية حظي بشقته ، كان يقصد بها اعمال خط رأس
الرجاء الصالح والاستعاضة عنه بالطريق القديمة عبر البحرين المتوسط
والاحمر . بيد ان عاقبة الحوادث دلت على انه استعجل الامر ،
وان الشرائع يجب ان تسبق الذهاب الى البلاد التي يرجى لها
الازدهار .

وحسب علي ، بعد انتصاره على امير ضبل الشان في الصعيد
وفتحة اكواخ مكة ، ان من حقه السيطرة على العالم بأسره .

وارحمه رجال بطانته انه كسلطان الاستانة شوكة وسطوة ، فآمن
 بما قالوا . ولو اعمل الفكر قليلا لتحقق ان مصر بالنسبة الى
 سائر السلطنة دويلة صغيرة ، وان ثمانية الآف فارس تحت امرته
 لا تحسب شيئا يذكر تجاه مئة الف انكشاري مرتين باساوة
 السلطان . ولكن المماليك يجهلون تقويم البلدان . وكان علي ، وهو
 يرى مصر عن كثب ، يحسب انها اوسع من تركيا التي ينظر
 اليها من بعيد . فعزم على مباشرة فتوحاته . ومن الطبيعي ان
 تكون سوريا ، وهي على بابها ، اولى مبتغياته . وكانت حوادث
 تلك الايام توائم مقاصده . فالحرب الدائرة مع روسيا من السنة
 ١٧٦٩ نشغل القوات التركية جميعها في الشمال ، والشيخ ^{الزاهر} ~~الزاهر~~
 الظاهر المنعزل على السلطان حليف امين مقدر ، واختلاسات باشا
 دمشق تهيء الافكار للتوارة . اذن ، ما اجلها فرصة لاحتلال ولايته
 والخروج من هذه المقامرة بلقب منقذ الشعوب ! ادرك علي هذا
 كله ، فلم يتأخر عن القيام بحركاته الا بمقدار ما تقتضيه العدة للامر . فلما
 استكمل الالهي في شهر كانون الاول من السنة ١٧٧٠ جرد كوكبة
 من المماليك تبلغ خمسمائة فارس (والمماليك لا يسرون رجالة قط) ،
 وسبهم على غرة ليضمن النفاذ الى فلسطين . وما انت بلغ امر
 الاحتلال مسامع عثمان باشا حاكم دمشق ، حتى هرع الى مجابهته .
 فارتعدت فرائض المماليك من سرعته وعدد الجنود . فامسكوا اعنة
 الخيل تأهباً للهرب . بيد ان عمر الظاهر الرجل الذي لم نعرف له
 سوريا مثيلاً بالنشاط ، اقبل من عكا وانتدحهم من التورطة . وكانت
 عثمان يمسكهم بالقرب من باقا ، فانهمز دون ما نزال . فاحتل الظاهر
 باقا والرملة وفلسطين برمتها ، وفتحت الطريق امام الجيش الكبير

المنظور .

وصل هذا الجيش في نهاية شباط من السنة ١٧٧١ ، وقد ذكرت
صحف تلك الأيام ان عدده ستون الف مقاتل ، فحسب الناس في
اوروبا انه بائل جيوش روسيا او المانيا ، وفاتهم ان الاتراك ،
واخصهم اتراك آسيا ، يختلفون عنهم في العادات والاخلاق . فان ستين
الف جندي عندهم ابعد من ان يوازوا ستين الف من جنودنا .
وفي الجيش الذي نحن في صده دليل على ذلك . فانه يتألف من
اربعين الف رجل موزعين على الوجه الآتي : خمسة الآف
فارس من الممالك ، والف وخمسة مئتي مغربي رجالة . ويتبع كل
ملك خادمان راجلان مسلحان بالعتي ، ومجموعهم عشرة الاف . وثمة
الف خادم وسراج وراء البكوات ، فضلاً عن الباعة المرتوفة والتابع .
هذا هو الجيش الذي نحن في صده كما وصفه لي افس شاهدوه
ونبهموه . وكان يقوم على قيادته محمد بك احد رجال بطانة علي
الملقب بابي الذهب نظراً الى الترف البادي في اجهزة جواده وقرش
خيشته . اما الترتيب والنظام فلا اثر لها قط في ذلك الجيش ، لان
جيوش الممالك والاتراك ان هي الا خلط غامض من فرسان لا
مائلة في ازيائهم ، وجيادهم متباينة القد ، مختلفة اللون . زحف هذا
الحشد صوب عكا تاركاً وراءه آثاراً من فوضاه وتعدياته . فانصل
بجماعة الشيخ الضاهر ومم الف وخمسة مئتي فارس صفدي بأمره ولده
علي ، والف ومائتا فارس من المشاة بقيادة الشيخ فاضل ، وما

الصفديون نسبة الى صفد مركز نحو الضاهر الاصلي ، وهي قرية في الجليل .

✓ يقرب من الف راجل من المغاربة . فلما تم هذا الاتصال وديرت
الخطة ، زحف الجيش على دمشق في خلال نيسان . وكان عثمان قد
وجد مشعراً من الوقت لاعداد عدنه ، فجمع جيشاً يضاهي جيش
عدوه عدداً وبليلاً . وانضم اليه باشاوات صيدا وطرابلس وحلب ،
فتربصوا جميعاً تحت اسوار دمشق . ولا نتصور هنا حركات
متوافقة كالتي تجعل الحرب عندنا منذ مئتي سنة علم حساب وتبصر .
فلا انام للاسيويين بتلك المبادئ . وجيوشهم هوانسة ^١ ، وزحفهم
نهب ، وحملاتهم غزوات ، ومعاركهم اعتراك ، يسعى اقدمهم او
اجراهم الى الآخر فيتهزم غالباً دون نزال . فاذا ثبت ، نشب القتال
واختلط المتقاتلون وتلاحموا ، وتفجرت البواريد ، وحطمت الرماح ،
وتكاد تعوزهم المدافع وقتلوا اسنخدموها . وكثيراً ما يسود
الرعب ولا سبب له ، فيهرب فريق ويترجم الآخر منادياً بالنصر .
ويكابد المغلوب شريعة الغالب ، وكثيراً ما تنتهي الحملة بانتهاء المعركة .
هذا جزء مما حدث في سوريا سنة ١٧٧١ زحف جيش علي
وعمر على الشام ، وانتظروا الباشاوات ، فتقدم . وكان الامر الحاسم
في اليوم السادس من حزيران . فقد حال المهابيك والصفديون
على الاتراك وامعنوا في التقتيل حتى ذعر هؤلاء وادبروا . ولم
يكن الباشاوات آخر المنهزمين . فسيطر الحلفاء على المدينة الحالية من
الجنود والاسوار واستولوا عليها . واستقلت القلعة بالمقاومة ،
وليس في اسوارها مدفع ولا مدفعي ، ولكن هناك خندقاً موحلاً ،
وما وراء الخرائب بعض الرماة . وكان ذلك كافياً لكبح جماح

١ الجماعة قد اختلط بعضها ببعض Cohue .

هذا الجيش من الفرسان . على ان المحاصرين ، وقد غلبوا على
امرهم ، عاهدوا العدو في اليوم الثالث على التسليم ، ولكن لما
طلع النهار حتى حدث انقلاب هو اغرب ما تناقلته السامع .
ففي الوقت الذي كان ينتظر القوم اشارة التسليم ، اذا بجند يصيح
بجماعه الادبار ، وينحول جميع فرسانه صوب مصر . وعبثاً تسارع
على الظاهر وانصيف لستفهاه سبب هذا المآل المفاجئ ، فلم يحظوا
من هذا المملوك الا بشديد المنجبر . وارتحل القوم في بلبلة . وما
كان ارتحالهم انكفاء بل هزيمة ، كأن العدو يعمل السيوف في
كشوحهم . وامتألت الطريق من دمشق الى القاهرة بالمشاة والفرسان
المشتتين ، فضلاً عن المهام والعدد المهتلة . وقد جعلوا مرد هذه
الحادثة الغريبة وقتئذ الى ما شاع من موت علي بك . على ان
عقدة الغز الحقيقية مؤامرة سرية حصلت في خيمة محمد ليلاً ، اذ
ات عثمان لما استشعر عجز قوائمه لجأ الى الاغواء . فاراد الى
القائد المصري احد رجاله اللقيين بحجة مفاوضته بالمصالحة ، فسمى
بدن الشقاق والعصيان ، وادخل في روع محمد ان الدور الذي
يمتلكه يعرض شرفه وحياته ، وانه يخطئ . اذا اعتقد ان السلطان
سوف لن يقتص من علي بك ، وان انتهاكه حرمة مدينة مقدسة
كدمشق احد البايين الى الكعبة ندينه . وانه يدعش من
كونه هو محمد يؤثر على حظوة السلطان ورضى احد عبيده ويجعل
بينه وبين الذات الشاهانية سيلاً آخر ، وانه من المعروف ان
هذا السيد يعرضه كل يوم لاحطار جديدة ويضعي به في سبيل
مطامعه الشخصية وحسد كاخيه رزق القبطي . فهذه الاسباب ، واخصها
الاخيران المتعلقان بمسائل معروفة ، قد أثرت ابعده التأثير في محمد

واتوا به البكوات ، فتفاوضوا لاجال فيما بينهم ، واقسموا على السيف
والمصحف انهم فافلون الى القاهرة في الحال . وكانت ترحلهم
المفاجيء ، نتيجة هذه الخطة . فقد انصرفوا عن القنص وساروا سيرا
حشيشا ، حتى ان خبر عودتهم لم يسبقهم الى القاهرة الا بست ساعات
فقط . فارتاع علي وحدته النفس في معاقبة فائده فورا . ولكن
محمداً كان كثيراً برقاؤه ، فلم يكن ثمة سبيل لاية محاولة ضده .
وكان لا يد من المداجاة ، فلزمها علي بسهولة لانه مدين بحظه
ما اكثرت منه لشجاعته .

لقد حرم علي فجأة من غرات حرب كثيرة التكليف ، ولكنه
لم يرجع عن مقاصده ، بل استمر على ارسال النجيدات الى حليفه
عمر الظاهر ، وحشد جيشاً آخر للسنة ١٧٧٢ ، ولكن الحظ سئم
من مساعدة علي فتحول عنه . فكانت نصيبه الاولى في خسارة
سفينه التي استولى عليها القرصان الروس مقابل دمياط ، فيما كانت ^٧
تتقل الارز لعمر الظاهر . ثم جاءت حادثة حرب محمود بك ضعفاً
على اياته .

كان من الصعب على علي ان ينسى حادثة دمشق ،
ولكن بقية الحب التي يضرها المرء نحو مسن احسن اليهم كانت
تحوّل دون انزاله الضربة القاضية . بيد انه عزم عليها بعد
حديث مع التاجر البندقي الذي كان يحظى بثقته .

وقد شافني التاجر نفسه بهذا الحديث وهو :

« قال علي بك : هل لسلطين الفرنجة اولاد يظاهون بالثروة
ابني محمد ؟ فاجابه التاجر : لا ، يا مولاي ، وهم يجاذبون ذلك مخافة
ان يعظم شأن الاولاد فتأخذهم العجلة ليبنوا آباءهم . »

ونفذت هذه الكلمة الى قلب علي كالمهم . فأصبح يرى في محمد
خصماً خطراً ، فقسم على اهلاكه . ولكي يتم له النجاح دون مغامرة ،
انفذ الامر اولاً الى القائمين على حراسة ابواب القاهرة بأن يحولوا
دون خروج اي كان من الممالك عند العصر او في الليل . ثم
ابلع محمود انه منفي الحال الى الصعيد . وكان يقصد من هذه
المنافضة ان يوقف محمود عند الابواب ، وان يستولي الحراس عليه
من ايسر سبيل . على ان الاقدار واربت هذه التدابير الضعيفة
المهينة . وشاء الخط ان يؤدي سوء التفاهم الى حسان محمود مكلفاً
مهمة خاصة من غي . فتركوه وشأنه يمر مع اتباعه . وهنا ضاع
الامل بالنجاح . وبلغ امر الغلظة علماً ، فأمر بتعقبه . على ان محمداً
ابدى من رباطة الجأش ما جعل القوم يتهيئون مهاجمته . فبسم
الصعيد يتأكله الغيظ وتحدوه رغبة الانتقام ، ولئلا يكون خطراً آخر
كان يتربص به ، فان ايوب بك ، احد قادة علي ، تظاهر بمشاطرة
المنفي احقاده ، فاستقبله بفرح وابتهاج وافهم على السيف والقرآن
بانه مجازبه على علي . ولم تقتصر بضعة ايام حتى انجلت الوفائع عن
رسائل من ايوب الى علي يعده فيها برأس عدوه قريباً . ونكشفت
الدسيسة ل محمد ، فألقي القبض على الخائن وقطع معصماه ولسانه ، ثم
أرسل الى القاهرة لينال ثواب سيده .

بيد ان الممالك ، وقد ملوا تشامخ علي ، تحولوا جماعات الى
خصمه . وكانت اربعون يوماً كافية ل محمد حتى نستجمع له قوة
تكن معها ان يتحدر من الصعيد مشرع السلاح . فقابلته علي بقوة
من انصاره ، ولكن كثيرين منهم انضموا الى العدو . والخيبر ،
في خلال شهر نيسان من السنة ١٧٧٢ ، وقعت الواقعة ، في سهل

المضارب عند ابواب القاهرة ، ودأبت الدائرة على علي ، فدخل محمد
 المدينة بالوفير من رجاله وعدده . ولم ينسَ لعل بك الا فرصة
 الحرب مع ثمانية ملوك تبعوه . ولأول مرة في حياته قصد الى
 غزة . وحاول ان يذهب لغوره الى عكا مقر حليفه عمر الظاهر .
 ولكن اهل نابلس وبها سدوا المسالك دونه . فاضطر عمر الظاهر ،
 ان يأتي بنفسه ليزيل من امامه العقبات ، واستقبله هذا العربي
 بسلامة الطوبى والرحابة اللتين تميزت بها امنه خلال الازمنة ،
 وذهب به الى عكا . وكان جنود عثمان والدروز يحاصرون مدينة
 صيدا ، فاستجدته عليهم . فانطلق يصحبه علي . وكانت قوتاهما
 مجتمعين ، ثلثان سبعة آلاف فارس . وما اقتربوا من المدينة حتى
 رفع الانوار الحصار عنها ، وتراجعوا صوب شمالها مسافة فرسخ
 حتى غير الحولة . وهناك في شهر تموز سنة ١٧٧٢ نشبت معركة
 هي اخفم معارك تلك الحرب واكثرها انتظاماً . وكان الجيش
 التركي ثلاثة اضعاف جيش الخلفين ، ولصقته مني هزيمة نكراء .
 فهرب قادته الياسارات السبعة وبقيت صيدا في يد الظاهر وحاكمها
 الدنكرلي . وفي عودة علي بك وعمر الظاهر الى عكا انطلقا الى
 باقا ليعزلا القصاص بسكانها المتمردين الذين حاولوا الاحتفاظ بمسودع
 ذخيرة وامنة كانت قد افرغتها مراكب علي بك قبل ان يطرد
 من القاهرة . وكان يحتل المدينة شيخ من نابلس ، فأغلق ابوابها
 واكرعها على محاصرتها . وبدأت هذه الحملة في شهر تموز ، واستمرت
 ثمانية اشهر على كون باقا لا يعصمها الا جدار بسناني لا خنادق
 حوله . ذلك بأن السوريين والمصريين يعوزهم المرات في حرب
 الحصار شأنهم في حرب البر . واخيراً استسلم المحاصرون في شهر

شباط من سنة ١٧٧٣ . واستعاد علي حريته فاصبح شغله الشاغل
 ان يرجع الى مصر . ووعده عمر الزاهر بالنجدة ، في حين ان
 الروس وعدوا بمساندته ، وكان قد حاللهم بعد فضيلة القرصنة التي
 سبق ذكرها . على ان استجاع تلك الوسائل الشتى بحتاج الى
 وقت ، وعلى نافذ الصبر ، وما كانت وعود وذوق كالحبسه ورجام
 الغيوب عنده الا لتزیده طمأناً . فلما برح هذا القبطي يؤكد له
 ان ساعة عودته قد آذنت ، وانها ، على ما تدل الكواكب ،
 ستتم في احسن الاحوال واكثرها مواتة ، وان ثمة دلائل على ان
 محمداً صائر الى علاك المكيد . وكان علي ، شأن سائر الاتراك ،
 يعتقد بالتنجيم ويثق برؤى نفة يورعا ان تنبؤاته كثيراً ما كانت
 تصدق ونصح . فبم الانظار اذن ؟ رجاءه عن القاهرة انباءه
 عجبت في نقاد صبره . ففي اوائل شهر نيسان وردت عليه
 رسائل من اصدقائه يذكرون فيها انهم شنوا عبده العاق ، وانهم
 ينتظرون رجوعه للاقتصاص من محمد . فقرر المسير للعراق . ولم
 يبق في وسعه ان ينتظر قدوم الروس ، فانطلق مع المماليك والف
 وجماعة رجل من الصفديين بقيادة عثمان بن عمر الزاهر . بيد انه
 كان يجهل ان رسائل القاهرة ان هي الا مكيدة من محمد نفسه
 استكتبها مرسلها عنوة ليلخدع علياً ويوقعه في الشرك
 المنصوب له . وفي الواقع ما كاد علي يتورط في الصحراء بين
 غزة ومصر حتى التقى فرقة مختارة من المماليك يبلغ عدد رجالها
 الف مقاتل يتولى قيادتهم مراد بك ، وهو فني من المماليك شغف
 بامرأة علي بك ، فوعده بها محمد اذا سلمه رأس زوجها . وما لاح
 لمراد غبار الاعداء عن بعد حتى انقض عليهم وبغترهم . واستم

أخطأ له فالتقى ألباً في المعركة وجهاً لوجه ، فهاجمه وساف جيبه
فجرحه وفبض عليه ثم اسنقه الى محمد . وكان هذا الأخير على
مسافة فرسخين وراء الجيش ، فاستقبل سيده القديم وبائع في نوفمبر
والجذب عليه مبالغة ثم عند الاتراك على الغدر ، وخصه بحربة فاشرة
الرياش ، وأوحى بالعناية التامة به ، وكرر انه الف مرة عبده
الذي يلثم موطئ قدميه . على ان هذه المأساة انتهت في اليوم
الثالث بموت علي ، وعزاه البعض الى جراحه ، فها عزاه البعض
الأخر الى السم . والاحتمالان متعادلان بحيث يتعذر الترجيح .

هكذا انتهت حياة هذا الرجل الذي استوقف اهتمام أوروبا
حقبة من الزمن ، وتوقع بعض الساسة من ورائه انقلاباً خطيراً .
لا ريب انه كان رجلاً خارقاً ، ولكن من المبالغة ان نحت في
مصاف الرجال العظام . ويروي اليهود النقا انه كان ينطوي عنى
كثير من المزايا القظرية ، إلا ان انفقاره الى الثقافة حال دون
فائها الناء الذي يجعل منها فضائل كبرى . لتجاوز عن اعتقاده
بالتنجيم الذي كان يسير اعماله اكثر مما كانت يسيرها النبصر في
الاسباب والاحوال ، ولتجاوز عن خيالاته وحسنه بالعبود والايقاع
بالحسنين اليه ، تلك الوسائل التي تدوع بها لتولي السلطة واستبقائها
في يديه . لا ريب ان الخلفيات عند جماعة امرهم فوضى هي غيرها
عند قوم يسودهم السلام . على اننا اذا حكينا على اهل المطامع
بمقتضى المبادئ التي يقولون بها ، نرى ان علي بك وضع خطية
للتوسع فلم يتوسم تخطوطها ، وعمل على هلاك نفسه . ومن الحق
خاصة ان تأخذ عليه ثلاثة اخطاء :

١ - نزعه على غير نبصر الى الفتوحات التي تقدمت معها

مداخله وفوائده وصرفته عن ادارة بلاده الداخلية .
٢ - ركونه الى الراحة قبل الاوان وتحويل العمل على معاونه
بما حظ من قدره عند الممالك ، وجرأ الناس على الثورة .
٣ - واخيراً ، اغداقه الثروات الفائقة على رأس احد خاصته
بما اكسب هذا الاخير مكالة افراط فيها وتجاوز . ولو افترضنا
ان محمداً من اهل الفضيلة ، أما كان يجدر بعلي ان يحذر غواية
المداخين الذين يلتمسون في كل بلاد للناس حول الجاه والنعمة ؟
على ان ثمة مزية جديرة بالاعجاب تميز علي بك من سائر الطغاة
الذين تعافوا على الحكم في مصر . لئن تكن عيوب التربية الوردية
قد حالت دون معرفته المجد الحقيقي ، فمن الثابت انه كان طامحاً
اليه ، وما كان هذا الطموح يوماً مراد النفوس الوضيعة . ولم
يكن يعرفه إلا مقربون يعرفون السبيل الى ذلك المجد ، وفلائق
هم القادة الذين يستحقون هذا الاطراء .

ولا يعني السكوت عن ملاحظة سمعتها في القاهرة . ان النجار
الاوروبيين الذين شهدوا علماً حاكماً ومخلوعاً يطردون ما انصف
به من حلم ونشبع للعدل وعطف على الفريجة ، ويدعشون لعدم
نأسف الشعب عليه ، فينتعون هذا الشعب بالقلب او نكران الجليل .
على ان هذا الامر لا يبدو غريباً في نظري . فان احكام الشعب
في مصر وغيرها ثلثها عليه احوال معاشه . فبقدر ما يكون
الحكام قد عسروها له او يسروها ، يبادلهم مقناً وذماً او ثناء
ورضى . وما كانت هذه الطريقة يوماً عمياء او جائرة ، فمباشرة
يقنعونه ان شرف السلطنة او مجد الامة او تشجيع التجارة والفنون
الجميلة تقتضي هذا العمل او ذاك ، فحاجته الى المعاش اخفى حاجاته

وأولاهما . ومتى اغوز الخبز الجماعات فمن أقل حقوقهما ان تضمن
 بعرفان الجبل والاعجاب . ماذا يعني شعب مصر ان يفتح علي
 الصعيد او مكة او سوريا اذا لم تكن هذه الفتوحات عاملة على
 تحسين حاله ؟ وقد حدث في الواقع ما افضى بالبلاد الى أسوأ مآل .
 فان نفقات الحروب ادت الى تقاسم الضرائب ، فبلغت تكاليف
 حملة مكة وحدها سنة وعشرين مليوناً بعملة فرنسا . وخرجت
 المؤن من البلاد وراء الجيوش ، ولجأ بعض التجار المقربين الى
 الاحتكار ، فحدثت مجاعة عمت البلاد طوال سنتي ١٧٧٠ و ١٧٧١ .
 قبل ان يخطئ سكان القاهرة وفلاحو المزارع الجائعون بدموعهم مسن
 علي ؟ وهل الخطأوا بتقبيح تجارة الخس الذي انحصرت منافعها في
 ايدي معدودات ؟ واذا كان علي قد انفق خمسة وعشرين الف ليرة
 ثناً نقبضة خنجر ، أما كان من حق الشعب ان يتذكره هذا البذخ
 وينفر من صاحبه ؟

وهذا السماح في العطاء الذي كان يحسبه رجال خاصته فضيلة ،
 أما كان الشعب محبباً ، وقد حصل على حياجه ، ان يعدّه تقبحة
 وعيباً ؟ اي فضل لهذا الرجل في بذل ذهب لا يكلفه شيئاً ؟ أكان
 من العدل ان يرضي عواطفه الخاصة ويسدد التزاماته على نفقة
 الجمهور كما حدث له ان فعل مع قيم قصره ^١ لا لا نكران ان

١ كان علي يك في طريقه الى القنص (وقد نفق ثلاث مرات) وضرب خيامه على
 مغربة من القاهرة حيث منح مئة أربع وعشرين ساعة لا يلاء ديونه . وجاءه المدعو حسن
 احد الانكشارية وله في ذمته خيانة دينار . وحسب علي انه اتى بطالب يدينه ، فشرع
 يفتدوه . علي ان حسناً هذا اخرج من جيبه خيانة دينار اخرى وقال له : انت الان
 في محنة ، فخذ هذه ايضاً . فذهل علي من هذا السجاء واقسم برأس التي انسه اذا قدر له

معظم اعمال علي بك لا تستند الى مبادئ العدل والانسانية بقدر
ما هي ترجع الى عوامل طبعه وزعمه ، فلم تكن مصر في نظره
إلا ملكاً ، والشعب إلا قطيعاً يجوز له ان يتصرف به على هواه .
أنعجب بعد هذا ان الناس الذين عاملهم معاملة السيد المتصانف
ينظرون اليه نظرة الاجراء المستائين ؟

الرجوع سيجعل لهذا الرجل ثروة لا مثيل لها ، وفكك العودة ، فحين هذا الرجل متعبداً
عائداً للارزاق ، وعيناً خدثوه يأمر اخلاساته الغاضبة ، فم يقتل منه قط .

الفصل التاسع

موجز الحوادث منذ موت علي بك حتى السنة ١٧٨٥

لم تبدل حال المصريين بعد موت علي . فان خلفائه لم يحاولوا
الانقضاء حتى يذو جدير بالثناء من ملوكه . أمّا محمد بك الذي
خلقه في شهر نيسان من السنة ١٧٧٣ ، فلم يظهر منه خلال سنتي
حكمه الا نزق القصر ولؤم الخائن .

وخشي ان يرمى بالجهود ونكران الجبل فظاهر بانه المنتقم
لحقوق السلطان ورسول مشيخته ، فارسى الجزية الى الاسكندرية بعد
ان القطعت عنها ست سنوات ، واقسم بين الطاعة بلا قيد ولا
شرط ، وجده خضوعه عند موت علي بك ، وفوسل بحجة اخلاصه
للسلطان فاستأذنه في محاربة العربي عمر الظاهر . وهو طلب لو
البيع للباب العالي ان يلتمسه التماساً لفعل ، فما بالك به وهو ينحده
تكرماً ؟ اجل لقد اجاب محمداً الى رغبته واسمى عليه لقب باشا
القاهرة . فاصبحت الحلة شغله الشاغل . وقد يتأمل المرء اي فائدة
سياسية يفيدها حاكم على مصر من سحق العربي عمر الظاهر اللاتر
في سوريا ؟ على ان السياسة في هذه الحالة ، شأنها في سائر الاحوال ،
ابعد من ان يسترشد بها اولئك الناس . فالعوامل هنا معض
✓ منخضة ومنها حق محمد ، اذ لم يكن باستطاعته ان ينس الرسالة
الاليفة التي كان الظاهر قد وجهها اليه في ابان ثورة دمشق ، ولا

انشاعي التي قام بها ضده مضاجعة علي بك . وتحالفت البغضاء
 والجشع . فقد كان من الآثار عن ابراهيم الصباغ وزير عمر الزاهر
 انه جمع ثروات طائلة . فكانت مضاجعة محمد بهلاك عمر الزاهر
 مزدوجة : الشار والاثراء . ولذلك لم يتردد في اقتحام غمرات
 الحرب ، فاستعد لها بنشاط تسعيره البغضاء . وتعزز بمدفعية عظيمة ،
 واستفدتم لها مدفعين لجانب ، وجعل قباذتها بأمره الانكليزي
 روينسن ، واستنجر من السويس مدفعاً طوله ثلاث عشرة قدماً .
 واخيراً ظهر في فلسطين على رأس جيش يضايف الجيش الذي كان
 قد جرده على دمشق . وكان ذلك في شهر شباط من السنة ١٧٧٦ .
 وما اقترب من غزة حتى انكفأ عنها ورجال عمر الزاهر لعلمهم ان
 المقاومة لا تجديهم فتيلاً ، فاحتلها ولم ينوقف بل زحف على يافا .
 وكانت تقوم على حراسة هذه المدينة حامية يعززها جميع
 الكائن وهم مشرسون بالقتال . فصدروا المعندي فحاصروهم .
 ويدلنا تاريخ هذا الحصار على مبلغ جهل اولئك القوم للفنون
 الحربية . وفي ما نورده من الوقائع الرئيسية بوهان على ذلك .
 تقع يافا على ساحل قليل الارتفاع عن سطح البحر . وتقوم
 المدينة نفسها على تلة كقالب السكر يستصب عمودياً الى منة
 وثلاثين قدماً . وتبدر المنازل المزدوعة على السفح كالسطحات
 المتراكبة . وفي القمة قلعة صغيرة تشارف جميع ما يحيط بها .
 واسفل التل محاط بجدار غير محصن يراوح ارتفاعه بين اثني عشرة
 قدماً واربع عشرة ، وسماكته بين قدمين وثلاث . ولا يميزه من
 حائط البساتين إلا الشرفات التي تعلوه ، ولا خنادق نعصه . وتند
 حباله حدائق من الليمون والبرتقال تبلغ ثمارها حجماً غريباً بفضل

خصب التربة . تلك هي المدينة التي عاجها محمد . وكان جانبها عندئذ
خمسائة صفدي أو ستمائة ، ومثل هذا العدد من السكان هبوا
جميعاً لصد العدو وسلاحهم السيف وبنادق الصوان والقتيل . وكان
في حوزتهم بعض مدافع فولاذية زنة قنابلها أربع وعشرون لبيرة .
ولم يكن لتلك المدافع عمال فرفعوها على فواعد خشبية ركزت
بعملة فائقة . وحسبوا ان القوة في الشجاعة والبغضاء ، فأجابوا
العدو على انذاره بالتهديد والعبارات النارية .

واذ رأى محمد انه لا بد من اكتساحهم عنوة واقتداراً ، عسكر
امام المدينة . ولكن المماليك يجهلون القواعد الفنية بدليل ان
محمد وقف من المدينة على نصف مرمى المدفع ، فنبهه الى خطأ
سبل القنابل المنهمر على خيامه . فتراجع رويداً حتى استقر في
المكان الامين . فتصبحت له خيمة اسرفوا في زخرفتها ، وبدت فيها
مظاهر من البذخ لا حد لها ، ثم ضربت حولها خيام المماليك دوناً
سقى او نظام . واصطنع البرابرة اكواحاً من جذوع الشجر
واغصان الليمون . وتبدو سائر الجيش امره بقدر المستطاع . ولوزع
الحراس هنا وهناك على وجه يكاد يكون مرضياً . ولم يقيموا
المناريس حول المعسكر . وحسبوا مع ذلك انهم معسكرون بقنظي
الاصول . ونحتم عليهم تثبيت المدفعية فتخيروا لها مهبداً من الارض
في الجنوب الشرقي من المدينة ، وأحكموا ثمانية مدافع ضخمة
وراء جدر البساتين على مسافة مائتي خطوة من المدينة ، وشرعوا
بإطلاق النار على رغم رحاض البنادق المنساقط عليهم من اعالي
السطوح ، مما كان سبباً في تقبل الكثيرين من مطلقي مدافعهم . ان
هذا الترتيب يبدو غريباً في أوروبا ، حتى ان الناس قد يشكون

في حقيقة امره . بيد ان تلك الحوادث لم يور عليها احدى عشرة
 سنة . وقد شاهدت اماكنها ، واستنعت بحدودها الى شهود عيان .
 وارى القروض على الا اشوه وفائع يجب ان تكون مستنداً
 للحكم على ذهنية امه . وفنعت الدامع في هذا الجدار ثغرة واسعة ،
 فحاول الممالك عبورها على ظهور الجياد . واذ بين لهم ان الامر
 مستحيل ترجلوا ، وساروا يسراويلهم الواسعة واردينهم المشيرة
 يتعشرون بالانقاض ، السيوف العقباء في ايديهم والطبنجات في
 اوساطهم . وحسبوا انهم جاوزوا كل العقبات بعد اجتيازهم هذه
 الانقاض . بيد ان المحاصرين تروثوا حتى نفذ الممالك الى الارض
 المنكشفة فأمطروهم وابلاً من الرصاص . فارتدوا منهزمين . فاستغفرهم
 مراد بك مرات متتالية ، ولكن على غير طائل . وكان محمد بك في
 هذا الوقت ينير غيظاً وبأساً . واستمرت الحال على هذا المتوال
 ستة واربعين يوماً . على ان عدد المحاصرين كان يتناقص يوماً
 فيوماً بسبب الهجمات المتتالية . ويشبوا من اية نجدة تصلهم من
 عكا . وشبوا ان يستقنوا في الدفاع عن قضية عمر الضاهر . وكان
 المسلمون اكثر تهرماً من غيرهم ، ناسبين الى المسبحين انصرافهم
 الى الصلاة والشغافهم بالكناش اكثر من اهتمامهم بساحة القتال .
 وفتح البعض باب المفاوضات ، فاقترح اخلاء المكان اذا كانت
 المصريون يؤمنون المحاصرين على المال والارواح . ووضعت
 الشروط حتى كاد يصح القول ان المعاهدة ابرمت بين الفريقين .
 ولكن نفراً من الممالك غنموا فرصة الهدنة فانسلوا الى المدينة ،
 فتأثرتهم الجماهير . وباشروا النهب ، فحاول الاهالي المدافعة ، واستؤنف
 الهجوم . وتوالت الجيوش زرافات واعمل السلب والنقتيل ، فحصد

السيف الفناء والأطفال والشيوخ ، وأبت وحشية محمد ونذالته
 إلا أن يرفع نصيباً للنصر ، فأمر أن يشاد له هرم من رؤوس
 القتلى المناكيد ، وقد جاوز عددهم ألفاً ومائتي نسمة . وكان من
 نتيجة هذه الكارثة التي حلت بالمدينة في ١٩ أيار سنة ١٧٧٦
 أن عم الذعر سائر البلاد ، فانهزم الشيخ عمر الزاهر من عكا
 حيث حل ابنه علي محله . وكان علي هذا شديد البأس ، على
 كونه شوه مجاده بشوراته على أبيه ، فاعتقد أن محمداً - وكان
 قد خالفه - سيحترق الحلف ، ولكن هذا المملوك ما كاد ينتهي
 إلى أبواب عكا حتى طلب من علي ثمناً لصدافته له رأس أبيه ،
 فرفض علي وتخلّى عن المدينة للصريين ، فانتبهروها انتهاباً . وكاد
 التجار الفرنسيون يتعرضون لمثل هذا المصير . ولكنهم ما لبثوا أن
 فوجئوا بخطة مريعة . فقد ترامى إلى مسامع محمد أنهم مؤتمنون
 على ثروة إبراهيم كاخية عمر الزاهر ، فأنذروهم بالموت إذا منعوها
 عنه . وعين للبحث عنها فبا بينهم نهار الأحد التالي ، فوقع في
 هذا النهار حدث انقذهم من هذه الورطة المائلة . فقد استولت
 على محمد حمى خبيثة ~~الصلصة~~ بعد يومين ، ففقد في زهرة العمر ،
 وكان ذلك في شهر حزيران من السنة ١٧٧٦ . ويعتقد المسيحيون
 أن هذه المنيّة قصاص من النبي الباس الذي كانت محمد قد عاك
 حرمة كنيسته على جبل الكرمل . ويروون أيضاً أنه كان يراه
 مرات عديدة بصورة شيخ وبصيح باستمرار : « ابعثوا علي هذا
 الشيخ الذي يلازمي ويرعيني . » على أن الذين شهدوا ساعاته الأخيرة
 قد أخبروا أشخاصاً جديرين بالثقة في القاهرة أن هذه الرؤيا ما
 كانت إلا نتيجة للهذيان الناشء عن ذكرى الضحايا التي غدر بها

محمد ، وان موته يرجع الى رداة المناخ والقيظ والنعيم المفرط ،
فضلاً عن الهجوم المرفقة التي لازمتها في ايام حصار باغدا . وتجدر
الاشارة هنا الى اننا لو شئنا الاعتماد في كتابة التاريخ الحديث
على رواية مسيحية سوريا ومصر لجاءت ملأى - كما في العصور
السابقة - بالمعجزات والرواى .

وما ذاع نبأ موت محمد حتى سادت الجيوش الفوضى على ما
حصل له في دمشق ، وانهم صوب مصر . وكان مراد بك قد
اصبح ذا نفوذ عظيم فأسرع الى القاهرة بنازع ابراهيم بك القيادة ،
وهو من اخصاء البيت واحد معتقبه . فلم يبلغ مسامعه ما آلت
اليه الامور حتى اتخذ من التدابير ما يضمن له بقاء السلطة التي
كان مؤثماً عليها منذ غياب سيده . وكانت الاحوال جميعها تؤذن
بوقوع الحرب . على ان كلا الحصين وازن بين وسائله ووسائل
عدوه فرأى انها متعادلة بحيث اصبح يخشى عاقبة القتال . لذلك
اخترنا السلام ونوافقا على ان تكون السلطة بينها مشاعياً ، شرط
ان يحتفظ ابراهيم بقلب شيخ البلد او القائد . هذا ما قضت به
مصلحتها المشتركة في التأمين على سلامة كليهما . وكان اليكوات
الذين من بيت علي (اي الذين اعتنقهم) يتبرمون سرّاً بكون
السلطة قد انتقلت الى يد حزب جديد . وكانت رفعة الشأن التي
بلغها محمد نجرج كبريائهم . وبدأت لهم سلطة عبيده مما يفوق طائفة
الاحتمال . فعزموا على التخلص منها وشرعوا يدسسون الدسائس
ويحزبون الاحزاب حتى قيسر لهم ان يؤلفوا عصبة اطلقوا عليها
اسم بيت علي بك . وكان يرأس هذه العصبة حسن بك الملقب
بالجداوي نسبة الى جدة التي كان حاكماً عليها . وزامله استعابلي

بك احد معنقي الكاكية ابراهيم . وبلغت دوائهم حداً من النجاح
أكبر مراد بك وابراهيم بك على اخلاء القاهرة . فانتكفاً الى
الصعيد حيث تقرر منقاهما ، وفكنا هناك من تنظيم شؤونها بفضل
ما التحق بها من الانصار المنشقين . فرجعا الى القاهرة على رأس
اربعمائة فارس هزموا الاعداء على كونهم يزيدونهم في العدد
ثلاثة اضعاف . فطرد اسماعيل وحسن بدورهما الى الصعيد حيث لا
يزالان . وخلق مراد وابراهيم من بقاء هذا الحزب ، فحاولا ابادته
ولكنهما لم يفلحا . ثم اقطعا العصاة مقاطعة في نواحي جرجا .
على ان الماليك يتزعون دائماً الى ملذات القاهرة ، فحاولوا بعض
الاضطرابات خلال السنة ١٧٨٣ . قرأى مراد بك ان يعمل مرة
أخرى على ابادتهم . وكان - عند وصولي الى مصر - يعد العدة لهذا
العمل . وانتشر رجاله على ضفاف النيل يوقعون المراكب ويسوفون
ربانها تحت تهديد العصي الى القاهرة . والناس ينهارون من السخرة .
وقد فرضت على تجارة المدينة ضريبة هائلة . وأكبره اصحاب
الافران والتجار على بيع سلعهم بأسعار هي دون اسعار تكاليفها .
وكانت ضروب الاغتصاب هذه التي يتكررها الناس في اوروبا
تجري وكأنها امور عادية . وكان مراد بك قد انجز اعداد وسائله
في اوائل شهر نيسان ، فانطلق الى الصعيد .

ان انباء الاسانة التي تراجعت اصداؤها في اوروبا وصفت
هذه الحملة بأنها حملة حرب عظيمة وجيش ضخم . ويصح إطلاق
هذه التعميمات عليها اذا قيست بوسائل مراد بك ومطالعة مصر ، ولكن
عندها في الواقع الفان من الفرسان . فاذا تدبرنا اخبار الاسانة
وما يعترجها من النشوية المعتاد وجب ان نصدق احد امرين :

فقلنا ان يكون لواء العاصفة جاعلين ما يجري في مصر وسوريا،
واما ان يكونوا نعدوا التهويل على الاوربيين . على ان صعوبة
المواصلات بين تلك الاصقاع المتباعدة في السلطنة تجعل الافتراض
الاول اكثر احتمالاً من الافتراض الثاني . ولقد يبدو المناسبات ان
باستطاعة تجارنا المقيمين في مختلف الاساكن ان يرشدونا الى حقيقة
اخرى . بيد ان هؤلاء التجار المحصورين في هخاشتهم كالسجناء
لا يبدوون كثرين من الاعتماد بما هو غريب عن مناجرتهم ، ويقضرون
على قراءة الجرائد المرسلة اليهم من اوربا . وقد ارادوا في
بعض الاحيان ان يصححوا الانباء الواردة فيها ، ولكن معلوماتهم
استعملت في غير ظرفها ، فرجعوا عين الاعتماد بهذا الامر الذي
يظهرون بالشكك ولا يفيدون منه شيئاً .

خرج مراد بك من القاهرة وسار بجياله بمعاذاة النهر تتبعه
المراكب حاملة ذخائره وميادنه . ووافقت مسيره ربيع شمالية
مائية . وكان المنفيون ، وعدمهم خمساته ، ينزلون ما وراء
جرجا . فلما علموا بقدم العدم دب بينهم الشقاق وانقسموا
فريقين يريد احدهما الحرب والآخر التسليم . وكثيرون قالوا بهذا
الرأي الاخير فاستخذوا مراد بك . على ان اساميل وحسن
استمرا على عنادهما فانطلقا صوب اصفهان يتبعها مائتان وخمسون
جيالا . فتعقبها مراد حتى الشلال حيث اغتصا في اماكن وقرى
جعلت لها افضلية حسب المالك انه يستجيب معها اقتحامها . وخشي
مراد ان يطول غيابه عن القاهرة فتنفجر فيها ثورة جديدة ،
فأسرع بالعودة اليها ، بما هيأ للمنفين ، وقد خرجوا من المارق ،
ان يرجعوا الى مراكزهم الاولى في الصعيد .

ان جماعات تسودها الميول الخاصة ولا يفكر افرادها بغير
 نفوسهم وفي الحالة الخاضرة ، دون ما نظر الى مخبات الغد ، ولا
 يوحى فادتها من الاحترام ما يضمن لهم طاعة المسود ، ان جماعات
 كذلك لا تستقر بها السيادة ، بل ان ثباتها ضرب من المحال . فان
 تصادم عناصرها غير المتجانسة يقضي بها الى قلق واضطراب شاملين .
 وهذا ما حدث وبجدة جماعة المماليك في القاهرة . فان مراداً
 ما كاد يرجع اليها حتى تولدت دسائس جديدة افقت الى
 اضطرابات جديدة . فقد اجتمع في تلك المدينة ، فضلاً عن حزبه
 وحزبي ابراهيم وبيت علي بك ، بكوات ينسبون الى بيوتات
 اخرى . وكاد ضعف عزلاء وضالة شأنهم يجعلهم مهملين لا تأبه لهم
 الاحزاب السائدة . فتصادوا في شهر غموز من سنة ١٧٨٣ لضم
 قواهم ، وكانت منعزلة حتى هذا اليوم ، ونهضوا الى القيادة .
 وشاءت المصادفة ان ينكشف امر هذه العصابة فنفى قادتها الحصة
 الى الدلا . فتظاهروا بالاستخذاء . ولكنهم مما كادوا يخرجون
 من المدينة حتى تحولوا الى الصعيد وهو الملاذ المعتاد الذي يواثم
 جميع المستائين . فلوحقوا تباراً كاملاً في صحراء الاعرام ، ولكن
 على غير طائل . واستطاعوا التخلص من المماليك والعرب ، وبلغوا
 المتيا دون ما حادث ، واستقروا فيها . وكانت هذه القرية الواقعة
 على اربعين ميلاً من القاهرة على ضفاف النيل مؤازبة لاغراضهم ،
 اذ تسلطوا على النهر بحيث تبصر لهم الاسيلاء على كل موارد
 الصعيد . وعرفوا ان يفيدوا من هذا الوضع ، لان المؤن التي
 ترد في هذا الفصل من تلك المقاطعة قد وقعت في يدعهم ، وحرمت
 القاهرة من الميرة ونهضتها الجماعة . اخف الى ذلك ان البكوات

واصحاب الاملاك الذين تقع مزارعهم في الفيوم قد حرموا ريعها لان
المنفيين فرضوا عليها الجزية . وكانت هذه البلية مما يستلزم حملة جديدة .
أما مراد بك وقد أنعمته الحملة السابقة فقد رفض أن يقوم
بأخرى . فأخذها ابراهيم بك على عاتقه ، واثار إعداد العدة لها
في شهر آب على رغم حلول رمضان . فحجرت المراكب ورباتها
على ما حدث في إبان الحملة السابقة . ثم فرضت الضرائب وصور
منعبدو الارزاق . وفي أوائل شهر تشرين الاول خرج ابراهيم على
رأس جيش تغزو بالجيش الرعيب لانه كان يناهز ثلاثة آلاف
فارس . وانطلق في الليل نفسه لان مياه الفيضان كانت مسا
يوحت تغمر معظم البلاد . ولم تضر ابام قلائل حتى نواجه الجيشان .
بيد ان ابراهيم لم يكن ذا مزاج حربي شأن مراد ، فلم يساجم
المتحالفين ، بل فاضهم ، فتوافقوا على محالفة شغبية فضات بروجع
البكوات الى سابق حالهم . وتوالت مراد من هذا الاتفاق اذ رأى
فيه دسيسة عليه ، وساد الخلل بينه وبين خصمه . وزاد في قلقه ما
ابداه المنفيون من الشائخ في اثناء احد المجالس العامة . فأوجس
الحيانة ونداءك الامر بان خرج من القاهرة برجاله وانصرف الى
الصعيد . وحسب الناس ان الحرب واقعة لا محالة . بيد ان ابراهيم
آثر التسوية . وبعد انقضاء اربعة اشهر انحدر مراد الى الجزيرة
منحزراً للقتال . على ان الفريقين بقيا خمسة وعشرين يوماً وجهاً
لوجه ، يفصل بينهما النهر ولا يتقابلان . ثم شرعا بالتفاوض . سوى ان
شروطه لم تكن مما يوافق له مراد ، فرجع الى الصعيد لانه لم يكن من
القوة بحيث يستطيع إملاء شروطه عنوة واقتداراً . فأوفد اليه مراد
مفاوضين تمكنوا ، بعد أخذ وردة سخابة اربعة اشهر ، ان يعودوا به

الى القاهرة . وكانت الشروط ان يسلم مراد على مقاسمة
 ابراهيم السلطنة ، وان تنزع من البكوات الخمسة املاكهم . واذ
 رأى البكوات ان ابراهيم ضاع بهم لاذوا بالفرار . فطاردهم
 مراد واستعمل عرب البادية للقبض عليهم ، ثم رجع بهم الى القاهرة
 ليكونوا فيها قيد نظره . ولما كان في سنة ١٧٨٤م استقر
 بيد ان ما حصل بين القائمين كان من شأنه ان يكشف عن
 حقيقة مرادهما الواحد تجاه الآخر . فلم يكن من المستطاع ، والحالة
 هذه ، ان يتصافيا لأن كلا منهما كان يتقن ان الآخر يتجنب الفرض
 للايقاع به . فلبثا في نقطة وحذر . وما عنت هذه الحرب
 الباطنة ان اكبر مراد بك على مغادرة القاهرة في السنة ١٧٨٤ .
 فحضر خيامه على ابواب المدينة حيث اظهر من العزم والجلد ما
 ادخل العرب في قلب ابراهيم ، فهرب برجاله الى الصعيد ، واستقر
 فيها حتى شهر اذار من السنة ١٧٨٥ . ثم رجع الى القاهرة على اثر
 محاولة جديدة . ولا يزال يقاسم خصمه السلطنة ريثا نهيه له دسيسة
 جديدة فرصة الانتقام .

هذه هي خلاصة عن الثورات التي تعاقبت على مصر في هذه
 السنوات الاخيرة . وفي لم التبسط في ذكر الملاحظات المتعددة
 التي رافقت الحوادث لانها لا تفيد شيئاً ، فضلاً عما يعنود صحتها من
 الشك والريبة . وان هي الا دسائس وخيانات واعتداءات على
 الارواح يلقي تكرار روايتها الى الملل . وحسب المطالع ان
 يتنبع سلسلة الوقائع الرئيسية ويستخلص منها فكراً عامة عن
 طبائع البلاد التي يدرسها وعن حالتها السياسية . بقي علينا ان
 نبسط في درس هاتين الناحيتين .

الفصل العاشر

الحالة الراعية في مصر

منذ ثورة الكاخبة ابرهم ونورة علي بك ، عني الاخص ، أصبحت سلطة العثمانيين اقل استقراراً في مصر منها في اية ولاية اخرى . من الثابت ان للباب العالي في مصر باشا يمثله ، ولكن هذا الرجل المحصور قيد المراقبة في قصره بالقاهرة الفاو سجين المالك اكثر مما هو يمثل السلطات ، وهو عرضة للخلع والنفي والطرود . ولا يكاد يبلغ الانذار على يد ضابط اسود الرداء حتى « ينزل »^١ من قصره كأي من الناس . وقد شاء نفر من الباشاوات بايعاز من الباب العالي ان يستعبدوا سلطانهم بما حاولوه من وسائل المكر . بيد ان البكوات احاطوا هذه الدسائس بالخطر ، مما جعل الباشاوات يقنعون ، في الوقت الحاضر ، بقضاء مدة امرهم بهدوء وسكينة سخاية ثلاث سنوات ، وبانفاق محضاتهم المعينة لهم . على ان البكوات لا يتجرأون على اعلان استقلالهم بخافة ان تؤزل السيطرة على « الديوان » الى احد الاحزاب المتطرفة . فكل شيء يجري باسم السلطان ، وتقبل اوامره « على الرأس والعين » ، اي بمعيق الاحترام . على ان هذه الظاهرة المضحكة لا تقتصر

١ صيغة التزل عبارة عن كلمة « انزل » ، اي انزل من القصر .

بالتنفيذ فقط . فكثيراً ما عُلقت الجزية ، وإذا أُديت فهي نافضة
أبدآ ، إذ يسفلون منها مقدار نفقات شئ لتنظيف الترع ، ونقل
أوساخ القاعرة إلى البحر ، ومرتبات الجنود ، وترميم الجوامع الخ الخ .
وجميعها نفقات وهمية كاذبة . ويجدعون الناس في حقيقة مبلغ
القبضان ودوجته . ولولا الخوف من مراكب الدولة التي تأتي
الرئيسد والاسكندرية كل سنة لتعصيل ضريبة الأرض والخططة ، لما
أدوها . وهم مع ذلك يتصالحون على مقاديرها مع المكلفين بجبايتها .
هذا والباب العالي يفض الطرف عن هذا التعسف جرياً على
سياسته المألوفة . فهو يعرف أنه إذا لجأ إلى تدابير القمع القرم
بجهود ونكاليب ، وقد تضطره الحال إلى حرب معلنة يجوز أن
تخط من شأنه ، فضلاً عن أن مصالح أشد خطراً تفرض عليه حشد
القوات جميعها في الشمال . وهو إذن في حرصه على سلامة الاستانة
نفسها يكل إلى النقادير مهمة استعادة سلطانه على الولايات البعيدة .
فيعمل على التفرقة بين الأحزاب حتى لا يسود أحدها أو يستقر .
وهذه الطريقة التي لم تحجب مقاصده حتى اليوم قد جاءت موافقة
لكبار ضباطه أيضاً ، فهم يساءمون المتمردين على نفوذهم وحمايتهم
هم ، ويجمعون من جراء ذلك المبالغ الطائلة . وهذا هو اليوم شأن
أمير البحر حسن باشا ، فقد سلك المسلك نفسه مع مراد وإبراهيم ،
فحصل منهما على أموال باهظة .

الفصل الحادى عشر

مينايا المالك

ان المالك عند استيلائهم على الحكم في مصر تذرخوا بالوسائل التي حسبوا انها تضمن استقرارهم فيه . ولا ريب ان التجمع فلك الوسائل كان ما قاموا به من رذل فرقتي الاحزاب والانكشارية العسكرية ، بحيث ان عاتين الفرقتين ، وفد كالنا مفرعة في يد الباشا ، اصبحنا مثله ولا حول لها ولا طول . وهذا خطأ آخر تقع تبعته على عاتق الباب العالي . فان عدد الجند الاتراك الذي كان حتى قبل ثورة الكاخبة ابراهيم اربعين الف رجل خيالة ورجالة ، قد انزل الى نصفه بسبب جشع القادة الذين كانوا يحفظون لانفسهم بالمرتبات المخصصة للجند . وجاء على بعد ابراهيم يستكمل هذه البلية . فشرع بالتخلص من الرؤساء الذين يتربس منهم ، ورك مراكرهم شاعرة ، وجرد القادة من النفوذ ، ووزل الجيوش التركية حتى ان الاحزاب والانكشارية والفرق الخمس الاخرى اصبحت اليوم خليطاً من الصناعيين والمرتفة والمشردين الذين يرتضون حراسة اي باب لقاء اجر يتقاضونه ، ويرتجفون امام المالك كما ترتجف منهم سوفة القساعة . والواقع ان قوة مصر العسكرية تنحصر في فرقة المالك . فمهم بضع مئات منتشرون

في البلاد والقرى للمحافظة على السلطة وجباية الضرائب والحؤول
 دون المظالم . على ان معظمهم في القاهرة . ولا يجاوز عددهم بحسب
 تقدير العارفين ثمانية آلاف وخمسة رجل بين بكوات ، وكشافة ،
 ومعتقين وأرقاء . ويدخل في هذا العدد شيان لم يبلغوا العشرين
 او الثانية والعشرين من العمر . واعظم بيوتهم شأناً بيت ابوهم
 بك الذي يتألف من سبعة ملوك . ثم يأتي مراد بك وله منهم
 اربعائة . على انه في جرائه وسخائه يعادل قدره خصمه الثري
 البخل . ولكل من البكوات الآخرين ، وهم ثمانية عشر او
 عشرون ، عدة يراوح بين خمسين ومائتي ملك . وقلّة نفر
 من المهابيك يصح ان نعتهم بالمهينين ، وهم متجسّدون بيوتات
 منقرضة يشايعون هذا أو ذاك من القروغ بحسب مقتضيات مصالحهم .
 وتراهم ابدأ على اعباء التعيين لمن يزيدم عطاء . اضاف الى هؤلاء
 بعض « السراجين » ، وهم فئة من خدم الجسّاد ينقلون اوامر
 البكوات ويقومون باعمال الجلاوذة . وهذا المجموع يكاد يبلغ
 عشرة آلاف فارس . ولا حساب عندهم للمشاة ، فهم لا شأن
 لهم في تركيبها عامة ، وفي الولايات الاسبوية بوجه خاص ، لان
 اطناب الفرس والتتر ما يرحل تسود هذه الاصقاع . فالجرب
 عندهم كثر وفر لا يحسن القيام بها الا الفارس . فهو دون سواء
 رجل الجرب في المعارف بينهم . ولما كان رجل الجرب عندهم
 - شأنه عند البرابرة - صاحب الجاه والشرف ، فقد رأوا في السعي
 على الاقدام دليل حقارة ، فاختصوا به الشعب . وهم من اجل ذلك
 لا يسحون لسكان مصر الا باقتناء البغال والخيول ، محتفظين لانفسهم
 بحق ركوب الجياد . ويجارسون هذا الامتياز الى ابعد حدوده .

فأنك لا تراهم في المدينة أو الحقل أو انشاء التزاوير حتى من
باب الى باب ، الا على ظهور الخيل . ويحملهم على هذا الامر ، فضلاً
عما سبق ، نوع الملابس التي يرتدونها . وهذه الملابس التي لا تختلف
من حيث الشكل عن ازياء اهل البسر في تركيا جديدة بان
توصف .

النبتة الاولى

البه المالك

قميص واسعة من تسبيج قطني تصنع اللون ضارب الى الصفرة ،
يعملها رداء كالمبذلة من كتان الهند او من تسبيج دمشق او
حطب . وهذا الرداء المسن بالعتري ينحدر من العنق حتى
الكاحلين ، وينضم جانبا على مقدمة الجسم حتى الوركين حيث
يثبت بشكنتين . ويعمل هذا الرداء رداء آخر يشبه كل الاول
واتساعه ، يضل كجاء الواسعتان حتى رؤوس الاصابع ، ويسمونه
القططان . ويصنع عادة من الحرير ، وهو الثمن من الرداء الاول .
ورقة منطلق طويل يضم الردائين معاً الى القيد ويقسم الجسم الى
جزعتين . اضيف الى ذلك قطعة ثالثة من الجوخ غير مبطنه ، هي
الجبّة . ولا يختلف شكلها عن القطعتين الاوليين اجمالاً ، سوى ان
كميتها مقصوستان عند المرفقين . وهذه الجبّة لكسي ، في الشتاء
وغالباً في الصيف ، بالجلد فتصبع فروة . وفوق هذه الغلافات
الثلاثة يأتي معطف رابع يرتدى في الاحتفالات ، وهو يغطي بحمل
الجسم ورأس الاصابع ، اذ يرون في كشفها امام العطاء ما ينافي

الحشمة والادب . ويبدو الجسم تحت هذا المعطف مثل كيس طويل يخرج منه عنق عارٍ ورأس حليق تعلوه عمامة . وعمامة المهابيك تسمى « الفاورق » ، وهو على شكل اسطوانة صفراء تحيط بها الخافة من الشاش منتظمة الاستدارة . وينتعلون حذاء من الجلد الاصفر يكسو الرجل حتى العقب ، وخففاً بلا حواشي معداً لان ينزع في الطريق . اما الثوب الغريب فهو السروال ، لانه من السعة بحيث يصل الى الذفن طولاً ، وكل ساق من ساقيه تسع الجسم كله . ويصطنعه المهابيك من جوخ البندقية ، وهو اكنوس سماكة وانعم ملمساً من الصوف الخشن . ولهذا السروال منطلق ذو حجرة يعقد على الاقسام المدلاة من الثياب التي ذكرناها ، فتضم جميعها تحت السروال تيسيراً المشي . فعني تصورت المهابيك مقمطين على هذه الصورة ، سهل عليك ان تفهم السر في تشاغل خطاهم ، وهم يرون في ثيابهم راحة وسعة . وعبثاً تقول غم انها تعرفل سيرهم مشاة ، وانهم لا يحسنون الطراد ركوباً ، وان الفارس اذا اسقط عن جواده مصيره المهلكة ، فجوابهم على كل ذلك « انها العادة » .

النبة الثانية

جهاز المهابيك

وانت اذا كان جهاز جيسادهم اطبق على المعقول . ان اهل اوروبا منذ تعودوا البحث في غلة الاشياء شعروا ان الفرس ، لكي تسهل عليه الحركات تحت فارسه ، يحتاج الى عدة وحمل خفيفين . وهذا التحول الذي طلع علينا به القرن الثامن عشر لا يعرف المهابيك من امره شيئاً . فهم ما يروحوا على ذهنية القرن التاسع ،

يتفادون أبدأ « للعادة » ويوسقون الحصان بعدة ضخمة المبكّل ، مثقلة
 بالحديد والحشب والجلد . يعلوها من وراء قروبوس يرتفع ثمانية فواريط
 ويغطي الفارس حتى رأس الورك ، ومن أمام قروبوس آخر يهدد
 صدره إذا ما انحنى ، ويستعيضون عن الصفقة تحت السرج بثلاثة
 اغطية صوفية سميكّة ، ويثبت كل ذلك في السرج بحزام يمر فوقه ،
 ويُرِبط ليس بأبازيم ذات شوكلات ، بل بسوط معقودة قليلة المتانة
 كثيرة التعقيد . وسروجهم واسعة المقدمة ولا سير لها في المؤخرة ،
 مما يجعلها تسترسل على كفي الفرس . والركب لوحات من
 النحاس تفوق الرجل طولاً وعرضاً وترتفع حوافها مقدار فيراط ،
 وهي تندلى من العرى . وهذه الركب زوايا حادة كالشفار تستعمل
 عوضاً عن المياميز لتفتح في كشوح الجباد جراحاً مستطيلة .
 ويزن الركبان عادة عشر ليرات ، وكثيراً ما تزن اثني عشرة
 ليبرة (الليبرة ٥٠٠ غرام) . أما السرج والاطية فلا تزن أقل
 من خمس وعشرين ليبرة ، بنوع ان الفرس يحمل ستاً وثلاثين
 ليبرة . وهذا الامر مستغرب ، خصوصاً وان الخيل في مصر صغيرة
 القدود . والزمام ينتهي بحلقة حديدية تضغط على الذقن حتى تكاد
 تقطع الجلد ، مما يجعل الفرس يحطم جانبي الفكين ولا فم له .
 ذلك ان الممالك يرجعون اللجام رجاً عبيفاً ، فيطلقون العنان
 للفرس ، ثم يوقفونه بغتة في اشد انطلاقاته . واذا يشد لجام الفرس
 تتضلسب قوائمه ، وبطوي عرقوبيه ، ويتزلق بمجمله قطعة واحدة
 كأنه حصان خشبي . ومن المعلوم ان هذه الطريقة تتلف الفم
 والقوائم بتكرارها . على ان الممالك يجدون فيها ألفة ، وهي تنفق
 مع اساليبهم في القتال . ومع ذلك فاميلوك فارس ثبت قوي ،

على رغم سافيه المعقوفتين وكثرة تلوينه ، وعليه سباه حربية تفنن
عين الغريب . ويجدر القول انه اكثر تونفاً في اختبار سلاحه .

النبة الثالثة

اسلحة الممالك

سلاحهم الاول فرايضة انكليزية ، طولها ثلاثون فيراطاً ، وعبارها
من القوة بحيث تطلق عشر رصاصات او اثنتي عشرة في وقت معاً ، بنوع
انها قاتلة وان لم تحكم رمايتها . ويحملون في اوساطهم غدارتين مشدودتين
الى الثوب ببريم من الحرير . وتندلى من القربوس خيمة من الاسلحة
يستعملونها للقتل ضرباً . ويتدلى من حمالة في جنبهم الابن سيف
معقوف قلماً نشاهد نظيره في اوروبا ، طول نصله في خط مستقيم اربعة
وعشرون فيراطاً ، واذا قيس الخناؤه فثلاثون فيراطاً . ولهذا الشكل
الذي نراه مستغرباً ما يبرره عندهم . فقد دل الاختبار على ان النصل
المستقيم يقتصر فعله على موقع الضربة وحينها لانه لا يقطع الا بالضغط ،
في حين ان النصل الاعوج يتلقى بقوة الذراع نقهراً ويتسع مدى فعله .
وهذه الملاحظة لم تفت البربر المتفنون في اساليب القتال والتفصيل . وهذا
ما حمل الشرقيين على استعمال السيوف المحنية العريضة . والمملوك
العادي يجلب سيوفه من الاسنانة ومن اوروبا . اما البكوات فهم
يتنازعون سيوف الفرس والمصانع القديمة في دمشق ، ويدفع ثمن السيف
الرأجل اربعين او خمسين ليرة فرنسية ذهباً . وخصائص السيف المفضلة
عندهم خفته وصفاء معدنه ورنينه ونموج حديدته ، وبوجه خاص رقة

١ قلت القديمة لانهم اليوم اهلوا صناعة النولان .

شفرته ، ويجب الاعتراف انها رائعة ولكنها سريعة العطب كالزجاج .

النبذة الرابعة

تدرب المالك وغاريتهم

ان تدرب المالك على استخدام هذه الاسلحة شغلهم الشاغل طوال الحياة . يخرج معظمهم صبيحة كل يوم الى سهل حبال القاهرة ، وهناك يطلقون اعنة الجياد ، ويتدربون على اخذ القرابين برشافة وتسييد الرماة فيها ، ثم يضعونها تحت الفخذ ويتزعمون غدارة يطلقونها ويرمون ما وراء الكتف ، ثم غدارة ثانية تمر بالتجربة نفسها ، متكئين على البريم الذي يشد كلا الغدارين الى التوب . فبشجعهم البكوات الحاضرون . ومن تمكن منهم من حطم الهدف ، وهو عبارة عن اثاء من خرف ، ذهبت اليه النهاية . والمكافأة . ويتدربون ايضاً على معالجة السيوف ، وبنوع خاص على تسديد الضربة من الشمال الى اليمين ، وتوجه من الاسفل الى الاعلى ، وهي اصعب الضربات على من يتقنها . وهم على فسطح من المهارة بحيث ان الكثيرين منهم يقطعون بسبوحهم الحادة كلمة من القطن كما يقطع قالب الزبدة ، ويرمون السهام ، ولو انهم نبذوها من اساليب القتال . واحب غاريتهم لعب الجريد ، والجريد معناه القصب ، ويطلق على كل عصا ترمى باليد بحسب القواعد التي اعتمدها الرومانيون للتوازي بالمزاريق . ويستعمل المالك عوضاً عن العصي اغصان النخيل الرطبة . وهي اغصان طوفاً اربع اقدام يزن الواحد منها خمس ليبرات او ستاً . يتسلح الفرسان بهذه « الحراب »

ويخوضون الميدان ، ثم تتطابق بهم الجياد عدواً ، فيرمون الجريد عن بعد . فإذا ما رمى المهاجم الجريد انتهى . فبلحق به من يليه ويرمي الجريد بدوره . ونؤلفي الجياد فوارسها مؤاتة تحسب معها أنها في مثل اغتباطهم . على أن هذه الغبطة شديدة الخطر ، قيمة سواعد ترمي بشدة ، فتأتي ضرباتها جارحة بل قاتلة . والويل كان لمن لا يتقي جريد علي بك !

أن هذه الألعاب التي تبدو لنا وحشية هي ذات علاقة بحالة الأمم السياسية ، وكانت شائعة بيننا لثلاثة قرون خلت . وما كان نلاحظها نتيجة لحادثة هنري الثاني^١ أو لفلسفة العصر ، بفقدار ما كان نتيجة للسلام الداخلي الذي جعلها عبئاً فائدة . وإذا كانت قد بقيت على حافا عند الأتراك والمماليك ، فما ذلك إلا لأن فوضى المجتمع تضطرم إلى التمرس بكل ما له علاقة بالحرب . فلنرَ إذا كانوا قد تقدموا في هذا الحقل بنسبة مراتهم عليه .

النسبة الخامسة

الفن الحربي عند المماليك

إذا تحدث الناس في أوروبا عن فتنه أو حرب ، فمثلوا للحال رجالاً موزعين كنائب وسرايا وكوكبات ، وأزياء عسكرية ملونة ، ووحدات منتظمة خطوطاً أو صفوفات ، وحركات خاصة أو مناورات شاملة ، وبالجملة ، سلسلة عمليات قائمة على قواعد موضوعية بعد امعان وتفكير .

١ هنري الثاني ملك فرنسا (١٥٤٧ - ١٥٥٩) قتل بحربة أصابت إحدى عينيه في أثناء مباراة . - المترجم .

تلك التصورات تصدق عندنا ، فإذا ما شئنا الانتقال بها الى البلاد التي ندرسها كانت مجرد الخطاء وحسب .
ان المماليك لا يعرفون شيئاً من صناعتنا الحربية . فلا الزياء عندهم ، ولا نظام ، ولا وحدات ، ولا انتظام ، ولا ينتشون لأمر . فتجميعهم غوغاء ، وسيرهم فوضى ، واقتناهم براز ، وحريمهم شقاوة ولصوصية . وهي تنشب عادة في القاهرة نفسها . فتنفجر الفتنة في اوقات لا تهررها ، وينطلي البكوات الجياد ، وينطلق صوت النذير ، ويظهر المتقاتلون .

ويستحرق القتال مابفة في شوارع المدينة . وتنتهي المعركة بسقوط بعض القتلى . ثم يوجه المغلوب في طريق المنفى . اما الشعب فلا علافة له بهذا الاعتراك ، اذ ما هم ان يتذابح الطغاة ؟ ولكن لا يجوز لنا ان نتمثله يشاهد القتال بهدوء وسكينة . ان وقوفه هذا الموقف في معبعة الرصاص والسيوف يحيطه بأشد المخاطر . ومن اجل ذلك تراه يفر مسن ساحة القتال حتى يستقر السلام .

ولا يندر ان ترى الرعاع يعملون النهب في مآكن الخفيين ، فلا يصددهم عن ذلك اصحاب الغلبة . ومن الحسن ان نلاحظ ان هذه العبارات التي نقرأها في انباء اوروبا : « المماليك يحسدون الانصار ، البكوات استنفروا الشعب ، الشعب يناصر هذا الحزب او ذاك » لا تعبر تعبيراً صادقاً عن واقع الحال ، لان الشعب في كل هذا عامل لا يعمل .

وقد تنتقل الحرب الى الهواري حيث لا يبدى المتقاتلون من فئون القتال اكنو ما ابدوا منها في شوارع المدينة . فيهاجم

أغواهم أو أجراهم الآخر ويتعقبه . فإذا تعادل الحصان في الشجاعة
تربص كلاهما أو تواعدا إلى مكات ، حتى إذا تلافيا فيه تقارب
الحشدان مفرزات يسير في طلبعتها أشد الجنود مراساً . فبتجاييه
القوم وينداعون للتزاع ، ثم يتهاجمون . ويختار كل رجل منزله .
ويطلقون النار إذا استطاعوا ، ولكن سرعات ما ينتقلون إلى
المفارقة بالسيوف . وهنا تظهر براعة الفارس ومرونة الفرس .
فإذا سقط هذا هناك ذاك .

وفي الغزاة ، ينهض الخدم أسبادهم . فإذا كانوا ينجي عن
الرقيب قتلهم طبعاً بما يحملونه من ذهب . وكثيراً ما ينقرو
مضيق المعركة بعد مقتل رجلين أو ثلاثة .

وقد أدرك المماليك ، في هذه الآونة الأخيرة ، أن مصلحة الحرب
تعود على أسبادهم ، فتركوا لهم شرف المغامرة في أخطارها . فإذا
وبحوا كان ذلك من حسن طالع الجميع ، وإن غلبوا على أمرهم
استسلم المماليك المنتصر ، وهو كثيراً ما يكون قد فاضهم على
شروطه مسبقاً . وهم يعرفون أن منفعتهم في التزام السكون ،
فيطشون إلى السيد الجديد الذي يجري عليهم الأجر ، ويرجعون
في وكابه إلى القاهرة حيث يصبحون عائلة عليه بانتظار مضيق آخر .

النبة السادسة

الانتظام عند المماليك

إن التبرج الذي يسود الملبشيا ناشئ عن أسباب تكوينها .
فذلك القروي الفنى الذي يبيع في منفريلا أو جيورجيا لا نطاً قدماء
أرض مصر حتى تنطور أفكاره وتتفتح عيناه على حياة واسعة المجال .

فكل ما حوله يوقف طمعه وجرائه. وعلى كونه ما يرح وبقدر ما يشمر انه
معد لان يصبح سيداً ، وينتسب لرجال بدعنية حاله القليلة ، ويساوم على
حاجة مولاه اليه ، فيبيعه خدماته واخلاصه ، وبقايتها بالاجر الذي
يتقاضاه او بالذي يترقبه . ولما كان هذا المجتمع لا يحذره الا عامل المال ،
فان اخس ما يتم له الاسياد ارضاء جشع خدمهم استبقاء لتعلقهم بهم .
وهذا هو السبب في اسراف البكوات الآيل الى خراب مصر التي ينهبونها
نيهاً ، وفي غرد المالك على اسبادهم وهم يبتزون اموالهم ، وفي هذه
الدسائس التي ما تزال تهزم عزاً كباراً وصغاراً . اذ لا يكاد يعتق
الرفيق حتى يتطلع الى اعلى المناصب . ترى ، من يستطيع الحد من
مطامعه ؟ ليس في من يتولون القيادة من مواهب التفوق ما يفرض
الاحترام ، فهو لا يرى بينهم الا جنوداً منه رفوا الى السلطة بمراسيم
القوي . فاذا شاء هذا القوي ان يرعاه وصل به الى المقام نفسه . ولا
نعوزه عندئذ البراعة في فن الحكم لان هذا الفن ان هو الا قبض المال
وضرب السيف . ونشأ عن هذه الحال بذخ مستفيض انطلقت معه
أئمة الحاجات جميعاً حتى لم يبق حد لشراهة العطاء . وقد بلغ هذا
البذخ مبلغاً عظيماً حتى اصبحت تكاليف المملوك الواحد لا تنقص عن الفين
وخمسة ليرة . وقد يكلف بعضهم ضعفي هذه القيمة . فكلما حل
رمضان جاء بأثواب جدد من اجواخ فرنسا والسجى الهندية
واقمشة دمشق او الهند . وكثيراً ما تسبدل الجواد والاسرجة ،
والعداوات ، والسبوف ، والراكب المنهبة ، والنجامات المفضضة .
اما القادة فيخصون ، نيزاً فهم عن العمامة ، بالخلي والحجارة
الكريمة ، والجباد العربية (ثمن الواحد يراوح بين مائتين وثلاثمائة
ليرة فرنساوية) ، وشالات الكثير (ثمن الواحد من خمس وعشرين

الى خمسين ايرة فرنساوية) ، وفرواوت عديدة انجسبا لنا يساوي
خمسائة ايرة . وقد نهذت النساء زينة الدنانير المصقفة على الرأس
والصدر ، بحجة انها مفرخة في بساطتها ، واستعاضن عنها بالباس
والزمرد واللؤلؤ ، واطفن الى الشالات والقراء انسجة مديسة
ليون وزخارفها . فمضى كانت هذه حاجات طبقة حاكمة لا تعرف
بحق ملكية او حياة ، تراءت لنا عواقب تلك الحاجات على
الطبقات المكروهة على سد تلك الحاجات وعلى الاخلاق اصحابها .

النبتة السابعة

آداب المالك

ان آداب المالك هي من النسخ بحيث يخشى على من وصفها ،
بمجرد حقيقتها ، ان يتعرض لنهمة المبالغة المقرضة . فقد ولد معظمهم
على المذهب اليوناني ، وهم يطهرون عندما يشترتهم موالبيهم ،
ولكنهم في نظر الاتراك ككفار لا دين لهم ولا ايمان . وانهم
غرباء عن بعضهم لا تربطهم العواطف الطبيعية التي تجمع بين سائر
الناس . ولما كانوا لا اهل لهم ولا اولاد ، فلا انضي فعل شيئاً
في حيلهم ، ولا هم يفعلون شيئاً في سبيل المستقبل . وتراهم جهة
تعودوا الخرافات بحكم التربية ، والشراسة عن طريق القتل ،
والعصيان عن طريق الاضطرابات ، والحياة عن طريق الدسائس ،
واللؤم عن طريق المواربة ، وفساد الاخلاق عن طريق التهلك
على انواعه . وهم بصورة خاصة مستسلمون لهذا النوع الخزي الذي
طالما كان رذيلة اليونان والاشتر : وهي الامثلة الاولى التي يتلقونها
من اسبابهم في السلاح . ولا يجد المرء تفسيراً لهذا المبل مني

عرف ان لم جميعاً نساء . هذا ما لم تقترض انهم يبحثون في
احد الجنسين عن اللذة التي حرموها في الجنس الآخر . والواقع
انه ليس من يملك واحد بلا وصية ، فقد افسدت عدواهم جميع
سكان القاهرة حتى مسيحيي سوريا المقيمين فيها .

الفصل الثاني عشر

حكومة الممالك

هذا هو نوع الناس الذين يتحكمون اليوم في مقدرات مصر ،
ويرثس الحكومة رجال من هذا الطراز . اما طريق الوصول الى
هذه المعالي فبعض ضربات سيف موقعة وايغال في الرياء او الجراءة .
ومن الطبيعي ان هؤلاء الوصوليين لا يتبدل طباعهم بتبدل الحظوظ ،
فهم ينطوون على نفوس عبيد في اثواب ملوك . وكانت السيادة
في نظرهم عبارة عن ذلك الفن الصعب الذي يوجه الميول المختلفة
في امة كثيرة العدد نحو غرض مشترك ، ولكنها وسيلة للاستكثار
من النساء والحلي والحياد والعبيد ، وارضاء الهوى . فالادارة داخلية
كانت او خارجية مستيرة بهذه الذهنية . وهي تقتصر من جهة على
المداورة نجاد بلاط الاستانة نجباً للضرائب ولغضب السلطان ، ومن
جهة اخرى على شراء العديد من العبيد ، ومضاعفة عدد الاصدقاء ،
وتلافي المؤامرات ، وابادة الخصم المستتر بالسهم والحديد . والرؤساء
ابداً في حالة النذير ، يعيشون عيشة الطغاة القدماء في سرفوزه ،
فلا ينام مراد وابراهيم إلا بين القرايبات والسيوف . وليس لهذا
المجتمع اي المام بفكرة الامن والنظام العام ^١ . والغرض الوحيد

^١ عندما كنت في القاهرة خطفت المماليك زوجة رجل يهودي فيما كان يجتازان النيل ،
فكنا اليهودي امره الى مراد بك ، فأجاب بصوته الاجش « دع هؤلاء النساء يعيشن ! »

عند هؤلاء القوم الحصول على المال ، والاستيلاء عليه حيثما يظهر ،
واغتصابه ايأ كان مالكة ، وفرض الضرائب على القرى او على
الجرك الذي يجلبها على تجارة البلاد .

النبتة الاولى

حالة الشعب في مصر

كل ما في مصر يتفق والنظام الذي يسودها . فحيث لا ينعم
الفلاح بشرة انعابه تراه ينصرف الى العمل كارهاً ، فتهن الزراعة .
وحيث لا ضمانا لحرية الاستمتاع فلا صناعة قائمة ، والفنون بدائية .
وحيث لا تجدي المعارف نفعاً فلا ينشط الناس الى اقتباسها وتبقي
المقول على وحشيتها . وهذه هي حالة مصر . فان معظم اراضيها في يد
البكوات والمماليك ورجال الشريعة . اما اصحاب الاملاك الآخرون
فمعدوم جد محدود ، فضلاً عما يصيب املاكهم من التكاليف وما
ينعاقب عليها من الضرائب والمكوس . والارث عندهم لا يشمل
العقارات ، بل هي تؤزل الى الحكومة ، ومنها يشتريها اصحابها .
والفلاحون آلات مأجورة لا يترك لهم للماش إلا ما يقبضهم الموت .
وما يصدونه من اوز وحظفة يذهب الى موائد اسيادهم ، فيما يحتفظون
الذرة ويصنعون منها خبزاً بلا خير ، لا طعام له اذا كان بارداً ،
يخبزونه في ملحة وقدها من روث الجواميس والبقر . فهذا الخبز
مضافاً الى الماء والبصل النيء فونهم طوال العام . ويحسبون سعداء

وفي الماء اوغد المالك الى اليهودي من قال له انهم يرجعون الى امراته اذا دفع لهم مائة
فرت في مقابل « اناسهم » . وهذا ما حصل .

اذا تخلل طعامهم هذا شيء من العسل والجبن واللبن الرائب والتمر .
 اما اللحم والشحم فإدنان يرغبون فيها كثيراً ، ولكن لا اتر لها في
 ما كاهم في غير الاعباد الكبرى ، وفي بيوت اهل السعة منهم .
 وملبسهم كله عبارة عن قميص من الخام الأزرق ورجبة سوداء من
 نسج خشن . وتعال رؤوسهم قلنسوة من الكتان يطوقونها بتدليل
 من الصوف الأحمر . اما الذراعان والساقان والصدر فعارية جميعها .
 واغلبهم لا يلبس السراويل . ومساكنهم اكواخ ترابية يضيق
 الصدر من فيظها ودخانها ، ويحاصرهم فيها الامراض الناشئة عن
 الارساخ والرطوبة والغذاء الرديء . اخف الى هذه الادواء الجسدية
 ما يفتايم مسن خوف الغزو والنهب وزيارات المماليك والانتقامات
 العائلية ومشاكل الحرب الاعلية المستديرة . هذه هي صورة تنطبق على
 كل القرى . وليست صورة المدن اكثر بهجة منها . ففي القاهرة نفسها
 يروع الغريب منظر الخراب والشقاء الشاملين . فتنة جماعات تزدحم
 في الازقة باطمار بالية تنمو عنها الفواظر ، واجسام عارية تشترها
 النفوس . وكثيراً ما تلتقي خيالة يرتدون الثياب الثمينة . بيد ان
 هذا البذخ يجعلك اكثر تألماً لمنظر البؤس والشقاء . فكل ما ترى
 وتسمع يفتكك في بلد العبودية والطغيان . فلا تسمع إلا
 أحاديث الاضطرابات الاعلية ، والفقر الشامل ، وابتزاز المال ،
 والضرب والقتل . فما من حرز يعصم الحياة او الملك . ويسفك دم
 الرجل كما يسفك دم الثور . والقضاء نفسه يريقه دون ما تقيد
 بصيغة او شكل . فضابط الليل في طوافه وضابط النهار في
 نجراله بما كان وبمحكمات وينفذان في لمح بصر . ويراقت كليهما
 جلادون يقطعون الرؤوس عند اول اشارة يتلقونها ، ويلقونها في

أكياس من الجلد مخافة ان تدنس الارض . ولبت الناس يتعرضون للعقاب بسبب جريرة ولو صغيرة ! ولكن ما يحدث غالباً هو ان جشع ذوي السلطان او رشابة عدو يكونان السبب في ان يساق امام البك رجل تذهب المظان الى انه ذو مال . فيفرضون عليه اداء مبلغ منه ، حتى اذا انكر فلبوه على ظهره وجلدوا باطن قدميه مائتين او ثلاثمائة جلدة ، وقد يقتلونه بهذه الطريقة . والويل لمن يشتبه فيه انه من اهل السعة والبسار ، فتنة مائة دسار على أهبة السعي به . ولا يستطيع التخلص من اغتصاب ذوي السلطان إلا اذا ظهر بظهور الفقر والبأساء .

التيمة الثانية

الشفاء والنجاة في السنوات الاخيرة

تفاقمت حالة البؤس في العاصمة المصرية ابان السنوات الثلاث الاخيرة . فقد تضاعفت مع المساوي المعتادة الناشئة عن الطغيان المهادي واضطرابات السنوات السابقة كوارث طبيعية اكثر تهديماً . فقد نفذ الخول الاصفى من الاسنانة في خريف سنة ١٧٨٣ وفنك بالسكان فنكاً ذريعاً في فصل الشتاء حتى لقد خرجت الف وخمسمائة جثة من ابواب القاهرة في يوم واحد . وجاء الصيف فحدث من شدة الوباء ، على ما لوف نتائج في هذه البلاد . وعقبت هذه الكارثة

١ تقوم الجيانات في تركيا خارج المدن على نحو عادات الاقدمين . واذ كان لكل قبر حجر ضخم وبعض المدايك ، يجبل اليك ان هناك مدينة ثانية يصح ان يطلق عليها - كما حصل في الاسكندرية قديماً - اسم نكروبوليس ، اي المدينة السوداء .

كارثة أخرى مثلها هولا . فقد جاء فيضان سنة ١٧٨٣ ناقصاً بحيث بقي جزء كبير من الأراضي بوراً لعدم الري ، ولم يزرع قسم آخر لافتقار الناس الى البذار . وكان النيل لم يبلغ الحدة المؤاتي في سنة ١٧٨٤ فعم القحط . ولم يتقضى شهر تشرين الثاني حتى كانت المجاعة قد حصلت من سكان القاهرة عدداً يكاد يضاهي ما حصده الهواء الاصفر منهم . وافقرت الشوارع من المسؤولين الذين كانوا يملأونها لانهم هلكوا او ترحلوا . ولم تكن الكارثة اقل هولاً في القرى ، فقد هجرها عدد عديد من السكان هرباً من الفناء ، وانتشروا في البلاد المجاورة . وقد شاعدهم في سوريا خلال السنة ١٧٨٥ افواجاً وجماعات . وكانت ازقة صيدا وحيفاً وسائر فلسطين تعج بالمصريين ، وعلامتهم الفارقة لونهم الضارب الى السواد . وقد توغل فريق منهم حتى حلب وديار بكر .

ليس في الامكان حصر مقدار النقص في عدد السكان خلال هاتين السنتين ، لان الاتراك لا سجلات عندهم للمواليد والوفيات والاحصاء . وفي الرأي السائد ان البلاد فقدت سدس ساكنيها . وقد تكررت في هذه الاحوال جميع المشاهد التي نقشر من وصفها الابدان وتطبع في النفس تأثيرات من الهول والكآبة لا تحي . فقد كانت الشوارع والباحات العامة — على نحو ما حصل ابان مجاعة البنغال لسنوات خلت — مزدرة بهياكل منهوكة القوى تستجدي باصواتهم الرائنة شفقة عابري السبل ، ولكن على غير طائل ؛ لان خوف الخطر المشترك حجب القلوب . فكان هؤلاء النعماء يلفظون آخر انفاسهم ، فيما هم مستقلون بظهورهم على منازل البكوات التي يعرفون انها تزخر بالخطئة والاذى . وكثيراً ما كان صراخهم يزعج المماليك فيطاردونهم

باعقاب العصي .

ولم ينقر الجوع من اية وسيلة كانت لسد ما بهم من كلب
الجوع ، فقد انهبوا افقر الاشياء . ولا أنسى قط مشهداً شاهدته
في عودتي من سوريا الى فرنسا في شهر اذار سنة ١٧٨٥ .
لقد رأيت تحت اسوار الاسكندرية القديمة ناعسين جافين على جثة
جل ينازعان الكلاب قطع لحم النع .

وهناك نفوس شديدة المراس بعد ان تؤدي فسطها من
الشفقة تجاه هذه النكبات العظيمة لا تنالك من ان تتولاها ردة
من الغضب على من يكابدونها . فترى ان هذه الشعوب التي لا
تلك الشجاعة لدفعها او تتلقاها دون ان تنأى بالانتقام خليفة بأن
تموت . ويذهب البعض الى القول بمجازفة ان في هذه الوقائع دليلاً
على ان سكان البلاد الحارة مستضعفون طبعاً ومزاجاً ، وان الطبيعة
اعدتهم لان يكونوا ابداء عبيد الاستبداد .

ولكن هل بحث هؤلاء فيما اذا كانت تلك الحوادث وما ياتلها
لم تقع في مناخات يريدون ايلامها شرف الاستئثار بامتياز الحرية ؟
وهل لاحظوا اذا كانت الحوادث العامة التي يستندون اليها لا
ترافقها احوال وملابس نشوء نتائجها ؟ في السياسة كما في الطب
من الاعراض ما يضلك عن حقيقة اسباب الداء . وكثيراً ما
ينعجل الناس في وضع القواعد الكلية بالاستناد الى حوادث فردية ،
فيأتون بهذه المبادئ الشاملة التي ، وان كانت تروق العقل ، الا انها
كثيرة الابهام . ومن النادر ان تكون الوقائع التي يدور عليها
التعليق صحيحة ، لان ملاحظتها هي من الدقة بحيث يحش غالباً ان
نقوم المذاهب على قواعد وهمية .

وفي الحالة التي نحن في صدها ، اذا نقصنا اسباب استكانة المصريين للارهاق ، وجدنا ان هذا الشعب الذي تسوده احوال قاسية اجدر بالشفقة منه بالاحتقار . والسبب في ذلك ان الحالة السياسية في هذه البلاد غيرها في اوروبا . فان آثار الثورات القديمة عندنا ما برحت تتضائل يوماً بعد يوم حتى تقرب الغرباء الغالبون من الوطنيين المغلوبين على امرهم ، وتولدت من امتزاجهم امم متاثلة ، موحدة المصالح . اما في مصر وفي معظم آسيا فقد أصبح الوطنيون مستعبدين - على اثر انقلابات حديثة العهد - لغالبين غرباء ، ونالفت من الفريقين جماعات مختلطة متباينة المصالح . فالدولة هنا قسنان : فئة الشعب المنصر التي يحتل افرادها جميع مناصب السلطة المدنية والعسكرية ، وفئة الشعب المغلوب الموزعة بين الطبقات المزدورة في المجتمع . والفئة الحاكمة التي تحول نفسها حق الاثرة في الملكية بقررة الفتح لا ترى في الفئة المحكومة سوى آلة طليعة للاستمناع . وهذه الفئة الاخيرة ، وقد نعت من كل مصلحة شخصية ، لا تؤدي للفئة الاخرى الا اقل ما يمكنها اداؤه . وانما العبد يحمل على عاتقه بذخ سيده وترفه ، ويبحث عن وسيلة ليتحرر من عبوديته . وهذا العجز احدى الخصائص التي تميز هذا الوضع عن مثله في بلداننا . فان الحكومات في دول اوروبا تستند وسائل الحكم من حميم الامم . وليس من السهل عليها او من الموافق لها ان تنصف في استعمال السلطة .

ومهما يصح من امر فهي لا تبلغ في استعمالها حدود الظلم والطغيان . وسبب ذلك انه فضلاً عن تلك الجماهير التي يسمونها الشعب القوي بكنائنه الضعيف ابدأ باختلافاته ، توجد طبقة اخرى

تتوسط الشعب والحكومة وتوازن بين كليهما ، وهي طبقة الاتزان
الموزعين في المناصب الاجتماعية الذين يعينهم انت تحترم حقوق
الاحتراز والملكية . اما في مصر فليس من حالة وسطى ، ولا
طبقات اشراف وكهنة ونجار وملاكين يتكون منهم جسم وسط
بين الشعب والحكومة . فالتناس هناك اما جنود ورجال شريعة
اي رجال حكم ، او حراث وصناعيون ونجار اي رجال الشعب .
واخص ما يعوز الشعب الوسيلة الاولى لمحاربة الظلم ، وهي توحيد
القوى وتوجيهها عليه . ان ابادة الممالك تقتضي ان يتآزر الفلاحون
جميعاً وينشوروا . وفي هذا الامر استعانة يرجع سببها الى انتظام
طريقة الاستبداد . ففي كل ولاية او قضاء حاكم ، وفي كل قرية
فائضام يسير على حركات الجمهور . وهو وان كان واحداً ضد
الجميع ، فان السلطة التي يملكها تجعله قوياً مهاباً . وقد دل الاختيار
على ان الرجل الذي تدفعه الشجاعة الى سيادة قوم يجد بينهم
اذلاء يهرعون لمساعدته . ان هذا الفائضام يكل الى بعض افراد
الشعب شيئاً من سلطته ، فيصبحون اسناداً له ، ثم يتحاسدون ويتنازعون
على رضاه ، فيستعملهم الواحد بعد الآخر ليأتي عليهم جميعاً . وفي
القرى من التحاسد والبغضاء ما يفسد التفرقة والتخاذل . ولكن
اذا افترضنا ان السكان اتحدوا وتضاموا ، وفي الامر ما فيه من
الصعوبة ، فأي قدرة لازمة من الفلاحين المشاة الخفاف ولو تسلحوا
بالمعصي والبنادق نجاء فرسان شاكي السلاح مدربين على اساليب
القتال ؟ اتي لأياس بوجه خاص من خلاص مصر كلما تأملت
طبيعة أرضها المؤانبة للفروسية . فاذا كانت افضل كتائب المشاة
عندنا ما برحت ترهب مناولة الفرسان في السهل ، فما قولك في

شعب. يجهل فنون القتال البدائية ، ولا يتيسر له ان يقتبسها لانها ثمرة المران ، والمران عديم امر محال . ان الحرية لا تجد مواردها الكبرى إلا في البلاد الجبلية ، حيث تستطيع الشرذمة الصغيرة الاستعاضة عن العدد بالخلق والبراعة . فهي متحدة في بادئ الامر بسبب قلة عددها ، وتكتسب كل يوم قوى جديدة بسبب تعود استعمالها . وترى السيد المتندر قد حدث السلطة من نشاطه فيماطل ، ولا نلت هذه الجماعات من الفلاحين او السرافين التي كان يحتقرها ان تصبح متمسكة بالحرب ، فتنازعه في السهول فنـ القتال وثمره الغلبة .

وبختلف الامر في البلاد المسطحة حيث انفرق التجمعات على اهون سبيل ، بحيث لا يبقى للفلاح - وهو الذي لا يعرف حتى اقامة المتاريس - من مورد الاشفقة سببه والاستمرار في العبودية . واذا كان من مبدا عام يجوز الاخذ به فليس اصدق من القول : ان البلاد السهلية مقام الحول والعبودية ، والجبال وطن النشاط والحرية ^١ . وقد يكون في حالة المصريين الحاضرة ما يكفي شجاعتهم دون ان يصح القول ان بذورهم ليست في طبائعهم او ان المناخ قد حرمهم اياها . وفي الواقع ان هذا الجهد المستمر

١ الجبابرة اكثر الشعوب نشاطاً قديماً وحديثاً . فالاشوريون الذين اكتسحوا البقاع الواقعة بين الهندوس والبحر المتوسط قد انطلقوا من جبال عطوريا التي هي موطن الكلدانيين ايضاً . وقد خرج الفرس من جبال المعاد ، والمقدونيون من جبال رودوب . وثا شاهد على هذه القاعدة اليوم في سكان سويسرا وايتاليا واشتوريا وغيرها وجميع احرار شديدي الشكينة . وكنت احب ان هذه القاعدة شاملة لولا شذوذ العرب والفرع عنها ، مما يدل على ان قة سبباً ادرياً آخر يصح في السهول والجبال معاً .

في النفس ، الذي يسمى الشجاعة ، انما هو صفة نفسية اكثر منها
جسدية . وما كانت حرارة المناخ مرتفعة او منخفضة لتوحي الجرأة
على افتحام المخاطر بمقدار ما تبعت عليها المروءة والثقة بالنفس .
فاذا انعدم هذان العنصران جاز ان تلبث الشجاعة في جمود . على
انه اذا كان ثمة من قوم جديرين بالحماسة فهم اولئك الذين تعرضت
اجسامهم بالألم واكتسبوا صلابة تغلب عليهم ، كالمصريين مثلاً .
فقد اخطأ من وصفهم انهم اناس اوعىهم الحر ، او خشيتهم الخلاعة .
اجل ، قد يكون لسكان المدن واعل الثراء هذا الزائف الذي هو
خاصة من خصائصهم ايأ كان المناخ . بيد ان القرويين المسيئين
بالفلاحين تحقيراً هم ، يعانون من المشقات ما يشبه الدهشة والاستغراب .
فانك تراهم طوال ايام يفترقون من مياه النيل عراة معرضين
لحرارة شمس تقتل امثالنا . ومن كانوا منهم خدماً للماليك قاموا
بشكل حركات الفارس ، فهم يتبعونه في المدينة ، وفي الحقل ، وفي
الحرب ، وفي كل مكان ابدأ مترجلين ، ويقضون اياماً كاملة يتعقبون
الجبول او ينقدمونها ركضاً ، حتى اذا ادركهم التعب تعلقوا
بأذيافها كيلا يتخلفوا . وثمة سمات نفسانية تفضي بنا الى استقرارات
مماثلة لتلك المظاهر الجسدية . فان التعناد الذي يبدیه القرويون في
بعضاتهم وفي ناراتهم ^١ ، وشراستهم في اقتناسهم قريةً واخرى ،
وتمسكهم بشرف المحافظة على السمرة برغم ضربات العصي ^٢ ،

١ اذا قتل رجل آخر حتمت عشيرة القاتل على عشيرة القتيل دية دم من قومه ،
تنقل من ذرية الى ذرية ولا يدركها السبات .

٢ يقال ممن يتكابد هذا العذاب « انه رجل » ، وحبه بذلك تمويضاً .

ورحبتهم في معاقبة نسايم وبناتهم لافل اغلال بالعفاف^١ ،
في كل ذلك دليل على انه اذا كانت العادة قد ايقظت فيهم
التخوة في بعض النواحي ، فان هذه التخوة لا يعوزها إلا التوجيه
حتى تصبح شجاعة رهيبة . ان الفتن التي يشيرونها آونة بعد اخرى ،
وقد عيل صبرهم - في مديرية الشرفية خاصة - تدل على نار تحت
الرماد لا تنتظر للانفجار إلا يداً تعرف كيف تحركها .

النبة الثالثة

حالة الفنون والنفوس

ان الخائل العظيم دون ثورة حسنة الطالع في مصر انما هو
الجهل المدقع الذي تتمرغ فيه الامة . وهذا الجهل ، وقد اعمى
العقول عن اسباب الادواء وعن ادويتها ، قد اعمها كذلك عن
وسائل التداوي .

اني وقد نويت العودة الى هذا الموضوع لا اتبسط الآن في
تفاصيله ، وحسبي بالملاحظة ان هذا الجهل الشائع بين جميع الطبقات
يبتد بمفاعيله الى جميع فروع المعارف الادبية والطبيعية والعلوم
والفنون الجميلة حتى الفنون الميكانيكية التي ما يزال بسطها في دور
نشأته ، واشغال التجارة والحدادة والاسلحة يعسده عن الاحكام
والانقان . اما السلع والبضائع الحديدية والذباب البنادق فتستورد

١ فهم يذبحون عند الف شبهه ، على ما يجري في سوريا ايضاً . وما كنت في الزمة
رأيت قلاً ما يجهول في السوق ايماً ورداً أو مطع يقدم ابته التي ذبحها . ومعظم الناس
ينظرون اليه استعصاً . اما العدالة التركية فلا تتدخل في مثل هذه القضايا .

من الخارج ، وانك بالجهد تجد ساعاتياً في القاهرة ، وهو اوروبي .
والصاغة اكثر عدداً بما هم في حلب وازمير . ولكنهم اعجز من
ان يحكموا تركيب حجر كريم . وفي القاهرة يصنعون البارود ،
وليسكنه خشن . وثمة معامل للسكر يستخرج منها دبسي المادة .
والابيض منه كثير التكاليف . والانسجة الخيرية على شيء من
الاتقان ، ولكنها اقل اتقاناً بمراحل من مثيلاتها في اوروبا واعلى ثمناً .

الفصل الثالث عشر

حالة التجارة

(قد يدعش المرء وسط هذه الفجيرة الشاملة ان تحفظ التجارة بهذا النشاط في القاهرة . على ان من يتخصص مواردنا بامعان يتبين ان ثمة سببين يجعلان من القاهرة مركزاً لتجارة واسعة : الاول استجماع ما تسلكه البلاد في دائرة هذه المدينة . فهي موطن كبار الملاكين كافة كالمالك ورجال الشريعة الذين يحضرون فيها جميع حاصلاتهم دون ان يردوا شيئاً الى البلاد التي تنتجها . والثاني مركزها الذي يجعل منها مجازاً الى جزيرة العرب والهند عن طريق البحر الاحمر ، والى الحبشة عن طريق النيل ، والى اوروبا والسلطنة العثمانية عن طريق البحر المتوسط فتقبل على القاهرة في كل سنة فاعة من الحبشة تنقل الرقيق (يراوح عددهم بين الف عبيد والـف ومائتين) والعاج ومسحوق الذهب وريش النعام والصبوغ وطيور البيضا والفرقة^١ . وتقوم من افاضي مراكش نحو مصكة فافلة اخرى يند عليها حجاج تلك النواحي

١ نسير هذه القافلة بمحاذاة النيل . وقد راقها الانكليزي بروس Brus في السنة ١٧٧٢ عائداً من الحبشة حيث قام برحلة هي اجراً رحلات هذا العصر . فقد لقد القوت منها في عبورها الصحراء وقتل رجالها بقتاتون من الصمغ اياماً عديدة .

حتى شواطئ السفال^١ . فتسير بمحاذاة المتوسط لينضم اليها
 حجاج طرابلس وتونس وغيرهم ، حتى تقاطع على الاسكندرية عبر
 الصحراء بثلاثة آلاف رجل او اربعة ، ثم نهبط القاهرة لتنضم الي
 قافلة مصر ، فنبهان مكة معاً ، وتعودان منها بعد مئة يوم .
 على ان حجاج مراكش الذين تفصلهم عن بلادهم مسافة ستائة
 فرسخ فهم لا يرجعون اليها الا بعد مضي سنة او تزيد . وتحمل
 هذه القوافل معها انسجة الهند والصكوفيات والصمغ والعطور
 واللؤلؤ والبن اليمني بنوع خاص . وهذه البضائع تصل ايضاً الى
 السويس على ظهور السفن الشراعية التي تنطلق من جدة في شهر
 ايار عند مؤاتاة الريح الجنوبية . اما القاهرة فلا تحتفظ بهذه
 البضائع كلها . بيد انها فضلاً عن القسم الذي تستهلكه منها تفيد
 من رسوم المرور ومن نفقات الحجاج . وتأتيها من دمشق حيناً بعد
 آخر فوافل صغيرة تنقل اليها الخراثر والقطنيات والزيت والثاوير
 الخفيفة . ولا يخلو مرفأ دمياط في الربيع من السفن التي تغرق
 فيه مشحونات النبع اللاذقاني الذي يستهلك في مصر على نطاق
 واسع جداً . وتحمل هذه السفن من مصر الارز ، فيما تتوارد سفن
 اخرى دون ما انقطاع على الاسكندرية نقلة اليها من الامتانة
 الانواب والاسلحة والقرآن والمسافرين والادوات المعدنية ، ومن
 مرجيليا وليفورنو والبندقية الكتان والحرير والخضوات والورق
 والحديد والرخااص الخ... وتنقل هذه السلع الى الرشيد بجزراً ، ثم

١ رايت في القاهرة بعض عبيد هذه القافلة القادمين من بلاد « القنولي » الواقعة
 في شمالي السفال ، فالتفتوني انهم شاهدوا جماعة من القرنية في نواحيها .

فوجه على القاهرة عن طريق النيل . وتلك هذه النظرة الشاملة
على انشاع سوق التجارة في القاهرة ، ولكن متى عرفت ان
قسماً كبيراً من البضائع الهندية والين يذهب الى الخارج ، وان
افاقه تسد سلعاً وبضائع من اوروبا وتركيا ، وان معظم استهلاك
البلاد يدور على ادوات البذخ والترف في حين ان اكثر منتوجاتها
من المواد الخام ، تبين لك ان هذه التجارة الواسعة لا تعود على
مصر بالمنافع الكثيرة والرخاء الوفير .

الفصل الرابع عشر

برزخ السويس ومسألة اتصال البحر الأحمر
بالبحر المتوسط

تحدثت عن تجارة القاهرة مع جزيرة العرب والهند عن طريق
السويس . ان هذا الموضوع يشتر قضية كثيراً ما تشغل الناس في
أوروبا وهي : أليس من المستطاع قطع البرزخ الفاصل بين
البحرين الأحمر والمتوسط تمكيناً لعبور السفن إلى الهند في طريق
أقصر من الطريق التي يسلكونها إليها باتجاه رأس الرجاء الصالح ؟
ويذهبون إلى الظن ان هذا العمل ممكن التحقيق بسبب قلة عرض
البرزخ . بيد اني تبينت في سفري إلى السويس من الأسباب ما
جعلني اعتقد العكس .

١ - صحيح ان المسافة التي تفصل بين البحرين قراوح بين
ثانية عشر فرسخاً وتسعة عشر ، وان هذه الأرض خلو من الجبال ،
واذا وقفنا على سطوح السويس واستعنت بالمنظار نكشفت
أمامك سهول منبسطة فاحلة . واذا فليس الفرق في مستوى
البحرين هو الذي يقف حائلاً دون اتصالهما ١ ، ولكن العقبة الكبرى

١ ذهب الاقدمون إلى ان البحر الأحمر أكثر ارتفاعاً من البحر المتوسط . وفي
الواقع اذا لاحظنا ان النيل من قناة قزوم حتى البحر يسير منحرفاً مسافة ثلاثين فرسخاً
فلا تبدو لنا الفكرة كثيرة الغرابة .

هي ان الشاطئ في مجمل القسطنطينية من البحر الاحمر والمتوسط عبارة عن ارض رملية منخفضة تتخللها البحيرات والمستنقعات ، فلا تستطيع السفن الاقتراب منها ، بل تبقى على مسافة بعيدة من الشاطئ . فكيف يمكن ، والحالة هذه ، حفر قناة ثابتة في رمال متحركة ؟ ولا ميناء هناك صالح ، والارض تنقل الى البنابيع . فاذا اهل هذا المكان بالسكان وجب ان يجر اليه الماء من النيل نفسه . ويبدو ان طريقة الاتصال الوحيدة هي التي سلكت مرات عديدة فيما مضى وافضت الى احسن النتائج ، عنتت بها اقامة المواصلات بين البحرين بواسطة النهر . فان الارض نواحي هذا العمل دون ما جيد ، لان جبل المقطم ينخفض فجأة بتأزاة القاهرة ويتخذ شكل ساحة نصف دائرية يتوسط حوضا سهل متعادل المستوى من ضفاف النيل حتى البحر الاحمر . وقد استوعب هذا المكان انبياء الافديمين ففكروا بوصل البحرين بواسطة قناة تنتهي الى النهر . وذكر استرابون ان قناة اولى حفرت في عهد سيزوستريس الذي عاش في ايام حرب طروادة^١ ، وكان عرض هذه القناة مئة ذراع ، على عمق كاف ليرس سفينة كبيرة . وبعد ان اجتاح اليونان البلاد رمم بطليموس القناة المذكورة ، وجدها تراجان في عهد الحكم الروماني . وقد حذا العرب حذو من تقدمهم ، فقد جاء في تاريخ المكين ان القحط اصاب مكة والمدينة في عهد عمر ابن الخطاب فأمر عامل مصر عمرو ان يجر قناة من النيل الى قلزم حتى تمر عبرها مؤن القمع والشعير الى

١ اي في عهد سليمان على ما ارى .

جزيرة العرب . وهذه القناة هي نفسها التي نرى اليوم في القاهرة وننتهي في الحقول الواقعة في الشمال الشرقي من بركة الحاج . اما قلزوم - وكان يسميها الاغارقة كليسا - التي كانت تنتهي اليها القناة ، فقد خربت منذ عصور عديدة . على ان اسمها ومكانها باقيان عند ربوة من الرمل والآجر والحجارة تقع على ثلاثة خطوات شمالي السويس مقابل الجاز الذي يُعبّر عليه الى النبع . وقد شاهدت هذا المكان كما شاهده نيدوهر ، واخبرني العربان كما اخبروه انه يسمى قلزوم . وقد اخطأ دانقيل ، اذن ، حين جعل كليسا في مكان آخر يبعد ثمانية فراسخ نحو الجنوب . واطلته اخطأ ايضاً بقوله ان السويس هو ارسينوبيا القديمة . فقد اجمع اليونانيون والعرب على ان هذه المدينة كانت تقع شمالي كليسا ، فيجب البحث اذن عن معالمها بحسب دلالة استرابون « في آخر الخليج صوب مصر » دون الاحاح في ناحية الغرب حتى اجروء كما فعل سافاري . بل ينبغي حصر البحث في الارض المنخفضة التي تمتد زهاء فرسخين من اول الخليج الحالي ، وهي اقصى مسافة يحتمل ان تكون قد كسبتها الارض على البحر منذ سبعة عشر قرناً . وكانت هذه المقاطعات ، فيما سلف من الدهر ، مزودة بالمدن التي ذهبت بذهاب مياه النيل . فقد خربت الترع التي كانت تسيل فيها هذه المياه لانها سرعان ما ردمت في هذه الارض الحاسفة بفعل الرياح وتعاقب اقدام الخيول البدوية . وتقتصر اليوم التجارة بين القاهرة والسويس على القوافل التي تسير عند وصول السفن وذهابها ، اي في اواخر نيسان او اوائل نوار وفي خلال تموز وآب . والقافلة التي رافقتها في السنة ١٧٨٣ كانت مؤلفة من ثلاثة آلاف رجل ومن

خمسة آلاف رجل أو هم يبلغون ستة آلاف^١، وكانت حولتها من
الاشخاب والاشرعة والحبال المعدة لمراكب السويس، ومن مراكب
يحمل كل واحدة منها أربعة جمال، ومن حديد وفصدير ودرصاص،
وبعض بالات الجوخ وبراميل القرمز، فضلاً عن القمح والشعير
والفول وأنواع العملة التركية والاجنبية.

أما هذه البضائع كلها فقد كانت موجهة على جدة ومكة
وموكا تسديداً لأفان البضائع الواردة من الهند، ومن جزيرة العرب.
وكان يرافق هذه القافلة أيضاً عدد كبير من الحجاج يحملون مؤن
الارض واللحم والخشب وكذلك الماء، لأن السويس أشد بلاد الله
فحطاً، فإذا ما اشرفت عن سطوحها على سهول الشمال والغرب
الرملية، أو على صخور جزيرة العرب الفاربة للبياض شرفاً، أو
على البحر والمقطم جنوباً، لما وقعت عينك على شجرة يستظل بها
المسافر أو نبتة خضراء يرواح اليها. وجل ما تشاهد في السويس
رمال صفراء ومستنقعات خضراوية المياه. ويزيد المشهد كآبة ما
تراه فيها من البيوت المتهدمة. ولا ماء صالح للشرب في تلك
النواحي إلا ماء النبع الواقع على شاطئ جزيرة العرب على بعد
ثلاث ساعات سيراً، ولكنه ماء أجاج لا يطيقه الاوروبي إلا
ممزوجاً بشراب الروم. والبحر هناك غني بالاسماك والاصداف.
ولكن العرب يقتلون الصيد ولا يحسنونه. فلما اقلعت السفن لم

١ بقيت هذه القافلة متجمعة زهاء اربعين يوماً وهي ترحل. السفر من حين الى
آخر متذرة بأسباب مختلفة منها ان ثمة أيام شؤم يتضرعون منها، شأن الأتراك بذلك شأن
الرومان من قبلهم. ثم انطلقت القافلة في ٢٧ غوز فوسلت الى السويس بعد مسيرة تسع
وعشرين ساعة عن طريق الحواطات الواقعة على مسافة فرسخ من جنوبي بحيرة الحجاج.

يبقى في السويس إلا المملوك حاكمها وخمسة عشر رجلاً من بطانته
فضلاً عن الحاشية .

والقلعة هناك عبارة عن خربة بلا تحصين يحسبها العرب معقلاً
بسبب مدافعها الستة ، والمدفعيين اليونانيين المذنبين يشبهان بوجهها
فيما يطلقان النار . والميناء في حالة رديئة يستحيل معها على اصغر
المراكب الدنو من البر الا في حالة المد . ومن هنا تنقل البضائع
خلال الكشبان الى السفن الراسية في الخليج . ويقع هذا الخليج
على مسافة فرسخ من المدينة . ويفصله عنها ساحل منكشف ابان
الجزر . ولا تعصمه وسيلة من وسائل الدفاع بحيث تسهل مهاجمة
الغزاة وعشرين سفينة التي عدتها فيه . وهذه السفن نفسها لا
تستطيع المقاومة لان مدفعية كل منها عبارة عن اربعة بحانبق يعاوها
العدو . وينقص عددها سنة بعد سنة بسبب تعرضها لتأثرات البر
للاضطدام بالصخور ، فينفد منها على الاقل واحدة من تسع .
وحدث في السنة ١٧٨٣ ان احدى هذه السفن ألقت مراسيها في
« الطور » لتختزن الماء ، فداخماً العربان بينا كان يجارونها ينعمون
فوق اليابسة ، وسلبوا منها ألفاً وخمسمائة قفة من البن ، ثم اسلموها
للرياح فومت بها على الشاطئ . ومعمل السويس لا يصلح للتوميم
الا بقدر قليل ، ويقضي بناء المرسى فيه مدة ثلاث سنوات .
والبحر بعمده وجزره يركم الرمال على هذا الساحل ، فلن ينضي
القليل حتى يردم مدخل الميناء ويحدث في السويس ما حدث في
فلزوم وارسينويا . ولو كان في مصر حكومة حالحة لاستفادت من
هذا العارض وشاؤت مدينة ثانية على الخليج نفسه حيث يصبح
بالمستطاع لقامة وصيف يعلو البحر سبع اقدام او غالباً لان المد

في ارتفاعه المعتاد لا يعلو الى اكثر من ثلاث اقدام ونصف
 القدم ، ولقد تم بترميم قناة النيل او بحفرها ثانية وحقت وقرأ
 مقداره خمسمائة الف ليوة تدفعها كل سنة للعرب الموابكين
 للقوافل ، ولحسن قناة الاسكندرية بحيث يصبح بالامكان انزال
 البضائع الى الارض نوا . ولكن مثل هذه العناية لا تعيرها
 الحكومة الحاضرة اي اهتمام . وهي لا تعنى بأمر التجارة الا
 بمقدار ما ترى فيها اداة لاشباع شهيا وشراقتها ، حتى انها لا
 تعرف ان تستثمر مصلحة الاوروبيين الكبرى في اقامة المواصلات
 بينهم وبين الهند . رغباً حاول الانكليز والفرنسيون ان يعقدوا
 معها اتفاقاً لتفتح هذه الطريق ، فكانت ترفض او تعرفل مساعيهم
 في هذا السبيل . ومهما يكن من امر فلا ابل بنجاح ثابت اكيد ،
 لان المعاهدات على اقتراض انها عقدت مع الحكومة فان
 الاضطرابات التي نالها القاهرة رأساً على عقب بين عشية وضحاها
 تبطل مفاعيل اي اتفاق من هذا النوع على ما حصل في هذه
 المعاهدة المعقودة في السنة ١٧٧٥ بين حاكم البنغال ومحمد بك .
 والمالمالك هم من سوء النية والطمع بحيث يجدون الحجة دائماً
 لابتداء التجمار وزيادة المكوس الجمركية . ورسوم البن باهظة جداً
 في هذا الوقت ، لان البالة منه ، وبراوح وزنها بين ثلاثمائة
 وسبعين الى ثلاثمائة وخمس وسبعين ليوة وثمنها خمس واربعون
 ريالاً في موكا ، يدفع عنها في السويس رسم بحر مقداره مائة وسبع
 واربعين ليوة ، يضاف اليها تسع وستون ليوة وهو مبلغ الضريبة
 التي فرضت في السنة ١٧٨٣ . فاذا اضفنا رسم السنة بالمائة الذي
 استوفى عنها في جدة لتبين لنا ان مبلغ الرسوم يكاد يوازي ثمن المشتري .

الفصل الخامس عشر

الجمارك والضرائب

ان ادارة الجمارك في مصر ، شأنها في كل تركيا ، احدى الوظائف الحكومية الرئيسية . ويقوم على امرها رجل يجتمع بين مهمتي المراقب والمترجم العمومي . وتناط به جميع رسوم الدخول والخروج والتعامل . وهو الذي يعين المكلفين جبايتها . وهو الحاكم المستبد بأمر التجارة فيسيرها وفق مشيئته . ولا تجاوز مدة التزامه السنة الواحدة . وقد ضمنه من الحكومة في سنة ١٧٨٣ مبلغ الف كيس ، والكيس خمسمائة قرش . يضاف اليها ما يلحقه من البلص والمطالب الاخرى العارضة ، بمعنى ان مراد بك او ابراهيم بك اذا احتاجا الى مبلغ خمسمائة الف ليرة استقدما اليها المتعهد المذكور فلا يتردد فط في الاداء . على انه يحصل مقابل ذلك على برامة تخوله الحق في احالة البلص على الهبئات التجارية المختلفة ، فيفرض عليها المكوس بالتراضي بينه وبينها . وكثيراً ما تعود عليه هذه الوسيلة بالربيع والغنية . وفي بعض الولايات التركية يكلف هذا المأمور جباية الميري ، وهي ضريبة تلحق الاراضي فعسب . ولكن جبايتها في مصر منوطة بالكتابة الاقباط الذين يمارسون مهامهم بادارة امين سر القائد . وينولى هؤلاء الكتابة سجلات كل قرية فيحصلون المكوس ويدفعونها للخزينة . ويحدث كثيراً ان

يستفيدوا من امة الفلاحين ، فلا يسلطون اليهم ايديا لئلا يفسدوا
من افساط فيضطربونهم الى الاداء مرتين . ولبس مسن النادر ان
يكرههم على بيع ابقارهم وجواميسهم وحتى الحيات التي يفتريها
هؤلاء النعساء . ويصح القول انهم عمال خليون باسيادهم . ان الضريبة
العادية على « القدان » هي ثلاثة وثلاثون قرشاً اي ما يقرب من
ثلاث وثمانين ليرة عن زوج البقر . ولكنها كثيراً ما تبلغ مائتي ليرة
تسعاً . ويقدر مبلغ ما يجني من اموال الميري ، نقداً وقبلاً وشعيراً
وغیره ، بخمسين مليوناً بالعملة الفرنسية ، في حين ان الخبز يباع
« الرطل بفضة » .

ولنعد الى الجمارك . فقد كان يتولى امرها اليهود فيما مضى
وفقاً لعادة قديمة . ولكن علي بك باصم بطناً عظيماً في السنة
١٧٦٩ فرزحوا وتضعفوا ، وآل امر الجمارك الى مسيحي - سوريا
ولا يزال في يدهم . لقد نزع هؤلاء النسيحيون من دمشق الى
القاهرة منذ خمسين سنة . وكانوا في بدء امرهم عبيدين او ثلاثاً ،
ولكن ما جنوه من الربح جذب اليهم اسراً اخرى يبلغ عددها
اليوم خمسمائة . وقد اظهر هؤلاء القوم من القناعة وحسب الاقتصاد
ما جعلهم يملكون زمام التجارة فرعاً بعد آخر حتى تمكنوا من
ضمان الجمارك بعد كارثة اليهود . وقد اصبحت لهم ثروة ومقام
يخشى معها ان يصيروا الى ما صار اليه اليهود . وقد حسب الناس
ان ساعتهم قد دنت واذا ذلت يوم هرب رئيسهم انطون فرعون
الى ليفورنو (١٧٨٤) سعياً وراء الامن والاحتراز ليستمتع بثروة
تبلغ الملايين . ولكن هذه الحادثة لم تذكر ولم تقضى الى
الشرقيون عامة يتكلمون عادات الاوروبيين وبألقون من الهجرة .

النبذة الأولى

تجارة الفرنجة في القاهرة

يلج المسيحيون في اتساع المناجر التجار الأوروبيون ، وهم يعرفون في المشرق باسم الفرنجة . فالبندقيين في القاهرة مؤسسات منذ عهد قديم يستقدمون إليها السروج والانسجة الحريرية والمرائي واصناف الخمرضوات وغيرها . ويصام الانكليز بتصدير الاجواخ والاسلحة والآنية المعدنية التي ما برحت تحتفظ بشهرة التفوق . بيد ان الفرنسيين الذين يبيعون امثال هذه البضائع بأثمان رخيصة قد حازوا الافضلية منذ عشرين سنة وتبدوا منافسيهم . وجاء تهب القافلة السائرة من السويس الى القاهرة في السنة ١٧٦٩^١

١ تجاوبت انباء هذا السب في فرنسا بمناسبة السكرانة التي نزلت باليد دي سان جرمان M. de Saint Germain واحداثت دويماً بعيداً . لقد كانت القافلة مؤلفة من ضباط وسافرون برطانيين وبعض الاسرى الفرنسيين الذين نزلوا في السويس من ظهر سفينين ، عائدتين الى بلادهم عن طريق القاهرة . وبلغ صامع عرب القصور امر هذه القافلة وما يحصل ان تنقل من الثروة غمزوا على سبلها ، وسلبوها فضلاً على مسافة خمسة فراسخ من السويس . فغرد الأوروبيون غريداً وباتوا عراة مثل كف اليد . وشبه الخوف فاقسموا عصبيين . ورجع بعضهم الى السويس ، فباحب سبعة منهم ان بإمكانهم بلوغ القاهرة فتورطوا في الصحراء . ولكن التيب والعطش والجوع وحرارة الشمس ما لبثت ان اهلكتهم الواحد تلو الآخر . وبقي السيد جرمان يغالب الآلام وحده . وناه في هذه الصحراء العارية القافلة ثلاثة نهارات ولبتين ممرضاً لفر الريح الشالهة ليلا (كان ذلك في شهر كانون الثاني) ولقيط الشمس نهاراً . ولم يجد ما يستظل به الا عليقة زج رأسه بين اشواكها . والى به العطش فارغوى بيوة . واخيراً في اليوم الثالث لاحت له مياه بركة الحجاج ، فجمع قواه حتى يصل إليها . وانكته سقط ثلاث مرات عياء . ولو لم

يكيل الانكليز الضربة القاضية . ومنذ ذلك الحين لم يبق في هاتين
المدينتين اثر لاي عامل ينتسب الى هذه الامة . واساس تجارة
الفرنسيين في مصر ، شأنه في سائر المشرق ، الاجوانح الرقيقة
المسماة لوندران باب اول ولوندران باب ثان ، وهي من صنع
مقاطعة لانغدوك Languedoc .

وهم يبيعون منها كل سنة تسعمائة او الف بالة . وتقدر ارباحهم
بخمسة وثلاثين او اربعين من المائة . ولحكي ما يستخرجونه من
البضاعة يلحق بهم خسارة تجعل صافي ربحهم خمسة عشر من المائة .
ويسنوردون الحديد والرخاص والابازير ومائة وعشرين برميلا من
القرمز والانسجة وبعض اصناف الخرزوات وانواع العملة .
ويأخذون مقابل ذلك بن الجزيرة وحموغ افريقيا وانسجة
القنب الغليظة المصنوعة في منوف ويرسلونها الى اميركا ، ثم الجلود

يره احد الجنائين عن بعد انقضى عليه في السطة الثالثة . واسكن هذا الرجل المدين ثلثه
الى بيته حيث توفر على معالجته بكل ادوية مدة ثلاثة ايام . وتراعى الخبر الى بخار
القاهرة فقبل من ثقل السيد جرمان اليها . فوصفها في أسوأ حال . وكانت جسده عبارة
عن جرح واسع وكنته غس جنة . ولم يبق فيه الا نسمة الحياة . بيد ان عطف
السيد شارل ماجالون Charles Magallon الذي كان في منزله وعنايته قد مكثه من
استعادة قواه .

لقد غدت الناس كثيرا في ذلك الوقت عن يدوية العرب ، مع انهم لم يفتكروا بأحد
من رجال القامة . ويجب اليوم لوم الاموربيين على ما ابدوه من قلة الاحترار ، لانهم
تصرفوا تصرف الجنائين . فقد كان يسودهم الشقاق ولم يكن في حوزة احدهم سلاح ناري
صالح ، بل كانت جميع اسلحتهم في اسفل الصناديق . ويبدو من جهة اخرى ان العرب
لم يقوموا بما قاموا به من تقصاء انفسهم ، فان اهل ثقة يؤكدون ان المسألة دبرت في
الاستانة بمعنى شركة الهند الانكليزية التي لم يكن ليرونها ان يتفادها الافراد في تصدير
البضائع الى البنغال . وقد دلت الحوادث اللاحقة على صحة هذا القول .

والزعفران وملح الامونياك والارز . ولكن هذه المواد قليلا ما
تقيم دينهم كله . وتراعى ابدأ في حيرة بما يستعوضون به من ماع ،
على كون منتجات مصر متعددة ومنها القمح والارز والذرة
الصفراء والبيضاء والسهم والقطن والقنب والسنا ونخبها وشعر
وقصب السكر والنطرون وملح الامونياك والعسل والشع .
وقد تلجج الحرير والنبع . ولكن الصناعة والعمل في جهود لانت
الزراع في مصر لا يحصد . ويقدر ما يستورده الفرنسيون في السنة
العادية ثلاثة ملايين ليرة . وقد كان لفرنسا فضل بقي حتى السنة
١٧٧٧ ، ولكن النفقات التي استوجبت وجوده حدث بأولي الشأن
الى نقله الى الاسكندرية . فلم يعترض التجار على نقله ولم يطلبوا
تعويضاً ، ولبنوا في القاهرة على مسؤوليتهم الخاصة . ولم يتبدل
وضعهم فيها وهي ثائل وضعية الهولنديين في نانكازاكي ، أي انهم
محصرون في زقاق واسع ينعاشون ، وفلما كانت لهم صلات
بغيرهم . وهم ينعاشون الخروج ما استطاعوا لئلا يتعرضوا لشتائم
الشعب الذي يكره اسم الفرنجة ، او لاهانات المهابك الذين يكرمونه
على الترجل عن ظهور الخير في الارض . واذ هم في احتباسهم
اعتاد ، ترعد فرائضهم من رياء الطاعون يحصرهم في منازلهم ، او
من فتنة تعرض حبيهم للنهب والسلب ، او من بلبس يفرضه عليهم
الفائد او البكوات . وفي كل ذلك ما فيه من الخطاير .

وقتلهم هموم اخرى مماثلة بسبب متاجرهم . فهم مضطرون
الى البيع دينا ، وفلما سددت ديونهم في آجالها . ولا ضمانا للسفانج
امام القضاء ، فالتقاضي شر من الافلاس . وتجري المعاملات
على اساس الذمة . ولكن هذه الذمة قد نشوت .

بإظهارهم الناس في الدفع سنوات ، وكثيراً ما اجتمعوا عن الزد .
والمسيحيون ، اخص عملائهم ، اكثر خيانة للامانة من الاتراك
انفسهم . ومن البين في السلطة جميعها ان المسيحيين ينحطون عن
المسلمين في الطبائع . وتري من اجل ذلك ان القاهرة اقل اساكلي
الشرق استقراراً واكثرها استقراراً . فقد كانت تقوم فيها منذ
خمس عشرة سنة تسعة محلات فرنسية لم يبق منها في سنة ١٧٨٥
إلا ثلاثة ، ولا يبعد ان يزول جميعاً منها . فالمسيحيون المقيمون في
ليفودنو يتعاملون مع مواطنيهم رأساً ويكبلون هذه المحلات ضربة
فاحشة . اما دوق توسكان الذي يعتبرهم من رعاياه فهو يدعم تجارتهم
بكل سلطانه ويعمل على اتساعها .

الفصل السادس عشر

مدينة القاهرة

القاهرة ، وقد تحدثت عنها كثيراً ، مدينة شيرة يجدر أن أخصها ببعض التبسط زيادة في التعريف . ان عاصمة مصر هذه لا يعرفها اهل البلاد باسم القاهرة الذي اطلقه عليها مؤسسها . فالعرب يسمونها مصر . وهو اسم لا مضاف معروف له ، وقد يكون الاسم القديم الذي عني به الشرفيون مصر السفلى . تقع هذه المدينة على الضفة النيل الشرقية وعلى مسافة ربع فرسخ منه ، مما يجرمها حصنة كبرى لا نعوص عنها القناه الواصلة بينها وبين النهر ، لان الماء لا يسيل فيها الا في ايام الفيضان . انك اذا سمعت بالقاهرة الكبرى تجيل اليك انها عاصمة شبيهة بعواصمنا على الاقل . ولكن اذا لاحظت ان المدن لم نعرف التجميل عندنا الا من مائتي سنة لم يدعشك ان تكون على هذه الحالة من المهجبة في بلاد كل ما فيها يتسم بطابع القرن العاشر . فلبس في القاهرة بذيات فضة عامة كانت او خاصة ، او ساحات منتظمة او شوارع مخططة تظهر فيها روائع الفن البنائي . وفي ضواحيها تلال غبراء من الانقاض المتراكمة يوماً بعد يوم ، تقوم حياها القبور العديدة وافذار الطرقات التي تنفر العين والشم في وقت معاً . والارفة في داخل المدينة ضيقة متعرجة وغير مبطة ، يزدحم فيها الناس والجمال والحير والكلاب فينور فيها غبار مزعج .

وكثيراً ما يرش الافراد الارض امام ابواب منازلهم فيعقب
الغيار الوحل والابخرة السكرية الرائحة . ومنازل القاهرة تتألف
من طبقتين او ثلاث خلافاً لما هي العادة في الشرق ، ويعلمو طبقتها
الاخيرة سطح مبلط او مطلي بالطين ، واكثرها مسن الآجر ،
وبعضها مبني بحجارة جبلة العروق تقطع من جبل المنقش القريب .
وتحمل هذه البيوت مسحة السجون لان لا نوافذ لها على الشوارع ،
اذ الخطر كل الخطر في ان تكون المنازل مضاءة في تلك البلاد
حيث يتخذون الحيلة ليجعلوا مداخل الدور واطلة الاعباب .
وتوزيع الغرف في الداخل ردي . يسد انك ترى في منازل
العظماء بعض الزينة وشيئاً من وسائل الراحة . وغلة ابناء واسعة
تندفق المياه في احواسها الرخامية ، وبلاطها المرفش بالرخام والحرف
الملون مغطى بالنضائد والحصائر التي تعلوها سجادة ثينة يجلس
عليها القوم متربعين . وفي محاذة الجدران ارائك عليها الوسائد
المتنقلة والمعدة لتكس عليها المرافق والظهور . وعلى علو ثافي
اقدام من الارض اطار مسن الصفائح المرصعة بالحرف الصيني
والباباني . والحيطان مرفشة بالآيات القرآنية والنقوش الملونة التي
تعلو ابواب البكوات ايضاً . وليس للنوافذ زجاج او اطر متحركة
بل عوارض مشبكة قد تزيد اسلاف صنعها على اسلاف المراثي
عندنا . ويتخذ الدور الى الدور من الساحات الداخلية حيث تعكس
اشجار الجيز ظلالاً خضراء تروق النظر . وغلة نافذة صوب الشمال
او في اعلى السقف تبعث الهواء الرطب . ولكن وجودها يناقض
مناقضة غريبة وسائل الدفء التي نكثر في المنازل كالحاف الصوف
والفراء . ويؤمن الاغنياء ان في هذه الاحتياطات ما يبعد الامراض ،

ولكن رجل الشعب يتوجه الازرق وحصائره الغليظة أغل تعرضاً
للزكام .

التبذة الاولى

سكان القاهرة والقطر المصري

كثيراً ما يتسامون عن عدد سكان القاهرة . فإذا ما اعتمدنا
على قول متعهد الجارك انطون فرعون الذي ذكره البارون
دي طوت Le Baron de Tott كان عدد سكانها سبعة الف نسمة
بما فيه بولاق ، وهي ضاحيتها ومينائها المنفصلة عن المدينة . بيد ان
تعداد السكان في تركيا امر كئيب لان سجلات المواليد والوفيات او
الزواج لا وجود لها . فالمسلمون ينظرون من الاحياء . اما المسيحيون
فيمكن احصاءهم بالاستناد الى اوراق الخراج . والثابت في الامر ان
دائرة القاهرة ثلاثة فراسخ وفقاً للمخطط الذي رسمه نيبوهر في السنة
١٧٦١ ، وهي تكاد تغطي دائرة باريس ضمن خط الجادات . وتقوم
في هذا الاطار جناحين وخرائب واواض خالية . فإذا كانت باريس
في محيط الجادات لا تحتوي اكثر من سبعة الف نسمة على كون
منازلها من خمس طبقات ، اصبح من الصعب التصديق ان القاهرة ،
ومنازلها ذات طبقتين ، تحتوي اكثر من مائتين وخمسين الف نسمة .
وانه لمن المستحيل ايضاً تقدير عدد سكان القطر المصري بكامله . بيد انه
لما كان عدد مدنه وقراه لا يجاوز الفين وثلاثمائة ^١ على ما هو معروف ،

١ عرف دانتيل المائتين عن قرى مصر ، فالاولى وهي من القرن الماضي تحتوي
الفين وسبعمائة وست وتسعين مدينة وقرية . والثانية وهي من اواسط القرن الحالي تتضمن

وكان لا يمكن ، من طريق المعادلة بين الاماكن بما فيها القاهرة نفسها ، ان يزيد عدد سكان المكان الواحد على الف نسمة ، اصبح من الثابت ان عدد السكان الاجمالي لا يتجاوز ٢٠٣٠٠٠٠٠٠ نسمة . ان الاراضي الصالحة للزروع تبلغ ٢١٠٠ فرسخ مربع بحسب قول دانفيل . ففي كل فرسخ مربع والحالة هذه ١١٤٢ نسمة . وهذه النسبة التي هي اعلى منها في فرنسا نفسها تحمل على الاعتقاد ان مصر ليست من ضالة السكان بقدر ما يتوهمون . ولكن اذا لاحظنا ان الاراضي لا ترواح قط وانها جميعها خصبة ، نرى لذا ان النسبة ضعيفة جداً متى قيست بما كانت عليه وما يمكن ان تكون .

وبين الغرائب التي يدهش بها الاجنبي في مصر هذا العدد العجيب من الكلاب الشبيهة التي تطوف بين الارفة ، ومن الجيدان المختلفة فوق البيوت مرساة اصواتها المزعجة الفاجعة . والمسلمون لا يقتلونها على ما يعرفون من قذارتها ، بل كثيراً ما يشتونها بفضلات الموائد . واكثر طعام الكلاب من الطرقات ، ولكن ذلك لا يحول دون تعرضها للجوع والعطش . والغريب انها لا تصاب ببداء الكلب . وهذا الداء غير معروف في سوريا ايضاً . ولكن اللغة العربية تنطوي على اسمه ، وما كان اصله اعجبياً .

الفين واربعماية وخمس وتسعين ، منها تسعمائة وسبع وخمسين في الصعيد والى واربعماية وتسع واللاثين في الدلتا ، والموجز الذي يسطنه هو من السنة ١٨٨٣ .

الفصل السابع عشر

امراض مصر

النبتة الاولى

العمى

اكثر ما يدهشك في مصر من الامراض العمى وسعة انتشاره .
فكثيراً ما كنت اشاهد في نجواي بين اوقفة القاهرة بين مائة
شخص عشرين عمى وعشرة عمور وعشرين غيرهم من ذوي العيون
الحمراء او المتقيحة او المشوبة بالبقع . ويكاد يكون جميع الناس
متقنعين بالعصائب ، وحي الدليل على انهم مصابون بالرمم او
ناقضون منه . ومنازل الدهشة ايضاً رباطة جأشهم التي يقولون بها
هذا الويل العظيم . يقول المسلم : « هذا ما قد كتب » ، ويقول المسيحي :
الحد لله ، انها مشيئة ، فليكن مباركاً . ان هذا التسليم خير ما يندفع
به المرء بعد حصول الداء . ولكنهم يجاوزون الحد في الرككون
اليه حتى يمتنعوا عن البحث في اسباب الداء ، فيصبح تسليمهم لحد
هذه الاسباب . لقد عالج بعض اطبائنا هذه القضية ، ولكنهم
طرفوها بصورة مبهة لجهلهم ما يلابسها من الاحوال . وسأرسم
عنها صورة عامة توصلنا لحل المعضلة :

١ - ان نزلات العيون ونتائجها ليست خاصة بمصر ، بل تحدث

في سوريا حيث هي اقل انتشاراً ، ومن الجدير بالذكر انها متحصنة في السواحل البحرية .

٢ - ان القاهرة وهي ملائ بالافذار ابدأ اكثر تعرضاً لها من سائر القطر المصري ، وعامة الشعب اكثر من اهل اليسار ، واهل البلاء اكثر من الاجانب . ويندر ان يصاب بها المالك . وفلاحو الدلتا اكثر تعرضاً لها من عرب البادية .

٣ - ليس لهذه النزلات فصل معين ، بل هي تقع في كل الشهور ايا كان عمر المصابين .

اما وقد بسطت هذه المسائل قبلوح لي انه لا يجوز التسليم بأن سبب الداء الرياح الجنوبية . والا وجب ان ينتشر الوباء في شهر نيسان وان يتأثر به البدو كالفلاحين . ولا يمكن التسليم ايضاً بان سببه القبار الدقيق المنتشر في الهواء ، لان الفلاحين هم اكثر تعرضاً له من سكان المدن . وقد تكون عادة النوم على السطوح اكثر ملامسة للحقيقة . ولكن هذا السبب ليس وحيداً ولا مجرداً ، لان هذه العادة مألوفة في النواحي الداخلية النائية عن البحر كوادى بعلبك ، وديار بكر ، وسهول حوران ، وفي الجبال حيث لا تتأثر الابصار بالنوم على السطوح . فاذا كان النوم في افواء الطلاق مؤذياً في القاهرة وسائر بقاع الدلتا ، لزم ان يكون هذا افواء قد اكتسب من مجاورة البحر خاصة ضارة . وهذه الخاصة هي الرطوبة التي اذا امتزجت بالحرارة تصبح ولا شك مبدء العلل . وان ما في افواء من الملوحة ، في الدلتا ، خصوصاً ، يساهم في تغذية الداء بما يجده من التبرج والحسك في العيون كما تبينته بنفسى . وارى في طعام المصريين عاملاً آخر قوياً ، فالجين واللبن الرائب والغسل والبخار الخضراء

والخضر النبتة التي هي ما كلى الشعب فحدث في أسفل البطن تشوشاً
 يتأثر به البصر ، على ما تبينه أهل الممارسة . وللبصلي الذي خصوصاً
 ميزة في تبييج العين تعلمها ممن وهبان سوريا وخبرتها بنفسي .
 والاجسام التي يكون غذاؤها على هذه الطريقة تستقيص اخلاطها
 الفاسدة الساعية للتسرب . واذا كانت العرق العادي يحول هذه
 الاخلاط عن المسالك الباطنية ، فهي تنفذ الى الخارج من المصارف
 التي هي اقل مقاومة لها . ولا شك انها تؤثر الرأس لان المصريين
 يحلقونها كل اسبوع ويفظونها بعمامة كثيرة الحرارة تستعرفها بغزارة .
 فاذا ما كشفت هذه الرأس وتعرضت للبرد ، انقطع عرقها وتحول
 الى الانسان او الى العيون باغتيال انفسها اقل مقاومة . فيضعف
 العضو لدى كل نزلة ، ولا يلبث ان يتلف . وهذا الاستعداد في
 الجسم ينتقل عن طريق النسل ويصبح سبباً آخر للمرض . وهذا
 ما يفسر ان أهل البلاد اكثر تعرضاً له من الغرباء . ومما يدل على
 ان عرق الرأس عامل قوي في تسبب الداء هو ان المصريين القدماء
 الذين كانوا حاسري الرؤوس لم يذكر الاطباء انهم كانوا يصابون
 بالرمم^١ . وهذا هو شأن عرب البادية الذين فلما اعتمدوا في الصخر .
 فهم كذلك خلوا من هذا المرض .

النبتة الثانية

الجدري

ان عدداً كبيراً من حوادث العمى في مصر يرجع سببه الى

^١ على ان التاريخ يذكر انه بعض الفراغة ماتوا عمياناً .

عواقب الجدري . فهذا المرض الكثير الفتك في الارواح هناك لا
يعالج بحسب الطريقة الصالحة اذ يعطى المصاب في الابرار الثلاثة الاولى
دبساً وعسلاً وسكراً . ثم يسمح له في اليوم السابع بالالبان وبالسك
المالح كما لو كان في الصحة التامة . ولا يعاطونه مسهلاً قط ، ويتعاشون
خصوصاً غسل عينيه حتى لو امتلأ بالقيح وانطبقت جفونه وانصرفت .
ولا يقومون بهذا العمل الا بعد مرور اربعين يوماً يكون القيح
خلفاً قد فرج العين كلها وتأكأها . ولا يعني هذا انهم لا يعرفون
التلقيح . ولكنهم فلما توسلوا به . كذلك السوربون وسكان
الافضل ، فهم يعرفونه منذ زمن طويل ، ولكنهم لا يارسونه ^١ .

ان هذه الطريقة السيئة في العلاج من العوامل التي تساعد
على غناء المرض . وما كانت النساخ يفعل فعلها لانه ليس من
الرذالة بالتقدير الذي ينصحون ^٢ . اما التغذية الرديئة فهي سبب
ما ترى من عيائل المشواين الذميمة المنظر ومن مسحة الشقاء
والوهن التي ترتسم على وجوه صبية القاهرة . وما كانت هذه
المخلوقات الصغيرة في اي مكان مثلها في هذه المدينة من حيث
المظهر الخارجي الفاجع . فكانت هؤلاء البؤساء بأعينهم الجوفاء ،
وسجلتهم الشاحبة المنورمة ، وبطونهم المنتفخة ، واطرافهم المزيقة ،
ولونهم الصفراوي يعالون الموت دائماً وابدأ . وتزعم امهاتهم
الجاءلات ان عين الحسود الحبيثة فعلت بهم ما فعلت . وهذه الخرافة

١ وطريقهم في ذلك انهم يدخلون في الجدد خطأ او هم ينتقلون المربى جفافة
البثور .
٢ ولنا شاهد بالماليك الذي يتمتعون بالقوة والنشاط بفضل حسن التغذية وانتظام
العمل .

متأصلة في البلاد التركية . اما السبب الحقيقي لما يعانون فمرده
الى التغذية الرديئة . وترى انهم ، على رغم التعاويذ^١ ، يموتون
افواجاً وجاعات . وما من عاصمة كالقاهرة تمتاز بهذه الميزة
المثيرة في ابتلاع سكانها .

وثمة مرض كثير الانتشار في القاهرة ، وهو الذي نسميه
عامتهم بالمرض المبارك ، ونسبه نحن على غير حق بمرض نابولي .
ونصف سكان القاهرة مصابون به . ويعتقد اكثرهم انه منات من
الخوف او السحر او القذارة ، ومنهم من يوثب في سببه الحقيقي .
ولكن هذا السبب ذو علاقة بأمر ينكتون بشأنه فلا يجراؤن
على المباحة به . وهذا المرض المبارك منعشر اليوم . وقبلما نجتمع معه
الزئبق او عمل فيه مهما كانت طرق المعالجة . والنباتات المعروفة
في مداوانه انفع وان لم تكن اكيدة المفاعيل دائماً . ومن حسن
الطالع ان جرثومته قليلة النشاط بالنظر الى غزارة العرق ، طبيعياً
كان او مقتضياً . ولا نعدم ان ترى شيوخاً يرافهم المرض حتى
الثمانين من عمرهم . بيد ان عواقبه الوخيمة تظهر في التواليد
الموولين . واشد ما يكون خطره على المصابين الذين ينتقلون الى
بلاد باردة . فهو ينمو فيها نمواً سريعاً وبعض شفاؤه بفعل هذا
الانتقال . ويتفاقم امره في سوريا ودمشق والجبال حيث الشتاء .
الفارس . فاذا اعمل انتهى الى اعراضه المعروفة وقد شهدت منها
مستكين .

١ كثيراً ما ترى على وجوه الامتنال والرجال في مصر عوداً معلقاً من القماش
الاحمر او قطع الصاج او الزجاج الملون . هي بحسب زعمهم تحول نظرة الحسد الاولى
وتنقل ضرتها المؤذية .

ويختص مناخ مصر بشوكة جلدية تعاود الجسم مسائية . ففي
اواخر حزيران او اوائل تموز تنتشر في الجسم بنور وثأليل كثيرة
الازعاج . ولاحظ الاطباء ان هذه الآفة تحدث على اثر تجديد الماء
ففسحوا سببها اليه . وحسب الكثيرون ان الماء يعمل فعلة بالاجسام
بسبب كثرة الرواسب الملحية فيه . ولكن ملحوظة هذا الماء غير
ثابتة ، مما يجعلنا نذهب الى سبب آخر ابسط . فقد سبق وقلت ان
مياه النيل تأسس في مجراه عند اواخر شهر نيسان ، فتحدث في
الاجسام المرتوية منها اختلاطاً رديئة . فعندما تصل المياه الجديدة
يحصل في الدم اختار تنفصل بنتيجته تلك الاختلاط وتطرد نحو الاديم
حيث يستعملها العرق ، وهو استنفاض كثير الفائدة .

وفي القاهرة ايضاً داء انتفاخ الحصىين الذي كثيراً ما يقضي
الى قلة عظيمة ^١ . ويلاحظون انه اكثر مما يصيب اليونانيين
والافراط مما جعل الناس يحسبون ان سببه الافراط في تناول
الزيت الذي يتعاطاه اوائل طوال ثلثي السنة . ويظنون ايضاً ان
الاستحمام بالمياه الساخنة احد اسبابه . والافراط في الاستحمام اضرار
اخرى ^٢ . والاحظ بهذه المناسبة ما عرفته بالاختبار من ان العرق

١ القلة والاندرة انتفاخ في الحصى يسمى العامة القرق .

٢ المصريين والأتراك عامة ولح بالحمات الساخنة يصعب تفسيره في هذه البلاد
الحارة ، وارى انه ناشى عن فرض التبريد على الرجال الوضوء بعد انقاع الجلسي .
لما النساء فلن فضلا عن ذلك تواقع اخرى ، منها ان الحمام هو مكان الاجتماع الوحيد
الذي يمكن فيه عرض زينة واكل البهنيخ والفاكهة والحلوى . والاستحمام يوليين
تلك البدانة التي يحسبونها جمالا على ما لاحظ بروسير اليان Prosper Alpin . ولكن
آراء الاجانب في هذا النوع من الاستحمام جد مختلفة ، وكذلك تحسروم به ، فكما ان

المستقطر من اللبن أو الخبز أو النور أو الصبار شديد الاثر في
الحصبة . فاذا تعاطيته ثلاثة ايام او اربعة نورمتا ووجعتاك .
فاذا لم تنقطع عن معاطاة هذه الحفرة تحول الداء الى قبة .

وليس للعرق المستخرج من الزبيب مثل هذه السيئات ، فهو
مزوج بالانيسون دائماً وقوي جداً لانه يستقطر ثلاث مرات على
التوالي . ويتعاطاه نصارى - وروبا واقباط مصر بكثرة ، حتى ان
هؤلاء يحسونه عند العشاء اكواباً ملائ . وكنت احسب ان
في الامر مبالغة حتى شيدته مشاهدة اليقين ، ولكنني ما زلت
استغرب كيف ان هذا الافراط لا يقتل صاحبه فوراً او لا
يحدث فيه على الاقل اعراض السكر الشديد .

ان الربيع في مصر ، وهو بمثابة الصيف في مناخنا ، يؤذن
بحميات خفيفة سريعة العافية ابدأ . وقد لاحظ طبيب فرنسي توافر
على معالجتها ان مداواتها بالكينا ، في حالة خوردها ، قد انقذت مرضى
اشرفوا على الهلاك . فعند ظهور الداء يجب الاقتصاد في المأككل
على التبنات الحضية والامتناع عن اللحم والسمك والبيض بنوع
خاص ، لان لها مفعول السم في مصر . وقد دلت الملاحظات في
هذا البلد وفي سوريا ان الفصاء يجلب الاذى اكثر من المنفعة حتى
في اكثر الحالات موافقة ، لان غذاء الاجسام ، وهو عبارة عن

البعض يرتاحون اليه ، كذلك يرى فيه البعض الآخر ازعاجاً شديداً . واتي من هذه الفئة
الاخيرة . فقد حصل لي من جرارة دوار وارتياف في الركبتين طوال يومين . واعترف ان
في تلك المياه الحارة حقاً وفي ذلك العرق السبب باختلاجات الرتين اكثر منه بالحرارة لانه
مستقر جداً . وتراني لا احسد الاثراك على اعيونهم او عاداتهم او دلائيمهم القرمطين بالملاطفة .
وفي اليوم الثاني كان بعاطي المريش حفنة خلفية لاستفراغ الكينا من جوفه .

طعام ردي، كالفاكهة الخضراء والخضر النضرة والخبز والزيتون،
يكسبها دماً قليلاً واختلاطاً كثيراً، وهي في الأجمال صفراوية كى
يستدل من العيون والحواسيب السوداء، والفون الاسمر والاجسام
الغزيرة، والمرضى الشائع هناك مرض المعدة، اذ يشكو معظم
الناس من حرقة الخلقوم والقيء الحمضي. ويندانون لها بالمغيبات
والطراير.

ويحدث ان تصبح الحيات الجبينة وبائية حتى يحسب الناس انها
الطاعون الذي بقي لي ان نتحدث عنه.

الببنة الثالثة

الطاعون

شاء بعضهم ان يحملنا على الظن ان الطاعون ينشأ في مصر.
بيد ان الواقع يكذب هذا الرأي القائم على الاطمين المبهمة، اذ
يؤكد تجارة المقيسون في الاسكندرية منذ سنوات طويلة ان
الطاعون لا ينسرب قط من داخل البلاد، وبواقفهم المصريون
على ذلك، بل انه يظهر اولاً على ساحل الاسكندرية، فينفذ
منها الى الرشيد، ومن الرشيد الى القاهرة، فالى دمياط، فالى سائر
الدلتا. ويلاحظون ان هذا الوباء ينتشر دائماً على اثر وصول احد
المراكب المتلعة من ازمير او الاستانة، وانه اذا كان شديداً ايان

١ بروسر البان Prosper Alpin طبيب من البندقية كتب في السنة ١٥٩١ ان
نشأ الطاعون ليس في مصر، بل في اليونان وسوريا وبلاد المغرب. وذكر أيضاً ان الحر
يقتل الداء.

فصل الصيف في احدى المدن المذكورة كان خطره اشد على
المدينة الاخرى في فصل الشتاء الذي يلي . ويبدو من الثابت ان
موطنه الحقيقي الاسنانة حيث يتأبد بفضل ما يظهر الاتراك من
اهمال اعمى اذ تباع امتعة الموتى الثوبونين علانية . ثم تأتي سفن
الاسكندرية فنقل الفراء والاثواب الصوفية المبيعة على النحو
المذكور ، ونصرفها في اسواق المدينة حيث توزع جرائم الوباء .
والبيوتانيون الذين يتعاطون هذه التجارة هم في الغالب ضحاياها الاولى .
وعند الوباء شيئاً فشيئاً الى الرشيد حتى ينتهي الى القاهرة متأثراً
في مسيره الطريق الذي تسلكه البضائع يومياً . اما التجار الفرنجة
فلا يكادون يستشعرون وقوع الداء حتى يعتصموا في « خاناتهم »
مع خدمهم ، ويقطعوا كل صلة بالخارج ، فنسلم اليهم اقوانهم عند
باب الحان ، فينسلها البواب بكلايب من حديد ، ويضعها في برميل
ماء معد لها . فاذا ما شاء احد مكائمتهم ، وقفوا منه على مسافة
لحول دون الناس بالثياب او بالنفوس . وهم بهذه الطريقة يتقون
الآفة ما لم يخلوا بقواعد الاحتراس . فقد حدث منذ سنين ان
هراً قفز عن السلوح الى مقر تجارنا ، فنقل الطاعون الى رجلين
منهم ما لبث احدهما ان قضى نحبه .

ويمكنك ان تصور مبلغ الضرر الذي يستولي على هؤلاء القوم
في احتباسهم ، وهو يستمر من ثلاثة شهور الى اربعة ، يقتصر
خلالها على التلوي بلعب الورق والتنزه مساءً على السلوح .
وما يسترعي النظر ان الطاعون ينسلط في الاسنانة صيفاً فيها
يضول او يزول شتاء . وهو بالعكس يسيطر في مصر شتاءً حتى
اذا ما اطلق شهر حزيران ابادته . بيد ان هذه الغرابة الظاهرة

نقوم على قاعدة واحدة . فالشتاء يبئد الطاعون في الاستانة لان
بردها فارس جداً ، والصيف يذكبه لان الحرارة فيها مشوبة
بالرطوبة بسبب جوار البحار والجبال والغابات . وفي مصر يشهد
الشتاء بسبب رطوبته واعتداله ، ويحققه الصيف لانه حار وجاف .
ويعمل فيه عمله في اللحوم التي يمنعها من الفساد . وما كانت الحرارة
مؤذية إلا بقدر ما تخرج بالرطوبة ^١ . ان مصر تتكبد بالطاعون
كل اربع سنوات او خمس . ولكان ما يجده من التلف في
الارواح خليق بان يجعلها قاعاً صفصفاً لولا ما تعاض به من
الغريباء المقيمين عليها جماعات من سائر ولايات السلطنة .

اما في سوريا فالطاعون نادر جداً ، وقد مضت خمس وعشرون
سنة على آخر مرة نقش في انعامها . ويرجع ذلك الى ندرة السفن
المتقلة من الاستانة تواتراً ، فضلاً عن انه لا يقبل بسهولة في هذه
الولاية . فاذا ما نقل من الارخبيل او من دمياط نفسها الى
خلجان اللاذقية او صيدا او عكا ، فهو لا يتأهل فيها . ويقضي له
السكنى يغزو سوريا بأسرها ان تلبسه احوال اعدادية وبمر بطريق
معبية كأن يأتي من القاهرة الى دمشق رأساً .

ان التسليم للقدر مضافاً الى همجية الحكومة فد حال حتى اليوم
دون الاحتراز من هذا الداء الوبيل . على ان الآثارك تأثروا
اخيراً بجدوى الوسائل التي اعتمدها الفرنجة . ويبدو ان السباب
العالي اصبح باذي الاهتمام للقضية ، اذا صح انه اصدر في العمام

^١ لوحظ في القاهرة ان حلة الماء الذين ترشح عليهم المصاهير النادرة باستمرار من
القرب المتقولة فوق ظهورهم لا يساهون قط بالطاعون ، ولكن الامر هنا الغشال لا
رطوبة .

المنقضي ارادة بالنشاء محاجي صعبة في ازميز وكندبا والاسكندرية .
وسبق لحكومة تونس ان قدوعت بهذا التدبير الرشيد منذ سنوات .
على ان فوض الادارة التركية كفيلة بان ينتهي الامل بهذه
المؤسسات الى اخفاق وتضم ما لها من الامة القصى للتجارة
وسلامة دول البحر المتوسط .

١ والدليل على ذلك ان الطاعون انتشر السنة الماضية في تونس انتشاراً لم يسبق له
مثل ، وكانت قد تملكه اليها مر ١ كعب مقيمة من الاسنانة تمكن وكيانها من رشوة الحراس
والدخول خلسة الى البلاد دون التوقف في الكرتينا .

الفصل الثامن عشر

النبهة الاولى

صورة موجزة عن مصر

ما يزال المجال واسعاً لوجوه البحث عن احوال مصر ، ولكنها وجوه غريبة عن الغرض الذي اتوخاه ، او هي تدخل فيها سائره عن سوريا ، فان انبسط فيها والحالة هذه .

اذا ذكر المطالع ما قلته عن طبيعة الارض ومنظرها ، وغفل بلاداً مسطحة مقصعة بالترع ، مغمورة بالمياه ثلاثة اشهر ، موحلة مخضرة ثلاثة اشهر اخرى ، غبراء مشققة الاديم في سائر ايام السنة ، وتصور على هذه الارض قرى خربة من الطين والاجر ، وفلاحين عراة شاحبي اللون ، وجواميس ورجالاً واشجار جثيز وتخييل ، وبحيرات وحقولاً بحروقة وخلاء شاسعاً ، واضاف الى ذلك شمساً ساطعة في زرقة سماء فلما تشوبها السحب ، ورياحاً تتراوح شدة وليناً وهي في الحادين مستمرة المبوب ، امكنه ان يكون فكرة قريبة من طبيعة البلاد ، وقد نسى له ان يتعرف باحوال السكان الشخصية بما ذكرته عن تفرفهم اجناساً وشيعاً وبيئات ، وعن نوع حكومتهم التي لا تعترف للاشخاص بملكية او امان ، وعن السلطة المتناهية الموكول امرها الى طبقة عسكرية متفخخة بالاخلاق خشنة المراس ، ويمكن اخيراً تقدير قوة هذه الحكومة

بأجمال حالتها العسكرية وقبة جيوشها والملاحظة انه ليس في مصر
 او على حدودها اي تحصين او متراس او مدفعية او مهندسون ،
 وان بحريتها عبارة عن غاوية وعشرين مركباً يعلو كل واحد منها
 اربعة مجانيق صدئة ويقودها بحارة لا يعرفون ما البوصلة . فعلى
 القاري ان يستخلص لنفسه رأياً عن بلاد كهنه . فاذا رأى
 انني اصفها له بغير ما وصفها غيري فلا يدهشن من تباين النظرات ،
 فليس ما هو اقل اجماعاً من احكام الرحالين في امر البلاد التي
 عاينوها ، فهم كثيراً ما يناقض بعضهم بعضاً . فهذا يطري ما
 خفذه ذلك . وآخر يصف بالجنة مكاناً يراه غيره جنة عادي . أجل ،
 يأخذ عليهم الناس هذا التناقض ، ولكن نقادهم يشاركونهم فيه
 لانه كائن في طبيعة الاشياء . ومهما يكن من امر فان احكامنا
 لا تستند الى الخصائص الحقيقية في الاشياء بقدر ما هي تقوم
 على تأثراتنا بها او على التأثيرات التي نكون فيها عندما نرى هذه
 الاشياء . وبذلك الاختبار اليومي على تداخل الافكار الغربية في
 تلك الاحكام مما يجعل ان البلد الواحد الذي يبدو لنا جبلاً في
 وقت من الاوقات يوحى لنا بالكراهية في وقت آخر . هذا
 فضلاً عن انه يصعب على المرء ان يتخلص من الوهم الناشئ
 عن عادته الاولى . فساكن الجبال يكره الساحل ، وساكن
 الساحل يحتقر الجبال .

يريد الاسباني سماء محرقة ، فيها يبغي الداعاري طقساً غائماً .
 نحن نحب خضرة الغابات ، والاسوجي يؤثر عليها بياض الثلوج .

وقد نقل احد سكان لا بوليا من كوخه المدخن الى غياض شاتنبي
فحات من القبط والكآبة . فلكل ذوقه الذي يحكم بمقتضاه . اني
افهم ان تكون مصر في عين المصري اجمل بلاد العالم ، وان لم
يكن قد عرف غيرها . ولكنني اذا سمح لي بابداء الراي كشاهد
عياش ، اعترف بالتي غير بحاربه في مسا يري . انني مقر بسخاء
خصبها وتنوع حاصلاتها وافضلية موقعها للتجارة ، ومسلّم بأنها غير
معرضة لتقلبات الهواء التي تهلك محاصيلنا ، وبان الاعصارات لا تجتاحها
كما تجتاح اميوكا ، وبان الزلازل التي اكتسحت البرتغال وايطاليا
في ايامنا هذه نادرة الحدوث فيها على ككونها لم تكن خلواً من
وبلائها . حتى اني اسم بان الحر الذي يرهق الاوروبيين لا يتصور
منه سكانها ، ولكن ما قولك في هذه الرياح الجنوبية القسالة ،
وبهذه الريح الشمالية التي تولد الصداع الشديد ، وبهذا العدد العديد
من العقارب والبعوض ، وخصوصاً الذباب الذي لا نستطيع ان
نتناول طعاماً إلا اوشكت ان تبتلع منه . وما من بلد كمصر
في عدم تبدل المنظر ، فتمه سهل غار مترامي الاطراف ، وآفاق
مسطحة متساوية ، واشجار نخيل تقوم على ساق هزيلة ، واكواخ
من الطين على الطرق ، فلا تقع عينك قط على سناء تلك المناظر
التي تسترق الافكار والابصار بتنوع الاشياء والمشاهد والتأثرات .
وما من بلد اقل مدعاة للافتتان وانس عن ريشة الرسامين والشعراء .
فلا ترى فيه شيئاً مما يجعل السحر والغنى في انساويهم . ومن
الجدير بالنظر انه لا العرب ولا الافدمون جاؤوا على ذكر شعراء

١ حدث بها زلزال شديد سنة ١١١٢ .

مصريين . وفي واقع الحال بأي شيء . يعني المصري عدلي قيسارة
غيره ونوبوكرينوس ؟ فليس عنده الجداول الصافية ولا الخاتل
الريانة ولا المغاور المنعزلة . ولا يعرف الاودية ولا السفوح ولا
الصخور المدلاة . ولا يجد نوميسون هناك صفيح الرياح في الغابات
ولا دحرجة الرعود في الجبال ولا سكون الجلال في الاحراش
القديمة ، ولا دوعة العاصفة او ما يعقبها مسن عدو مهيب ، بل
قمة دائرية ازلية تتعاقب فيها ابداً مشاهد المواشي السينة ، والحقول
الخصبة ، والنهر المعتكر ، وبحر المياه العذبة ، والفري المائنة كالجزر .
فاذا ما انطلق الفكر الى الافاق التي تشاء الابصار جزع ألا
يجد غير البواري الموحشة التي يئأس فيها المسافر النائه الموهون نعباً
وظلماً امام الرحائب التي تفصله عن العالم ، فيستصرخ الارض والسماء
على غير طائل ، وتضيع صبحاته في سهل الجرد لا يرد لها البه اصدية
ولا ترجيعاً . فهو ، وقد عري من كل شيء واحدقت به وحدة
الكون ، يقضي كدماً ويأساً امام طبيعة كثيفة دون ان يتأسي
بدمعة تلذف على مضايه .

ان بحاوره النقيضين في مصر لما يزيد ولا تنك في محاسن
تربتها . فعراء البادية يقابله غزالة النبل ، ومشاهد الحرمان تزيد
في عذوبة الاستمتاع ، هذا الاستمتاع الذي كانت موارده كثيرة
فيما سلف من الدهر ، وكان المستطاع ان يعود الى سابق عهده لو
كانت الحكومة حيالفة . ولكن ثروة الطبيعة اليوم لا تنال منها
ولا ثمر . وعيناً يطري الناس حداثق الرشيد والقاهرة ، فالبننة فن
خليفة بالشعوب المتحضرة ، وبجمل الاقواك لانهم لا يجهون بأمر
الحقول والزراعة . وابست البساتين في جهل ارجاء السلطنة إلا

غياضاً بركة القيت فيها الاشجار دون اى عناية حتى انها لا تستحق
ان يقال عنها اشجار فوضى . اما اشجار اليسون والارج (الكباد)
التي تحيطها بكل ضروب العناية والاتقان فهي في مصر شجرات
عادية تظلل الاكواخ وتنطبع في النفس صور الهمال والبؤس
والشفاء ، يستلقي التركي في ظلالها مسترخياً مدخناً غليونه دون
ان يحيد نفسه بعناء التفكير . لا شك ان للجبل والحافة لذاتها ،
شأنها بذلك شأن العقل والمعرفة ، ولكنني اعترف انني لا استطيع
ان احسد العبيد على راحتهم ، ولا ان اُسِي خمول هذه الآلات
الحركة نعباً ، حتى اني ما كنت لافهم مصدر حماس الرحالين لمصر
لو لم يدلني الاختبار على استمرار هذا الحماس الخفية .

الزينة الثانية

مآلات الرحالين

لاحظ الناس منذ زمن بعيد ان في الرحالين ميلاً الى تزويق
مبادئ اسفارهم . وادرك اهل الحلق ما في رواياتهم من غلو
ومبالغة ، فأوردوا مثلاً حذروا به من الركون الى كل ما يزعمون .
ولكن المبالغة ما برحت قائمة لانها تمت الى اسباب تتجدد ابداً ،
وكل منا يحمل بذورها ، حتى ان اللوم كثيراً ما يجب ان يوجه
الى من صدر عنه . فلنتفحص رجالة مقبلاً من بلاد بعيدة على مجتمع
تسوده البطالة والفضول ، نرا ان جودة اخباره تلفت النظر اليه

١ Multum mentitur qui multum vidit من يصدق كثيراً
يكتذب كثيراً .

وتجمله مستطفاً ، فيحببه الناس لانه يفكرهم ولان مزاجه ليست بما
يخجل او يفتو . فلا يعلم هو نفسه ان يشعر انه لا يتغير الاهتمام إلا
بقدر ما يولد في النفوس تأثيرات جديدة . ويجدو به حرصه على
الاستزادة من هذا الاهتمام ان يضيف الى تصاوره كثافة تلون .
فيصور الاشياء اكبر مما هي ليحملها اكثر روعة وفعالية . ويشجعه
ما يصيبه من نجاح حتى يدخل الخس اليه هو نفسه ، ولا تلبث ان
تقوم بين سامعيه وبينه مناظرة يكيل لهم فيها من اسباب الدهشة
ما يكافئونه عنه بمظاهر الاعجاب . وهذا العجب الذي رآه في
سفره يتممكس فيه أولاً ، ثم يتدرج الى مستعجب ، فيروونه عنه
بدورهم . والازدعاء الذي يترج في كل شيء يصبح احد اسباب
هذا الميل الناري في كل منا الى تصديق الغرائب او روايتها على
الناس . والفكاهة تهما اكثر من الاقتباس . وهذا ما يجعل القاصين
في المرتبة الممتازة من تقدير الناس وفي طبقة الكتاب .

وللماسة الرحالين سبب آخر ، فالحيلة ، وقد ابتعدت عن الاشياء
التي استمتع بها ، فتلهب من الحرمان ، لان البعد يذكى الرغائب ،
وشبع النفس بما حولها يجذبها الى ما ليس في مناورها ، حتى ان
الانسان يتأسف على بلد طامنا غنى لو خرج منه . والرحالون الذين
يمرون في مصر مروراً ليسوا من هذه الفئة ، بعكس الذين لبثوا فيها
زمناً . ويعرف تجارفاً ذلك ، اذ لاحظوا ان رططاً ممن سثموا
الاقامة في مصر لم يرجعوا الى فرنسا حتى امحى كل شيء من حافظتهم ،
فانصبت تذكاراتهم عنها باهيج الالوان . ولم تقص سننان على رحيلهم عنها
حتى لم يبق بالامكان النصور انهم اقاموا فيها يوماً من الايام .
لقد كتب لي احد المقيمين في القاهرة : « ما السبب في انك ما

يوحنا نفكر بنا ، وكيف حفظت الصورة الحقيقية عن مقام
الشفاء هذا ، في حين نشعر بان الذين يعودون اليه قد نسوها الى
درجة ندهشنا ؟

اعترف بان تأثير الاسباب الشاملة الشديدة المتفاعيل التي ذكرتها
كان من شأنه ان يفعل في نفسي لو لم اذركه واتحاشاه بحرصي على
الاحتفاظ بتأثيراتي الاولى والمحافظة على الحقيقة . وقد آن لي ان انقل
بالبحث الى مواضع اجدر بالاهتمام ، ولكن القارىء لا يغفر لي ان
اغادر مصر دون ان احذثه عن الخرائب والاعرام . وسأقول فيها
كلمتين .

الفصل التاسع عشر

الخرائب والاعرام

لقد سبق لي وبينت كيف ان صعوبة الاسفار في مصر ، وقد
تزايدت في هذه السنوات الاخيرة ، تحول دون البحث عن العاديات ،
فعند انعدام الوسائل والاحوال المؤاتية يضطر الباحث الى الاقتناع
بما رأى الآخرون او نشرهوا . ولست اواني اذن بحاجة الى تكرار
ما ذكره على التوالي بول لوكا ومايه وسيكار وبوكوك وغريفس
ونوردن ونيبوهر وسافاري ، Paul Lucas, Maillet, Siccard,
Pocok, Greaves, Norden, Niebuhr et Savary.

بل سأقتصر على بعض النظرات الشاملة .

ان اهرام الجيزة مثل ساطع على ما الملت اليه من صعوبة
الملاحظة . فهي وان تكن قائمة على مسافة اربعة فراسخ من
القاهرة ، ويرونها عدد عديد من الرحالين ، إلا انهم لم يتفقوا قط على
حقيقة مقاييسها . فقد فبس علوها مرات بالطرق الهندسية ، ولكن
كل عملية كانت تقضي الى نتيجة مختلفة^١ . ويقتضي حل المسألة
قياساً رسمياً يقوم به اناس من ذوي المعرفة . وربما يتم هذا الامر

١ يجب ان يضاف الى قائمة القوارق التي ذكرها سافاري قياس حديث
يكون بوجه لكون وجه من وجوه الهرم الكبير ستاة قدم عسلى علو عمودي يبلغ
ربمائة وثلاثين قدماً .

يجب ان نقول بخطأ جميع القياسات التي تجعل ارتفاع الهرم الكبير
مساوياً لقاعدته ، لان مثلها يتن الانبطاح . ويبدو لي ان معرفة
هذه القاعدة من الامة بكان ، لاني اعتقد انها ذات علاقة باحد
القياسات المربعة عند المصريين . فاذا كان في تقطيع الحجارة
قياسات معينة متتالية ، جاز لنا ان نستدل على مقاييسهم الاخرى .
كثيراً ما يشكو الناس انهم لا يفهمون اوصاف باطن الهرم .
وفي واقع الحال انه من الصعب ان يشين المرء ذلك في الرسم ما
لم يكن خبيراً بعلم المخططات . والسبيل الافضل الى مثل صورته
هو اصطلاح هرم من الطين بمقاييس مصغرة يكون القيراط فيها
مثلاً بمثابة خطوة . فتتجسم امامنا كتلة تكون قاعدتها ثنائي اقدم
واربعة فترابط ، وغلوها ثنائي اقدم ونصف القدم . فاذا قطعناها
شقتين من الاعلى الى الاسفل امكن ان نرسم فيها القناة الاولى
المنحدرة بانحراف ، والنفق الصاعد على النحو ذاته المنتهي الى غرفة
القبور . ان باستطاعة « نوردن » ان يتبسط اكثر في هذه التفاصيل .
ولكن هذا العمل يحتاج الى اهل فن متمرسين .

ان سلسلة الصخور التي تقوم عليها الاهرام لا ترتفع عن
مستوى السهل اكثر من اربعين قدماً او خمسين . وحجرتها كلسي
ضارب الى البياض . وحجر الاهرام من نوع شبيه به . وقد
حسب الناس في مستهل هذا القرن ، بالاستناد الى ما ذكره
هيرودوتس ، ان موادها نقلت من الخارج . بيد ان الرحالين وقد
لاحظوا المشابهة التي ألمعت اليها ، رأوا من الطبيعي ان تكون
الاهرام قد بنيت من الحجر نفسه ، فاصبحت رواية هيرودوتس
عن نقل الحجارة ضرباً من الخرافة . ويظن ان شكل الصخور

انسطح دليل على ان معظم حجارة الاهرام قد استخرج منها ، في حين ان باقياها قد استخرج من مناجم مستقرة . على انه اذا كان الرأي القديم بعيداً عن التصديق ، فما كان الرأي الحديث قائماً على غير الافتراض . واذن ، فلا يصح اسناد الحكم في هذا المجال الى القول ، انه لا يصدق ان تكون الحجارة قد نقلت من مقالع بعيدة ، وانه من الخافه ان يكونوا قد نكبوا هذه النفقات الباهظة الخ . . . ففي المسائل المتعلقة بآراء الاقدمين وحكوماتهم تضعب المقايضة بين الاحتمالات . ومنها بدا الحادث الذي نحن بصدده بعيداً عن المعقول فانه اذا لاحظنا ان المؤرخ الذي ارده قد استقى معلوماته من الوثائق الاصلية ، وانه شديد الدقة في جميع الحوادث التي اردها وامكننا التحقق من صحتها ، وان الصخور اللبينة لا ترتفع في اي من الامكنة الارتفاع الذي يفترضونه ، واذا تذكرنا المقالع العظيمة الممتدة من سوادي الى منفوط على مسافة خمسة وعشرين فرسخاً ، واذا لاحظنا ان حجارها وهي من النوع نفسه لم نستعمل لأي شيء آخر ، حملنا كل ذلك على التوقف عن البت في الامر ريثما يظهر فيه ما يحلو البقين .

كذلك سئم بعض الكتاب من الرأي القائل ان الاهرام كانت قبوراً . وهم يرون انها كانت هياكل او مراصد ، لانه من الغرابة في نظرهم ان تبذل الامة الرشيدة مثل هذا الجهد لاشادة مدفن رئيسها ، او ان يكون الملك قد ارمق امته بالصخرة ليحبس رفاتاً من خمس اقدام في جبل من حجارة . بيد اني اكرر القول انهم يخطئون باحكامهم على الاقدمين اذا ما استندوها الى آرائنا وعاداتنا . فقد تبدو الدوافع التي حملتهم على العمل مستغربة

في نظرنا وفي نظر العقل نفسه ، ولكن ذلك لا يخفف من قوتها
ومن فعاليتها . وتناسب اليهم التناقض اذ يفترض فيهم حكمة تنطبق
على مبادئنا . ثم اننا نفرط في تعليل امورهم بحسب افكارنا نحن
لا بحسب افكارهم . وانني ارى بالاعتقاد على هذه ونلك ان
الاهرام لم تكن يوماً من الايام مراحد فلكية^١ ، لان جبل المقطم
اكثر منها ارتفاعاً ، فضلاً عن انه يحجبها . والمرصد المرتفع لا فائدة
منه في مصر ، لان الارض كثيرة التسطبع والابخرة تحجب النجوم
عدة درجات فوق الافق ، ولان الصعود على معظم الاهرام امر
متعذر مستحيل ، واخيراً لانعدام الفائدة من جمع احد عشر مرصداً
ومتقارباً تقارب الاهرام الاحد عشر التي يطل عليها الواشي من
الجيزة . ويصح القول اذن ان افلاطون الذي ذهب هذا المذهب لم
يعن إلا حالات عارضة ، او ان له في هذا المجال وزن الخطيب
اليلبيغ ليس إلا . واذا ما وازن المرء بين شهادات الاقدمين
والاحوال المكانية ، ونذبه الى وجود ثلاثين او اربعين أثراً فاقه
على مقربة من الاهرام بشكل هرمي ، وعرف ان هذا المكان
المجذب البعيد عن مواطن الخطب تنوافر فيه الشروط اللازمة
عند المصريين للمدفن ، وان جبانة منفيس كانت تقع في سهل
الموميات بالقرب من هذا المكان ، فيقن ان الاهرام ان هي إلا
مقابر . ومنى عرف ان الناس في منفيس كانوا الى ما قبل عهد

١ يسمون هذا الرعم الى كون الاهرام مصوبة الى خوافق السماء الاربعة .
على ان الاقدمين كثيراً ما شاذوا الرموس على النواقد الذي يافق مع ما كانوا
يروونه من علاقة بين فكرة البحث وعلم الفلك .

موسى يعتقدون برجوع الارواح الى اجسامها بعد انقضاء سنة
آلاف سنة ، سبل عليه ان يصدق ان الطغاة الذين سادوا هذا
الشعب الموسوس قد صرفوا تلك العناية لجعل رفائهم في مقبر حصين
يمنع الجنبات . وهذا هو السبب الذي جعلهم يحرصون على
تخطيط الاجساد والحفاظ على اشكالها بواسطة الاطباء والعصائب
والاضرحة . والناووس الذي تراه في الهرم الكبير يدل على ان
غرفة الموتى الذي هو فيها ما صلحت يوماً إلا لا يواء ميتاً .
وشاء البعض ان يكون في النفق العامودي الذي ينزل الى ما
تحت الهرم سر من الاسرار ، وقد نسي ان من عادة الاقدمين
جميعهم ان يجمعوا الى داخل اللحد مسالك فكنتهم - في الابام
التي تعبها الديانة - من الاحتفالات امام الموتى بارافة السوائل
وتقدمة الطعام وغير ذلك . فيجدر بنا والحالة هذه ان نرجح
الرأي القديم القائل بان الاهرام مدافن اموات . وثبت جميع
الاحوال ان الاهرام قد اعدت هذا الغرض . وثبت ذلك ايضاً
اصل الكلمة التي حلتها عن طريق الاشتقاق العلمي ، فجاه مفادها
بالحرف الواحد : غرفة الميت .

لم يكن الهرم الكبير الوحيد الذي فتحه يد الناس . فثمة هرم آخر
في صقارة ينطوي في داخله على التقاسيم نفسها . وقد حاول احد
البكوات منذ بضع سنوات ان يفتح هرمًا ثالثاً في الجزيرة
ليستزع منه كنزاً موهوماً . فعالجه في الناحية التي فتح منها الهرم
الكبير وعلى الارتفاع نفسه . وبعد ان هدم اربعةائة حجر على غير

١ قياسها ثلاث عشرة قدماً طولاً ، واحدى عشرة قدماً عرضاً ، ومثل ذلك علواً .

طائل اقلع عن فكره الجشعة ، ولكنه تكبد مشقات وثقلات جمة .
ليس من يعرف العهد الذي بني فيه معظم الاهرام . ولكن تاريخ
بناء الهرم الكبير متفق عليه ولا نزاع في صده .

بقول هيرودوتس انه شيد في عهد شيوس^١ وهو الثاني بعد
الملك بروثيا الذي عاصر حرب طروادة . ويستدل مسن ذلك ان
الهرم بني بعد انقضاء ١٤٠ او ١٦٠ سنة على بناء هيكل سليمان اي
سنة ٨٦٠ قبل المسيح .

ان ايدي الزمن والبشر التي تداولت على تخريب الآثار القديمة
لم تستطع حتى الآن ان تنال من الاهرام مثلاً . فان رسوم
بنيانها وضخامة هيكلها قد وقبها الخدنان ، ومهما كفيلاً بان
يتخطيا بها ابد الدهور . وقد تحدث الرحالون عنها بجملة لا مبالغة
فيها ولا مغالاة . ان هذه الجبال المصطنعة تبدو للناظر على مسافة
عشرة فراسخ ، ويلوح لك انها تبعد عنك كلما اقتربت منها .
وترى ، اذ انت على مسافة فرسخ منها ، إليها تشارفك حتى يحسبك
اليك انك أصبحت عند اقدامها . ثم تصل إليها . وهنا لا ارى اي
وصف يفي بمختلف المشاعر التي تتولاك ، ففي ارتفاع ذراها وسرعة
منحدرها واتساع دائرتها وفخامة قاعدتها ، وفي صورة المصور
السائلة التي تذكرها ، وفي التأمل بالمشقات التي اقتضاها بنيانها ،
وبذلك الصخور الهائلة التي هي صنع الرجل الصغير الحقير الزاحف
عند اقدامها ، ما يملك القلب والعقل دعة^٢ ورجبة^٣ وانضاعاً^٤
واعجاباً واجلالاً . ولكن يجب الاقرار ان اندفاع النفس هذا

١ يقول ان هذا الملك حكم خمسين سنة صرف منها عشرين سنة في بناء الهرم ،
وقد سخر ثلث سكان مصر لتقطيع الحجارة ونقلها وبنائها .

بعقبه شعور آخر . فالتك بعد ان نستعظم قدرة الانسان لا ثابت
ان نتأمل في وجه السمكة الماء ولتلق نظرة أمد على حاله .
ويؤثرك ان تكون امة برمتها تحمل المشاق عشرين سنة لاشادة
ضريح لا طائل تحته . وشيوك المظالم والمقارم التي تنبت عمن
تسخير الناس لثقل هذه المقادير من النواد ومعالجتها تقطيعاً
وتنضيداً . ونسخط على عديان الطغاة الذين امروا بتلك الصنائع
البربرية . وهذا الشعور يعاودك مراراً فيها الت نظوف بين
عادات مصر . فهذه الاناوية وهذه الهياكل وهذه الاعرام العظيمة
الضخامة لا تدل على عبقرية شعب غني محب للفنون بقدر ما هي
تدل على عبودية امة تكاد ما تكلم من هوى ابيادها . واننا
نغفر عندئذ للجشع الذي ينتهك قبورهم ويحجب آمالهم ، ويضعف
اشفاقنا على تلك الاخرية . وفيما يتألم وجل الفن الذي يرى ان اعمدة
القصور تحز فيها المناسير لتصبح رحن للعطاحن ، لا يزال الفيلسوف
— وقد زال التأثر الذي يتولاه لزوال كل شيء جميل — ان يبتسم
لعدل الاقدار الخفي الذي يعيد الى الشعب ما تكلف من اجله
المشقات الكبار ، فيخفض كهرياء هذا البدع النافيل ليسمعه في
احقر حاجاته .

ان مصلحة الشعب هي التي نلينا ولاشك — اكثر مما نلينا
مصلحة الآثار — التي بأن يتولى زمام مصر غير حكامها اليوم .
ولكننا ولئن اقتصرنا على ناجة الآثار فحسب ، فالانقلاب أمر لازم
الحدوث . فلو كانت تلك مصر امة تقدر الفنون الجميلة لتكشفت
جاهلية هذه البلاد عن موارد غزيرة يرضى بها اي بلد آخر . وقد
يساعد الحظ ايضاً على اكتشاف الكتب على ما حدث في دمياط

منذ ثلاث سنوات إذ عثر الباحثون في الأرض على مشة مؤلف
مكتوبة بلغة غير معروفة أحرق جميعها للحال بناء على قرار
شيخ القاهرة . لم يبق في الدنيا اليوم أثره نستحق النظر لأن
السكان قد هدموا كل شيء ، إما بسبب الحاجة أو بداعي
الوسواس . ولكنها ما تزال سليمة في الصعيد في محاذة البادية
حيث يقل تردد الناس وسكانهم . ومن المؤمل أن تكون كثيرة
في الواحات . هذه الجزر التي تفصلها عن المعمور بحار من الرمال
لم ينقطع إليها أي مسافر فيما وراء الاسكندرية . إن ذلك القطع
التي كان لها فيها سلف من الدهر حواضرها وهي كلها لم تصل إليها
يد البرابرة بالتخريب . ويجب أن تكون قد احتفظت بصانعها
وابنتها لأن أغلبها قد بادوا أو انقرضوا . وتلك الصانع الذهبية
في الرمال باقية وكأنها أمانة للأجيال المقبلة . وإلى عهد الزمان
الذي لا نحسبه بعيداً نحيل تبتالته وآماننا . فيصبح لا مكان عندئذ
إن تنقب أرض النيل والصحارى القبيصة في كل نواحيها ، وإن
يفتح الحرم الصغير ويدم رأساً على عقب بتكاليف لا اعتقد أنها
تجاوز الخمسين ألف ليرة . وإلى هذا العهد أيضاً يجب التوكل على
الرموز المبرزة والبقية وإن كنت اعتقد أن حلها اليوم ليس بالامر
المتعذر .

حسبنا الخوض في مجال الخدس والاطنان ، فقد آن لنا أن
ننتقل بالبحث إلى ولاية لا تقل عن مصر جدارة بالاعتماد من حيث
عهدنا القديم والحديث .

القسم الثالث

سوريا الطبيعية

الفصل العشرون

الجغرافيا والطبيعات

إذا خرجت من مصر وسلكت البرزخ الفاصل بين افريقيا وآسيا ، متابعاً شاطئ المتوسط ، انتهى بك المطاف الى ولاية تركية ثانية نعرف عندنا باسم سوريا . وهذا الاسم ، شأن اسماء اخرى غيره ، قد نقله البنا الاغريق محرفاً من كلمة آشور ، بعد ان اخضع آشوربو نينوى هذه المقاطعة لسلطانهم . ولم يكن لسوريا عهدئذ اسمها اليوم ، لانها لم تكن مشتملة على فينيقيا وفلسطين . ويجهل العرب تسميتها الاغريقية ويطلقون عليها اسم بر الشام ، ومعناه بلاد الشمال . وهم يعنون بذلك البقعة الواقعة بين خطين يتجه احدهما من الاسكندرون الى الفرات ، والثاني من غزة تحده صحراء جزيرة العرب شرقاً والبحر المتوسط غرباً .

النبتة الاولى

منظر سوريا

اذا القيت نظرة على خارطة سوريا تبين لك ان هذه البلاد عبارة عن سلسلة جبال تنشعب بيناً وشمالاً الى كل ناحية . وهذا ما تنبئه من نظرك الى الارض نفسها . فانك سواء اتيتها من البحر او فابلتها من الصحارى الشاسعة ، تكشف لك ، عن بعد حقيق آفاق ، يحف بها سور غائم عند من الشمال الى الجنوب على مدى البصر . وكلما اقتربت منها بدت لك فمم متراكبة تراها طوراً منعزلة ، وثارة متجمعة في سلاسل تنهي عند خط رئيسي يعلو كل ما حوله . ويسير هذا الخط دون ما انقطاع من الشمال حتى جزيرة العرب . وهو يداني البحر بين الاسكندرون والعاصي ، ثم ينفرج بمرور هذا النهر ، ولا يلبث ان يتبع مسيره جنوباً ، بعد ان ينحرف عن الشاطئ قليلاً ، ويغدقاً منضلة الحلقات حتى منابع نهر الاردن حيث يقسم شعبتين تكتنفان هذا النهر وبحيراته الثلاث . وفي طول مسير هذا الخط تنفرع منه شعب عديدة ، وكأنها تنفرع من جذع رئيسي . ويذهب بعضها متلاشياً في الصحراء حيث ينهي على شكل احواض كبحوض دمشق وحمص وحمات وغيرها . ويترامى بعضها صوب البحر في منحدرات كمنهدم الكرميل والتافورة والرأس الابيض ويحمل البقعة الممتدة من بيروت حتى طرابلس ، وهي في الغالب لطيفة الانحدار عند سهول انطاكية وطرابلس وصور وعكا وغيرها .

النبذة الثانية

الجلال

تختلف الجبال شكلاً ومنظراً كلها تختلف مستوى ومكاناً .
 فينبئ الاسكندرون والعاصي نكسوها اشجار الصنوبر والشرابين
 والسنديان والآس والغار والسرور والويجان ، ونضفي عليها بهجة
 تنبسط لها اسارير المسافر المكتئب تنظر قبوس العارضة . وفيه على
 بعض السفوح اكواخ تحيط بها شجرات التين والكرمة . وهذا
 المنظر يلطف من وطأة لعبه في طريق وعرة المسالك تصعد به
 وتنزل باستمرار من اسفل الوادي الى اعلى الجبل ، ومن اعلى
 الجبل الى اسفل الوادي . اما فروع الجبال السفلى التي تنبع نحو
 شمال حلب فهي على العكس صخور عارية لا خضرة فيها ولا
 تربة ، والشلال القافزة على البحر في جنوبي انطاكية مكدسة
 بالزيتون والتبغ والكروم ^١ . ولكن السفوح والقمم من ناحية
 الصحراء عبارة عن سلسلة من الصخور البيضاء . والجبال حوب
 لبساتن مرتفعة ، ولكنها وافرة التربة في اماكن عديدة ، وهي صالح
 للزراعة الكثيرة ما تناوبت عليه اليد العاملة . وهناك بين ركام الحصى
 لقوم بقايا من الارز لم يبق لها الا مسحة من الضخامة ^٢ . واكثر

١ يستقى حلب فيسوس الذي يتألف انطاكية كطوره منيف . ولكن بين Wine
 بجوار حد القلاية ان يقول ان قمم تشرف على القصور والامم في وقت مما .

٢ لم يبق منها الا اربع ارضات الوحي قد توفى النظر .

ما تراه الصنوبر والسندبان والتوت والعليق والزيتون والصكروم ،
والجبال ، فيها جاوز بلاد الدروز ، تنخفض وتصبح اكثر مؤانسة
للحرارة ، ثم تغار في الجنوب الشرقي من الكرميل وتكنسي
بأحراش لا بأس بجمال مناظرها ، ثم تاعري في اتجاه اليهودية
وتضيق حول اوديتها وتصبح وعرة حتى تنتهي الى البحر
الميت في اركام من الصخور الموحشة الملبى بالكهوف والمهاوي .
وفي غربي الاردن والبحيرة ترتفع سلسلة اخرى من الجبال اكثر
وعورة وارتفاعاً ، ومرآها كثيب حبيبي تلج في الصحراء عند نهاية
الارض الآهلة .

بذلك النظر ان لبنان اعلى تلك القمم . فلا تكاد تغادر لاراكما
في قبرص حتى تشاهد ، على بعد اربعين فرسخاً ، قمة الغاشة في الافق .
وبذلك على ذلك مجرى الانهر ايضاً . فنهري العاصي المنحدر من
جبال دمشق الى مسا وراء انطاكية ، ونهر القاسمية المتجه من
شماله بعلبك صوب صور ، ونهر الاردن الذي يصب في الجنوب -
كها تثبت ان لبنان يشارف منا حوله . واكثر الدرر تنوعاً بعد
لبنان جبل عكار . هناك تراه حائلاً تترك المعرة ، فيبدو كصومعة
عظيمة ، لا تغيب عن نظرك مسافة يومين .

لم ينسر لاحد حتى اليوم ان يقيس ارتفاع هذه الجبال
بواسطة ميزان الفواه ، ولكن هناك مقاييساً طبيعياً يحوز الاعناء
عليه ، اعني به الثلج . فهو يكسو جميع القمم شتاء من

شبه جري

١ - يخلق على هذه الارض اسم مغاور مجسطي التي طامأ اوى اليها طعام
الطرق . ومن هذه المغاور ما يسع الفد وخمسة رجل .

الاسكندرون حتى القدس . ولا يحل شهر آذار حتى يذوب الا
في لبنان . فهو يقف في منحرجاته العالية بأمن من رياح البحر
ومن فعل الشمس . وقد شاهدته في اواخر شهر آب
١٧٨٤ فيما كنت اخشى من الحر في وادي بعلبك . ولما كان
من المعروف ان التلج يتطلب في هذه الدرجة من خط الاستواء
ارتفاعاً يراوح بين الف وحمائة خطوة والف وسائة ، فبين لنا
ان لبنان يبلغ هذا الارتفاع ، وانه اذن ادنى من جبال الالب
وحتى من جبال البرانس .

ان لبنان المشتمل على سلسلة كسروان وبلاد الدروز يظهر
بظهر الجبال العظيمة . ففي كل خطوة ترى تلك المشاهد التي تبسط
فيها الطبيعة الحسن والعظمة جنباً ، والغرابه جنباً آخر ، والتنوع
ابداً . فاذا وصلت بحراً ونزلت الى البادية ، شخص امامك هذا
السور الشاقق ، وكأنه اطبق على الارض ، وتلك الكتل الجبارة
المنطلقة في الرفيع ، وفرضت عليك الدهشة والاجلال . فاذا انتقل
المراقب الى تلك القمم التي كانت تحجب نظره ، تكشف له فلولات
شاسعة تصبح مثاراً آخر لاجبابه . ولكنه لكي يستكمل متعته
بحلال هذه المناظر يجب ان يستوي على ذرى لبنان نفسه او على
صنبن . فهناك عند الآفاق في كل النواحي الى ما لا حدود له .
واذا كان الجو صافياً تامت الابصار في الصحراء النائية خليج
العجم من جهة وفي البحر الغاسل شواطئ اوروبا من جهة
اخرى ، فتشعر النفس وكأنها تخضع للعالم . وتوامى النواظر
على سلسلة الجبال المتعاقبة ، وتحمل الفكر بلجة بصر من انطاكية
حتى القدس ، ثم تقترب الى محيطها القريب فتغوص في عمق

الشاطئ، البعيد، وأخيراً ينحصر الانقياء في أشياء مختلفة، فتتخصص
 الصخور والاحراش والسواقي والشلال والقرى والمدن، فتتولد
 لهذه خلفية في ان ترى هذه الاشياء متناهية في الصغر بعد ان
 رأيتها متناهية في الكبير. وتنتظر بارتياح الى الوادي المغور
 بالسحب العاصفة، وتنبسم اذ تسمع تحت خطاك هذا الرعد الذي
 طالما هدر فوق رأسك، ونحب ان ترى تحت قدميك هذه
 الروابي والشلالات وقد أصبحت في انخفاضها عنك شبيهة بفلام
 الحقل أو ادراج المزارع. ويروى ان تكون قد أصبحت
 اعلى نقطة بين هذا التعداد من الاشياء فتتظر اليها بارتياح اكبر.
 عندما يجتاز المسافر تلك الجبال يرتفع يذى، ذي بدء من
 وعورة السبل وشدة التحدار السروح وعمق المياوي. ولئلا لا
 يلبث ان يضيق الى راحة البغال، فينهل بها يمر به من مختلف
 المشاهد مرثجاً. وهنا كما في جبال الالب يسير اباماً كاملة حتى يصل
 الى مكان هو نصب عينيه منذ ساعة انطلاقه. فبدور رهيبت وينسلق.
 وتبدل حوله المرتبات باستمرار كأن قوة سحرية تغير في كل
 خطوة ملايين المناظر. فهي تارة قرى على اكمة الانزلاق على
 منحدرات عالية ومرتبعة على نظام مجيل البك معه ان السطوح
 في صف من البيوت هي طريق للصف الذي يشارفها، وتارة دير
 على فنة منفردة، كثير مار يوحنا في وادي النمر. وهنا صخرة
 ثقبها النيار فاصبحت قنطرة طبيعية، على ما ترى في نهر اللين^١.

١ ان نهر اللين، ويسمى ايضاً نهر بيروت، يصب في نهر الصليب. ان قنطرة
 القنطرة المذكورة هو مائة وستون قدماً طويلاً على خمس وثلاثين قدماً عرضاً ومما
 يقارب التي قدم ارتفاعاً فوق الدافة.

وعندك صخرة منحوتة شائعة كانها السور العظيم . وصنعوا ما
يشاهد على التلال ركائماً من الحجارة عرستها المياه ونزلتها ، فاصبحت
وكانها اخربة ساحم الفن في تنصيدها . وترى في اماكن عديدة ان
المياه اذا تمر في طبقة منخبة قد احتفرت الارض وكونت المغير
كما حدث في نهر الكاب على مقربة من عينسورا . وقد فُتحت
ما في اماكن اخرى خليجاً تحت ارضية . وهذا ما يشاهد في
مار الساس الوم وفي مار يوحنا^١ . وقد حدث في بعض
الاحيان ان هذه العوارض الطبيعية قد كانت سبباً في نزول
الفيضات اذ تنهسر الارض وتنحدر الصخور على المنازل المجاورة
وتقتل اهلها على ما حدث منذ عشرين سنة لقرية كانت تقوم
بالقرب من مار جرجس وزالت معالمها تماماً . ومن عهد قريب
حدث في جوار المكان نفسه ان زحلت ربوة فيها التوت
والكروم وانطلقت كسفينة لتوسل في البحر ، حتى استقرت قطعة
كاملة في اسفل الوادي . فنتجت عن ذلك قضية حقوقية غريبة
بين صاحبي القطعتين رفعت الى محكمة الامير يوسف ، فقضى
بالتمويض عن الحسائر . وقد يلاحظ لك ان هذه الحوادث تبعت

١ ان هذه الحدائق تحت الارض كثيرة في سوريا ، فمثلاً ما هو عند منابع العاصي
والاردن . والذي تراه قرب دير مار يوحنا ذو فروعها اسمى الشوكة ، وهي شجرة عمرها
عشر اقدم تقريباً واقعة في منخفض على شكل قمع لؤلؤ في النعق حتى خمس عشرة قدماً
وفي جانب اسمها هوة كثيرة العمق . وقد ردمها الالهون منذ سنوات لان جنة اللبث
في احدى جنباتها وجاء الشتاء واستجمعت المياه فكونت بحيرة عميقة ثم تسربت بين الخصى
فجرت جنبها الرابط بينها وما لبثت المياه ان تفجرت بدوي شبيه بقصف الرعد ولرأت
تعمل ضغط الهواء الى مسافة مئتي متر واقتطعت ما في طريقها من الاشجار .

على التهرب من سكنى الجبال ، ولكنها في الحقي حوادث نادرة
فدلا عن ان الإقامة في الجبال أفضل من الاستماع في الحصب
السهول ، لان الكرم فيها بأمن من ارقاق الاتراك . وهذا الامن
الذي يبعده الاعلوت من اثنين الفسات جعلهم يهفلون من
الكد والعمل في صخورهم ما تحاول غلبتها ان تجده عند غيرهم .
فقد اكبر هوا هذه الأرض الصخرية على الحصب بفضل ما ابدوه
من فن وعناية . فاذا شاوروا الافادة من المياه المنجروها على
السفوح في الف منعرج ، او اقاموا دونها السدود في الودية .
واذا اوشكت الازمة على الانتشار سددوها بالجدر والاسوار حتى
ان الجبال تبدو لك وكأنها ادراج مسرح متراكبة ، تنتظم فيها
اشجار التوت والكرمة صفوفاً قد تبلغ من اسفل الوادي الى قمة
الريوة منه او مئة وعشرين صفاً .

البذرة الثالثة

طبيعة الجبال

اذا بحثت في كيان هذه الجبال وجدت انها من الصخور
الكلسية الصلبة الضاربة الى البياض ، وهي وفاء كالأصصال .
وهذا النوع من الحجر هو نفسه في جبل النجاة - سوريا ، فهو نارة
اجرد يشبه منظره منظر الصخور القافة على شواطئ بروفنسيا ،
على ما ترى في السلسلة المحاذية للطريق الواصل بين انطاكية
وحلب ، تلك السلسلة التي تحتضن جدول هذه المدينة عند مجراه
الاعلى .

والخربة ارمناز الواقعة بين سرخس وفقطين مضيق يشبه غمام

المشابهة المضايق التي تمر بها بين مرسيليا وطولون . فإذا سرت
من حطب الى حجاب رأيت عروق الصخر نقشه بنقشة في السهل ،
فيما ترى على الجبال القائمة عن بينه ركاباً منه ينزل انخربة عظيمة
من المدائن والقصور . وهذا هو نوع الصخر الذي تتوكل منه
انضاد لبنان وانتيلبنان وجبل الدروز والجليل والكرمل ، ويمتد
حتى جنوبي البحر الميت . فالسكان في جميع هذه الامكنة
يشدون منه المائي ويستخرجون الكلس . ولم اؤا او اسمع قط
ان تلك الحجارة تحتوي على اصداف متحجرة في اعالي لبنان .
بيد ان بين البترون وجيبيل مقلعاً من الصفائح تحمل شفراتها
رسوم النباتات والاسماك والاصداف والعنصل البحري بنوع
خاص . ومسبل عسقلان في فلسطين يجري على حجر خشن مالح
ذي مسام ، يحتوي على اصداف من المتوسط عثر بوكوك على
امثالها في الصخور المحيطة بالبحر الميت .

ولا يكثر من المعادن فيها الا الحديد ، فجيال كسروان
والدروز ملأى به . ويستخرج السكك في الصيف . الا انه
يمتدح بالتراب . ويبدو ان في الجليل مثل تلك المعادن ، لانت
موسى قد وجد فيه منذ ثلاثة آلاف سنة بعض حجارة من
حديد . وينحدث الناس حديثاً منها عن منجم للنحاس قرب
حلب . وقد ذكر لي الدروز انه على اثر انهار ذلك الجبل
الذي المعث اليه قد عثروا على معدن ظهر انه من الفضة
والرصاص ، ولكن الناس سرعان ما انظفوا معالم هذا الاكتشاف
الذي كان من شأنه ان يحول اليهم نظر الاتراك .

النبذة الرابعة

البراكين والزلازل

ان جنوبي سوريا - حوض الاردن - بقعة بركانية . فبتاريخ
بحر لوط الكبريتية ، والحجارة الاسفنجية الملقاة على شواطئه ،
وحمامات طبريا الحارة انما تدل على ان هذا الوادي كان مقراً لنيران
لم تطفأ حتى اليوم . وكثيراً ما تتصاعد من البحيرة السنة من
الدخان ، وتتفزع الارض على جوانبها . ولو لم تكن الافتراضات
في مثل هذا الموضوع عرضة للايهام لصح الظن ان جميع هذا
الوادي قد تكون من الخساف الارض التي كانت تصب الاردن
في المتوسط . ومن الثابت على الاقل ان الممدن الحس التي
دمرتها النار قد خربت بفعل بركان ثائر . يقول استرابون
صراحة : ان التقليد السائر بين السكان (اي اليهود) يشير الى
ان هذا الوادي كانت تقوم فيه ثلاث عشرة مدينة زاهرة غمرها
نيران بركان . و يعزز هذه الرواية ما يراه المسافر من انقاض
على شاطئ البحيرة الغربي . ان ثورة البراكين قد شملت منذ
امد بعيد . بيد ان الزلازل ما برحت تهز هذه المقاطعة من
وقت الى آخر . والشواطئ معرضة لها بوجه عام على ما يدل
التاريخ . والامثلة جاءت متعددة في انطاكية واللاذقية وطرابلس
وبيروت وصيدا وصور وغيرها . وحدث في السنة ١٧٥٩ زلازل
عظيم انزل الحراب والدمار في البلاد . ويؤمنون ان وادي
بعلبك مني بخسارة عشرين الف نسمة . وتعاقبت الهزات خلال

ثلاثة أشهر فقط أهل لبنان واضطربوا وهجروا المنازل مستعبيين
 عنها بحمام نصبوها في الهواء الطلق . وفي اليوم الرابع عشر
 من شهر كانون الأول ١٧٨٣ ، فيها سكنت في حلب ، حصل
 زلزال ، بلغ من الشدة مبلغاً عظيماً ، حتى فرغ الجرس المعلق فوق
 بيت القنصل الفرنسي . ويلاحظون في سوريا أن الزلازل أكثر ما
 تحصل في الشتاء على الزمطار الخريف . وهذه الملاحظة التي
 تؤيد ما عاينه الدكتور شامو Show في بلاد المغرب يدل على أن
 فعل المياه في الأرض الجافة يساهم في حركات الارتجاج هذه .

النبتة الحامصة

الجراد

نشترك - سوريا ومصر والعجم ومعظم آسيا الجنوبية بأفة لا
 تقل مولاً عن الزلازل ، غلبت بها أرجال الجراد التي تحدث عنها
 الرحالون . إن مقادير هذه الحشرات لا يصدق امرها إلا من
 شاهدها بنفسه عياناً . فهي تغطي الأرض على مدى عدة فراسخ .
 ويسمع لها ، من بعيد الخرقم العشب والشجر ، مغطى بذلك
 بجيش يعمل النهب في الخفاء . فيسير ليقوم بحماية الثمر من مكابدة
 هذه الحيوانات الهدامة التي تزحف وكأن النار في أعقابها . وحينما
 نحل كتائبها نحني الحضرة من الحقول ككسار يطوى . فتعري
 الأشجار والأغراس من أوراقها ، وتصبح أقصاناً جرداء وجذوعاً .
 وبلمحة بصر تزول مشاهد الربيع الغنية لبعثها منظر الشتاء المسبغ .
 وعندما تتطلق هذه الأرجال طائفة لكي تجاوز عقبة من العقبات
 أو تسرع في اجتياز مكان جديب ، يمكن القول حرفياً أن السماء

فقد اظلمت . ومن حسن الطالع ان هذه الآفة لا بتكرر نزولها كثيراً ، اذ ليس من نادرة مثلها في احوال المجاعة الاكيدة وما يلحقها من اوبئة . ويلاحظ سكان سوريا بحق ان الجراد لا يقبل على البلاد الا بعد فصول الشتاء الكثيرة الاعتدال ، وانه يقبل دائماً من بادية جزيرة العرب . وتفسر لنا هذه الملاحظة كيف يبقى اليرود المعتدل على بروض هذه الحشرات فتتعد بسرعة ، وكيف تضمحل الاعشاب في تلك السهول الشاسعة ، فترحل عنها ارجال الجراد الهائلة .

عندما يظهر الجراد على حدود البلاد المزروعة يجتهد السكان بتحويله عنها بدفعات كثيفة من الدخان . فاذا ما اعوزهم الحشيش اليابس والطين ، احفرروا الخنادق ودفنوا فيها عدداً عديداً من الجراد . بيد ان اجدى العوامل ضد هذه الحشرات انما هو الريح الجنوبية من جهة والظائر المسى بالسرمر من جهة ثانية . فهذا الظائر الشبيه بالصفارية تتجمع منه اسراب كالزواجر وتلاحق الجراد قتلهم منه فسماً وتقتل ما تستطيع قتله . والفلاحون يضمنون بهذا الظائر فلا يسمحون قط باضطرابه . اما الريح الجنوبية والجنوبية الشرقية فانها تطرد غيوم الجراد بشدة صوب البحر المتوسط ، فتغرق منه مقادير هائلة . فاذا ما دفعت عنها كلها على الشاطئ ، انتفت وافسدت الهواء بضعة ايام على مسافة بعيدة .

ومن المعلوم ان طبيعة الارض في هذه الاصقاع السورية المتراصة الاطراف تختلف باختلاف الامكنة : فالارض الجبلية وعرة ، في حين ان قبة السهول مريضة وافرة الحطب . وهي بين حلب وانطاكية كالآجرة المسحون الدقيق ، او كأنها تسبق اسبانيا . على ان مياه

العاصي التي تُجناز هذه المنطقة مصبوغة بلون ابيض بسبب الاتربة
البيضاء التي تنقلها من جوار منابعها . ونكاد تكون سائر الارض
في غير هذه الامكنة سمراء تشبه مزيجاً من التراب والسماد .
ويندر وجود الحصى في سهول جوران وغرة وبعليك . فاذا ما حل
فصل الشتاء توحلت الارض حتى اغوارها ، فاذا رجع الصيف
نشفت صدوعاً واسعة عميقة .

النبذة السادسة

الأنهر والبحيرات

أقد عودنا المغالة في التصور ، وإذا شئت ، فالصور المضحية التي رسمها التاريخ والروايات الأشياء النائية ، ان تتكلم عن مياه سوريا باجلال يفق الخيلة . فليد لنا ان نقول نهر الاردن ونهر العاصي ونهر ادونيس . بيد اننا لو شئنا ان نحفظ الاسماء معنا المعتاد لما وجدنا في هذه البلاد غير الجدول . فان العاصي والاردن ، وهما اعظم مجاري تلك النواحي ، لا يتجاوز سعة مصبها سنين قدماً^١ . وما سواهما من الميايل لا يستحق الذكر ، لأنها اذا تضخمت قليلاً في الشتاء بفعل ذوبان الثلج ، فانت لا تتيقن امكنتها في سائر ايام السنة لولا الحص المنيرة والكنل الصخرية التي غلا بمجاريها . وان هي إلا سواقي ذات شلالات تنبع من جبال هي على قيد خطى قليلة من البحر بحيث لا يتيسر لامواها الوقت للاستجماع في اودية طويلة لتتحول فيها الى أنهر . ونشخص هذه الجبال نفسها حوالل دون تضاها المياه في أماكن عديدة فتتكون البحيرات ، ومنها بحيرات انطاكية وحلب ودمشق والحولة وطريرة والبحيرة المسماة بالبحر الميت او البحيرة الاسفلتية . ومياه تلك البحيرات ، باستثناء الاخيرة ، مياه عذبة تحتوي امياً كما تختلف اجناسها عما نعرفه^٢ .

١ صحيح ان الاردن عميق ، ولولا ما يغمر العاصي من المواجه المدينة ، لقي جافاً طوال الصيف .

٢ يتكرر في بحيرة انطاكية الانكسار وضرب من السمك الأحمر رديء.

وتنفرد البحيرة الاسفلانية في انها لا تحتوي اي حي او
 نبات . فلا ترى خضرة على ضفافها او سمكاً في مياهها . ودعوا
 خطأً ان جوعها فاسد حتى ان الطيور التي تجتازها معرضة للهلاك .
 فلا يذدر ان ترى السنونو ترف وجهها لتأخذ منه القطرات
 اللازمة لبناء اعشاشها . اما السبب الحقيقي في انعدام الحيوان
 والنبات فهو تلك الملوحة الحادة في مياهها ، وهي أشد حرافة من
 مياه البحر بقدر عظيم . والارض المحيطة بها مشربة بتلك الملوحة
 ايضاً ، وتنتع على الاغراس . والهواء مثقل منها بالبحر فضلاً عما
 يتلقاه من البخار الكبيرت والخرما مما يجعله غير مؤات لنمو النبات .
 وهذا ما يجعل المنظر مواناً حول البحيرة ، والمياه صافية وغير
 قابلة للتساقط بسبب ملوحتها . ومنبت هذا الملح لا ليس فيه ولا
 غموض ، لان في الشاطئ الجنوبي الغربي من الملح المعدني
 حلت منه بعض القطع . وموقع تلك المناجم في سفح الجبال التي
 تشارف هذه الجهة . ويستمرها غرب تلك النواحي منذ اقدم
 العصور . كذلك سكان القدس . وعلى تلك الضفاف ايضاً قطع
 من الفير والكبيرت يتجر بها العربان . وقمة يتابع حارة وصدوع
 عميقة تدلك عليها عن بعد اعرام صغيرة بنيت على جذباتها . وتكثر
 هناك على نوع من الحجر تقيعت منه بالاحتكاك رائحة كبريتية ،
 وهو يلتهب كالقير ويصقل كالرخام الابيض ، ويسعمل لتبليط
 الساحات . وانك تجد اخيراً كتلاً مشوهة يتراعى لك انها قذائل
 محطومة ، وبحسب الحجاج الجهة الموسوسون انها اثر من حادثة

الجنس ، وبحيرة طيرة الغنى منها بالاسماك وبالسرطين بنوع خاص .

امراة لوط ، في حين انه لم يقل ان هذه المرأة قد تحولت الى حجر
كما حدث لنيويا^١ ، بل الى ملح قد اضمحل ولا شك بالذوبان في
الشتاء التالي .

وقد حار بعض علماء الطبيعيات في مسألة المياه التي يصحبها
الاردن باستمرار في البحيرة ، حتى ذهبوا الى الافتراض بان ثمة
نفقا تحت الارض يتقد بها الى البحر المتوسط ، ولكنه فضلا عن
فقدان الدليل على وجود هذا النفق ، فقد أثبت « هالس » Hales
بالحسابات الدقيقة ان التبخر يستنفد مياه النهر . وهذا التبخر
يختلف حتى تراه بالعين المجردة ، اذ يتراكم الضباب عند بزوغ
الشمس فوق البحيرة ، ثم لا يلبث ان ينقشع عنها بفعل الحرارة .

الفئة السابعة

الماء

يسود الاعتقاد ان سوريا بلاد شديدة الجحر . على ان هذا القول
يقضي شيئا من الايضاح ، اذ تختلف درجات الحرارة من قصوى
الى دنيا على مسافة مئة وخمسين فرسخا عن خط الاستواء عرضا .
وقد اعتبر آخر ناش . عن طبيعة الارض ، فهي إما واطئة مسطحة ،
او مرتفعة جبلية . ونسبها الى هذا الوجه يحدث فروقا محسوسة ،
لان ميزان ريومور Reaumur يبلغ على الساحل ٢٥ او ٢٦
درجة ، فيما لا يجاوز في الجبال ٢٠ او ٢١ درجة^٢ . كذلك يكسو

١ - امراة لوطية تحولت الى حجر . - القرب .

٢ - ادنى درجات ميزان الحرارة شتاء على ساحل سوريا وفي طرابلس خاصة نبع
او شان فوق الجبل . وترتفع ميقاتا حتى ٢٥ درجة او ٢٦ في القرب المحكمة الاقال .

الثلج سلسلة الجبال شتاءً ، في حين أن الأراضي الوسطى لا تعرفه
فقط ، وإذا عرفته فالحين قصير .

في تلك الحالة هذه مناخان : أحدهما شديد الحرارة في الساحل
والسهول الداخلية كبعثك وانطاكية وطرابلس ودمسكا وغزة
وحوران الخ... والآخر معتدل يكاد يشبه المناخ عندنا ، وهو يسود
الجبال ، خصوصاً متى بلغت بعض الارتفاع . ان صيف سنة ١٧٨٤
قد اعتبره الدروز اجراً ما عرفوا منذ عهد بعيد . على اني لم
اجد فيه وجهاً للمقابلة بقبض صيدا وبيروت .

تتعاقب الفصول في هذا المناخ مثل تعاقبها في اواسط فرنسا .
فالشتاء يستمر من تشرين الثاني الى اذار ، وهو شديد قس .
فلا تنقضي سنة بلا ثلج . وكثيراً ما يغطي الارض شهوراً كاملة
ويعلو اقداماً عديدة . والربيع لطيف كالخريف ، وليس في الصيف
ما يفوق الاحتمال .

ويحصل العكس في السهول ، اذ حالما تعود الشمس الى خط
الاستواء يصبح القبط مرهقاً ويستمر حتى عيد جميع القديسين .
والشتاء ، مقابل ذلك ، هو من الاعتدال بحيث ان البرنققال
والنخيل والموز وغيرها من الاغراس اللطيفة لا تنبرح على غاشيا
في الارض . وانه لمنظر شائق يستمتع به الاوروبي اذ يرى ، تحت
نافذته في طرابلس خلال شهر كانون الثاني ، اشجار البرنققال مثقلة
بالزهر والثمر ، فيما يكون الثلج والضربع فوق رأسه على ذرى
لبنان . على انه من الجدير بالملاحظة ان الشتاء في النواحي الشمالية

اما ميزان الهواء فن الغريب انه يستقر عند الثاية والعشرين في ايام الاخيرة من
ايار ، ولا يتحول عنها حتى شهر تشرين الاول .

وفي شرقي الجبال أشد صقيعاً دون أن يكون الصيف أخف قبضاً .
فلا يمر شتاء في انطاكية وحلب ودمشق إلا والجليد والثلج على
الأرض بضعة أسابيع . وهذا امر مرده الى زحول الأرض اكثر
منه الى نسبة مواقعها من خط الاستواء . فالسهل المنبسط شرقي
الجبال بقعة شديدة الارتفاع عن مستوى البحر ، منفصلة للرياح الجافة
الهابطة من الشمال والشمال الشرقي ، ومعجوبة عن الرياح الغربية
والجنوبية الغربية الرطبة . اما انطاكية وحلب المقابلتان لجبال
الاسكندرون فهما تنقيان هواءً لازعاً من تلوجها .

ان سوريا ، وهذا هيكلها ، تجمع تحت السماء الواحدة مناخات
مختلفة . ونحشد في إطار ضيق من ضروب الاستساع ما وزعته
الطبيعة ، في أي مكان آخر ، على مسافات بعيدة من الأزملة
والأمكنة . فهي عندنا ، مثلاً ، قد فصلت الفصول بالأشهر ، في حين
يصح القول أنها هنا منفصلة بالساعات . هل ضايقتك في صيدا
أو طرابلس حرارة تموز ؟ ان مسير ست ساعات ينقلك الى طقس
أثار في الجبال المجاورة . وهل ، على العكس ، تأملت من صقيع
كانون في بشراي ؟ حينك تباراً واحداً لنعود الى الساحل بين
زهور أيار . فقد جاء في قول شعراء العرب ان صبيح يحمل
الشتاء على رأسه ، والربيع على كتفيه ، والحريف في صدره ، فما يرفد
الصيف عند أقدامه .

لقد خبرت بنفسي حقيقة هذا الحجاز طوال ثمانية أشهر قضيتها

١ ان العديد من سكان هذه المنطقة يفضون الشتاء في جوار طرابلس ،
فما تكون منازلهم دفيئة في التلوج .

في دير مار يوحنا^١ على سبعة فراسخ من بيروت . فقد غادرت طرابلس في اواخر شباط والبقول في مل ، فاشيا ، والزهور في تغنحها . وبلغت عينطورا^٢ ، فاذا الاعشاب في يده نبها . اما في مار يوحنا فكان كل شيء في غمرة الثلج ، ذلك الثلج الذي لم يتعرّ منه صين قبل آخر نيسان اذ تفتقت براعم الورد في واديه . وكانت بواكير التين قد انطلقت عن بيروت عندما كنا نأكل ثمراته الاولى ، ودود القز فيها اصبح فيالج حين لم يكن الداس بيننا قد ورفوا نصف شجر التوت .

الى هذه الميزة الاولى التي تؤيد الملاذ بنعاقبها ، تضاف ميزة اخرى تتضاعف معها تلك الملاذ بتنوع المحاصيل . فلو أعان الفن الطبيعة لأمكن ان نحصر في مسافة عشرين فرسخاً محاصيل اكثر النواحي تباعداً . ففي الحالة الراضة ، وعلى رغم همجية الحكومة التي تناهض كل نشاط وكل صناعة ، يدعشك ما تراه من تعداد المنتجات في هذه الولاية . فانه فضلا عن انواع الخنطة والشعير والفول والقطن التي تزرع في كل مكان ، توجد عدة اصناف اخرى مفيدة او لذينة الطعم ، وهي تختص بامكنة مختلفة . فالسسم الذي يستحب منه الزيت ، والذرة^٣ الشبيهة بذرة مصر بكتوان في فلسطين^٤ ، والذرة الصفراء تنوثر في ارض بعابك ،

١ مار يوحنا الدور قائم قرب القرية . يقع هذا الدير في وادٍ صخر ينصب مياهه في نهر الكلب . رهبانه ملكيون كاثوليك من رهبانية القديس باسيليوس . وسأستوفى الكلام عنهم فيما يلي .

٢ معهد كاث قلا لبسوعيين ويشغل آلات العازربوت .

٣ ضرب من الحبوب يشبه القمح تقوم اعراشه على ساق من قصب .

٤ لم ار خط الخنطة السوداء في سوريا . والشوفان فيها قليل . اما الحبوب فعابها

والأرض ينصب في بطاح الحولة . ولم يتنبه الناس إلى زراعة قصب
 السكر إلا في الآونة الأخيرة . فقد نما في بساتين صيدا وبيروت
 ثم في حدائق الدلتا . وينمو العظم على ضفاف الأردن في بلاد
 ييسان ، ولكنه يحتاج إلى العناية . وتنتج اللاذقية اصناف التبغ
 الذي يصدر إلى دماط والقاهرة . وزراعة التبغ منتشرة في الجبال
 كافة . والزيتون ينمو في انطاكية والزملة ويرفع ارتفاع شجر
 الزان . والتوت ثروة بلاد الدروز بما ينتجه من الحرير الجميل .
 والكرمة تعطي ثمرة بالامكان ان تعادل خور بورديو . وفي باها
 الليمون والبطيخ . وهذا الأخير يفضل منه في بولس . وفي غزة
 التمر والزمان . وفي طرابلس العوالم . وفي بيروت التين والموز .
 وتختص حلب بالفسنق . وفي دمشق جميع اثار نواحيها . فترتها
 تصامح لفلاح نور منديا ، وخوخ لاثورين ، ودراق باريس . وفيها من
 المشمش عشرون نوعاً ، واللوزي منه يرغبه الناس في كل تركيا .
 وهناك شجر القرمز الذي يكثر في السواحل . ولعله يحمل هذه
 الحشرة الثمينة كما في المكسيك وسان دومينكو^١ . وإذا لاحظنا
 ان جبال اليمن المكسيك بنحيرات البين الفاخر انما هي اثم
 لجبال سوديا ، وان التربة والحرارة في كلا البلدين تكادان

الشعب والذين .

١ - لقد ساد الاعتقاد زمناً طويلاً ان دولة القرمز خاصة بالمكسيك فحسب . وهذا
 ما جعل الاسبان يظنون بانكبتها محظوظين تصديرها حية تحت طائل عقوبة الاعدام . على
 ان المسير ثباري Thierri توصل الى القلم سنة ١٧٨٦ الى سان دومينكو .
 ولكنه تبين ان حمار هذه الجزيرة كان ينوي الحشرة المذكورة قبل وصوله . وهذا
 دليل على ان القلم لا تفصل الحشرات عن الاغراس المحصومة بها .

نعمارلان^١ ، أمكننا القول ان اليهودية بنوع خاص تصلح للانتاج
هذا المحصول الخاص بجزيرة العرب . فلا عجب إذن ان تكون
سوريا مع ما فيها من حصنات الارض والتمناخ بلد الرغد على بحر
الازمنة ، وان يكون الرومانيون واليونانيون قد احتلوا فيها
مضاف اجمل ولايتهم حتى انها عادت مصر في نظرهم . وقد سئل
احد الباشاوات الذي يعرف البلدين عن ايها المفضل عنده ، فقال :
لا شك ان مصر مزرعة ممتازة ، ولكن سوريا مصيف ساحر^٢ .

١ - الارض في اليمن ونزعة كثيرة الشبه بارض سوريا ، على ما لاحظته ببوهر .
راجع وحده الى جزيرة العرب .

٢ - ان في سوريا جميع حيوانات الداجنة . وفيها فضلا عن ذلك الجاموس والجمال ،
ومنعها عظيمة . ونجد في سواها الغزلان ، وفي الجبال والغياض الخنازير برية اصغر
قواما وافن من الخنازير . ولا وجود فيها لظباء والايائل . ولما عثرت على
الذئب والتماع الحثفي . ولما عثرت عجب من ضفيرة ان آوى [يسمونه في سوريا
« واوي » غسلا بموائه ، ويطلقون عليه في مصر اسم « ذيب »] . فجمع بين آوى
المرافق في سواحي المدن حيث القات يحفظها . وهي لا تنتمي على احسن ، والغرب
وسيلها الوحيدة للشفع من انفس . وتتأذى كل مساء بالسموات مزرعة مشؤمة . وقد
يسمر عواذها ربع ساعة ليلا . وهناك في الاماكن المعززة : الصاغ والشموس التي
ينعشونها خطأ بالعمرة . واخص المناطق التي تأتي اليها هذه الوحوش لبنان وبلاد الدروز
ونابلس وجبل الكرمل وسواحي الاسكندرون . وليس في تلك البلاد اسود او دبة .
والطرائد التي كثيرة . اما الطرائد البرية فتكثر او تقل بحسب الاماكن ، وانما الارانب
البرية والحيث الاخر . والارانب تكثر الوجود . وفي ارض صيدا نوع من الطير يسمى
ابو القديس colibri . ان السيد ادانسون Adanson الذي كان ترجمانا في هذه
السنة اعدى الى شقيقه عظم الاكاديمية واحدا منها . وهذا الطائر مع البجع هو الوحيد
الذي ينفذ النظر في سوريا .

البينة الثامنة

خصائص الهواء

لا يجوز ان يفوتني التحدث عن خصائص الهواء والمياه ، تلك العناصر التي لها في سوريا اعراض جديرة بالنظر . ففي الجبال والسهول المرتفعة الممتدة شرقها تحس* الهواء خفيفاً صافياً جافاً ، وهو بالعكس على الساحل ، رطب ثقيلاً ، خصوصاً بين الاسكندرون وبافا . وهذا ما يجعل سوريا ، في مدى طولها منقسمة منطقتين مختلفتين تفصل بينهما سلسلة جبال هي في الوقت نفسه سبب هذا الاختلاف ، لانها بارتفاعها تقف حائلاً دون الرياح الغربية وتسبب هذا الركام من الابخرة الصاعدة من البحر والتجمعة في الاودية . وبما ان الهواء لا يكون خفيفاً إلا بقدر نقائه ، فهو لا يستطيع تسليق هذا السور حتى فينته وتخطيه إلا بعد تحضنه من كل ثقل غريب . ولذلك عن ذلك ان هواء الصحراء والجبال يواجم الصدور المثقلة ، فيما هو خطر على الصدور الواعية . والاوروبيون المهددون بداء الصدر يرسلون من حلب الى اللاذقية او صيدا . ولكن هذه الحسنة في هواء الساحل يقابلها سيئات ، منها انه بسبب الغمامات وتزلات العيون التي ائمت اليها في معرض حديثي عن الدائا ، فاللدى الليلي والنوم على السطوح يؤديان الى حوادث مَرَضية تفلت بقدر ما يتبعد المرء عن البحر الى الجبال . وهذا ما يزيد قولي السابق بهذا الصدد .

السبعة التاسعة

حياتى الماء

واللهاء وجه اختلاف آخر . فحياء البنابيع في الجبال عذبة
سبعة ، ولكنها في السهل ، شرقاً وغرباً ، أجاج حبتها تفنقر الامكنة
الى ينابيع . وهي رديئة كلها لو غلت في البادية . وهذا مما يجعل
الامطار ثينة في نظر سكك الحدود ، فيختزنونها في آبار وركابا
بحكمة الافقال . والبر أول شيء يبدو لناظرنا بين الجرائب
الدائرة .

ان حالة السماء في سوريا ، وبالأخص في الساحل والصحراء ،
اكثر ثباتاً وانتظاماً مما هي عليه في مناخاتنا ، اذ قلما تحجب
الشمس يومين متواليين . وتندر الغيوم صيفاً ، وكذلك الامطار
فهي لا تسقط قبل او اخر تشرين الاول ، ولا تكون عندئذ
طويلة الامة او غزيرة المطول . وهذه الامطار يرغبها الفلاحون
ليبدروا في الارض ما يسمونه غلة الشتاء وهي الحنطة والشعير ، ثم
تغزر وتكثر في شهري كانون الاول والثاني ، وكثيراً ما تستحيل
ثلجاً في الاماكن المرتفعة . اما في شهري اذار ونيسان فتطول
بعض الامطار وهي توافي زروع الصيف كالسهم والذرة والنبع
والفطن والفول والبصبيخ . والطقس في سائر ايام السنة مناسب
يشكو فيه الناس الجفاف اكثر من الرطوبة .

النبذة العاشرة

في الرياح

تسير الرياح ، شأنها في مصر ، سيراً دورياً ذا علاقة بكل فصل من الفصول . فتبدأ الرياح الشمالية الغربية بالهبوب نحواً الى الاعتدال الخريفي . فيصبح الهواء جافاً صافياً ولاذعاً . ومن الجدير بالنظر ان هذه الرياح تحدث الصداح في الساحل كما تحدثه في مصر الريح الشمالية الشرقية . ويحصل ذلك في القسم الشمالي من البلاد اكثر من حصوله في قسمها الجنوبي . وهو لا يحصل قط في الجبال . ويلاحظ ايضاً ان هذه الرياح تستمر ثلاثة ايام متوالية على غرار الريح الجنوبية والجنوبية الشرقية في ايام الاعتدال الآخر . وهي تستمر حتى تشرين الثاني اي ما يقارب خمسين يوماً تنعاقب خلالها على الهبوب مع الريح الشرقية بنوع خاص . وتعتبها الرياح الشمالية الغربية والغربية ، ثم الجنوبية الغربية بين تشرين الثاني وشباط . ويقول العرب ان هذين الشهرين « فصول الشتاء » . وفي شهر آذار تظهر الرياح الجنوبية المؤذية بنفس الاحوال التي تظهر فيها في مصر . وتخف وتطفئ كلما تقدمت نحو الشمال . وهي اكثر اعتدالاً في الجبال منها في السهول . وتستمر عسادة اربعاً وشرين ساعة او ثلاثة ايام . اما الريح الشرقية التي تحول محلها فهي تستمر حتى شهر حزيران حيث تهب الريح الشمالية التي توافي انطلاق الاثرعة على الساحل ذهاباً وإياباً . ويحدث في هذا الفصل ان الريح تدور كل يوم دورة الاقفاق وترافق الشمس في مسيرها من الشرق الى الجنوب ومن الجنوب

الى الغرب انعود الى سابق دورتها ذهاباً من الشمال . ونشاط
على الساحل لبلأ ربح مكانية تسبب ربح البر . فهي لا تنهب الا
بعد مغيب الشمس ، وتستمر حتى شروقها ، ولا فند الى اكثر من
فرسخين او ثلاثة في البحر .

ان اسباب هذه العوازل من القضايا المثيرة للاهتمام التي تتعلق
بالفيزياء . وهي تستحق ان تبحث حلولا . وما من بلد كسوريا
في مؤاتة طبيعتها مثل هذه الملاحظات . فكان هذه الطبيعة قد
هأت فيها جميع الوسائل لدرس اعراضها .

اما عندنا نحن فنقدر ان يتسنى لنا متابعة التبدلات العظيمة
التي تطرأ على الغواء ، بسبب مناخاتنا الضبابية حيث تغتمرها القارات
الواسعة . فالأفق الضيق الذي يحجب احواله لنا يحجب فكرنا في
الوقت نفسه . فلا يتكشف امامنا إلا مشهد قصير المدى بحيث
ان العوازل الخائنة فيه لا تبدو إلا وهي مشوغة باحوال
متعددة .

اما هنا فثمة مشهد واسع الجنبات يفتح امام النواظر . فنظرو
فيه العوامل الطبيعية الكبرى متقاربة في مجال يكون فيه تقاعدا
قريب المتناول .

ففي المغرب ينسط سهل المتوسط المانع الفسيح . وفي المشرق
سهل البادية الذي يضافي الاول باتساعه ويختلف عنه بجفافه .
وبين هذين السطحين ترتفع الجبال التي تبدو ذراها وكأنها مراد
تنطلق منها النواظر الى ثلاثين فرسخاً . فبامكان اربعة رُصد
ان تحتضن ابصارهم جميع سوريا في مدى طولها ، بحيث انهم
يستطيعون من قمم قسوس ولبنان وتابور ان يطلقوا النظر الى

افق مناد غير متناهي ، ويلاحظوا كيف ان ناحية البحر الصافية
الاديم ، اولاً ، تستجمع فيها البحرة لتوزع شيئاً فشيئاً ، ثم تتساقط
الجبال وتعلوها ، وكيف ان ناحية الصحراء ، وهي شقافة ابدأ ،
لا تولد الغيوم قط ، ولا تحمل منها إلا ما أثقلته من البحر .

ويصبح بإمكانهم عندئذ ان يجيبوا على سؤال ميخائيليس^١
وهو ان الصحراء تولد السمى ، بان الصحراء ، اذ كانت لا
تحتوي على الماء إلا بعد امطار الشتاء ، فهي لا تستطيع توليد
البحرة في غير ذلك الفصل .

واذا ما سرحوا الطرف في وادي بعلبك اللاهب من القبط ،
فما يتمتع بياض الجليد والثلج في ذرى لبنان ، تجلست لهم حقيقة
تلك القواعد الثابتة ، وهي ان الحرارة تزايد بتقارب القرب من
مخطط الارض ، وتتناقص بتقارب البعد عنها ، بحيث يلوح انها ليست
سوى نتيجة فعل الاشعة الشمسية في الارض .

ويكون في مقدورهم اخيراً ان يقوموا بمحاولات ناجحة لحل
معظم القضايا المتعلقة بذيضاء الكرة الفلكية .

راجع اسئلة ميخائيليس التي عرضها على رحائي ملك الدنمارك .

الفصل الحادى والعشرون

نظرة في عوارض الرياح والغيوم والأمطار والفيضات والصواعق

الى ان يباشر هذا العمل متى يتوسط بتفاحيته سأنعرض بإيجاز لبعض الفكر التي ولدها في منظر الاشياء .

لقد فحذت عن علاقات الرياح بالفصول ، وأثرت الى ان الشمس ، يتوافق سيرها السنوي مع العوارض الناشئة عن هذه وذلك ، يبدو وكأنها العامل الرئيسي في هذه العوارض ، وكان فعلها في الهواء الذي يغطي الارض انما هو السبب الاول في ما يدور فوق رؤوسنا من الحركات العظيمة .

فيجدر بنا ، لكي نفهم نظامها بجلاء ، ان نستعرض سلسلة الافكار من مبدئها ، ونتبصر خصائص عناصرها العامل .

اولاً : من المعروف ان الهواء سائل متعادل الاجزاء متحركها ، وهي تنزع دائماً ، كالماء ، الى المستوى الواحد ، بحيث لو ادخلنا الهواء الى غرفة ماحتها ست اقدام مثلاً ، في كل الجهات ، ملأها بالتساوي .

ثانياً : ومن خصائص الهواء التمدد او الانقباض ، اي انه يشغل مدى اوسع او اضيق بكمية منه واحدة .

ففي مثل الغرفة المتقوسة ، اذا افرغنا ثلثي كمية الهواء التي

محتويها ، انشعب الثلث الباقي مكانهما وملأها في كامل سعنها . وإذا نحن ، بدلاً من ان نفرغ الهواء ، اضقنا اليه ضعفاً او اضعافاً ورسعته الغرفة ايضاً ، وهذا ما لا يحدث الماء .

ان النار تريد خاصة التمدد فعالية ، بحيث ان الهواء الساخن يجمع من الاجزاء ، في مدى معين ، اقل ما يجمعه فيه الهواء البارد ، فيصبح اخف منه ويندفع الى اعلى .

فاذا ادخلنا الى الغرفة المفترضة مدفاة ملاءى بالنار ، ارتفع الهواء الذي يسا الى السقف ، وحل محله الهواء المجاور له الذي لا يلبث ان يتأثره بفعل التأثير نفسه . ويقوم عندئذ بحري من اسفل الى اعلى بفضل تدافع الهواء الجاني . ويصبح الهواء الاكثر حرارة في القسم الاعلى ، فيما يكون اقله حرارة في قسمها الاذن وفيها يستمر الهواء ان في السعي الى التوازي بفعل قاعدة السائلة ١ .

والآن ، اذا نقلنا هذه المفاعيل الى ماء يجري على مدى واسع ، في الكرة الارضية ، لالغناها نفس معظم عراضي الوباح .

يمكن اعتبار الهواء الذي يغطي الارض اوقيانوساً كثير الميعان تحت فعره ، ويقوم سطحه على ارتفاع مجهول . فبهفنض الناموس الاول ، واعني السائلة ، فيل هذا الاوقيانوس الى التوازن والاستنقاع . بيد ان الشمس التي تحرك ناموس التمدد تسيير فيه

١ وثمة جهد الهواء التمدد دون الخواجز التي تحبسه، ولكن هذا المفعول لا يؤثر في غرضنا .

اضطراباً يجعل جميع اجزائه في تخرج مستمر .
والاشعة الشمسية بتسلطها على سطح الارض تحدث فيها مفاعيل
المدفأة المفترضة في الغرفة ، وتجعل فيها حرارة يتبدد معها الهواء
المجاور ويصعد الى الطبقة العليا . فاذا كانت هذه الحرارة هي اياها
نفسها في كل مكان لجأت المفاعيل العامة متباعدة ، ولكنها تتبدل
بتأثير احوال متعددة تصبح السبب فيما تلاحظ من وجود التفاوت .
ومن الثابت ان الارض تسخن بمقدار ما تقرب من عامود
الشمس ، والحرارة اذن معدومة في القطب ، فيما هي في درجاتها
التصوي تحت الخط . وهذا ما يفسر ان مناخنا شديد الصقيع
في الشتاء ، وحرارة في الصيف . وهذا ما يفسر ايضاً ان الحرارة ،
في مكان واحد قائم في عرض واحد بالنسبة الى خط الاستواء ،
تختلف اختلافاً كبيراً بحسب ما تكون الارض مائلة صوب
الشمال او صوب الجنوب ، ويكون سطحه كثير الانحراف او
قليل عن اشعة الشمس ^١ .

ومن الثابت ايضاً ان سطح المياه اقل من سطح الارض
توليداً للحرارة ، فافسواء فوق البحر والبحيرات والانهر الخف
سخونة مما هو ، في العرض نفسه ، فوق اليابسة .
وترى ان الرطوبة مصدر اعتدال الهواء ، وهو السبب في ان
البلاد المكسوة بالغابات ، والكثيرة الغدران ، اشد صقيعاً مما لو
جفت غدرانها وقطعت اشجارها ^٢ .

١ وهذا ما جعل موتسكيو يلاحظ بصواب ان بلاد النهر الواقعة في دائرة متوازية
لخط الاستواء بالية لانكثرت اوراقها هي اكثر منها تعرضاً للصقيع .
٢ وهذا ما يفسر كيف ان غالباً La Gaule كانت اشد برودة مما هي عليه اليوم ،

ثالثاً : وثمة ملاحظة هامة هي ان الحرارة تتناقص بتقدير الارتفاع فوق مخطط الارض العام . بذلك على ذلك ان الجبال الشاهقة تحمل الثلوج على ذراها ، ولو كانت واقعة تحت خط الاستواء . وهذا ما ثبتت ديمومة البرد في الطبقات العليا من الرقيق . واذا ما تسنا التفاعيل المشتركة الناشئة عن الاحوال المختلفة تبين لنا انها تفسر معظم الحوادث التي تتولى تفصيلها . ولما كان هواء المناطق القطبية لبرد واوزن مما هو عليه في منطقة الاعتدال ، وجب ان يحدث ، بفعل ناموس التوازن ، ضغطاً على الهواء يسوفه من القطبين صوب خط الاستواء . وهذا يقوم للتعبيل على الوقائع ، لان جميع الرحالين قد تبينوا ان الرياح في نصفي الكرة الشمالي والجنوبي تنطلق من دائرة الافق التي يقع القطب في وسطها ، اي من الناحية الواقعة بين الشمال الغربي والشمال الشرقي . ويأثّر هذا ما يحدث في البحر المتوسط بوجه خاص .

لقد اشرت ، في معرض حديثي عن مصر ، ان دائرة الرياح الشمالية اكثر تسلطاً من غيرها على ذلك البحر . وتفسير هذا الحادث هو ان الشمس في ساحل بلاد المغرب تهبّ الهواء الذي يغطيه . فيرتفع هذا الهواء المتبدد او ينجم صوب اليابسة . واذا يجد هواء البحر ضعف المقاومة من هذه الجهة فهو ينطلق نحوها للحال . ولكنه يسخن بدوره ويتبع الهواء الاول . وهكذا دواليك حتى يفرغ المتوسط من الهواء .

واذا يقتصر الهواء الجاثم فوق أوروبا الى سند من هذه الجهة فهو ينساق فيها ، ولا يلبث ان يسير في هذا الاتجاه بحري شامل

تزداد شدته بمقدار برودة الهواء الشمالي . وهذا هو سبب الرياح
الموجاه التي تهب في الشتاء اكثر من هبوبها في الصيف . وتخف
شدته بمقدار ما تتعادل اهوية تلك المناطق . وهذا هو سبب
الرياح المعتدلة في الفصل الجليل ، تلك الرياح التي تفضي خلال غور
واقب الى سكون شامل ، اذ تكون الشمس اكثر مجاورة لنا
وتلقي الدفء بدرجات تكاد تكون متعادلة في مجمل نصف الكرة
حتى القطب .

ان هذا المجرى الثابت المثلث الذي تسلكه الريح الشمالية
الغربية خلال حزيران متأث من ان الشمس بتقريبها من موازاة احوان
والجزر الخالدات Canaries تحدث ما وراء الاطلس حركة
استنشاق منتظمة . ان لعودة الرياح الشرقية بصورة دورية على
اثر الاعتدال الحريفي او الربيعي سبباً آخر جغرافياً . ولكي
نتبين هذا السبب وجب ان يكون في متناولنا صورة شاملة لما
يجري في الامكنة الاخرى من الفارة ، وانه لامر يفوتني ، كما
واني اجعل سبباً لاستمرار الرياح الجنوبية والشمالية ثلاثة ايام في
ايمان الاعتدالات .

وثمة اختلاف في سير الرياح الواحدة ينشأ عن طبيعة الارض ،
بمعنى ان الريح اذا انتهت الى واد سارت في اتجاهه على غرار
المجاري البحرية . وهذا ولا شك ما يفسر لنا ان ساحل الجبلج
الادرياتيكي يكاد لا يعرف من الرياح الا الشمالية الغربية والجنوبية
الشرقية ، لان هذا الساعد الممتد في البحر يسير في ذلك الاتجاه .
ولسبب كهذا تتحول جميع الرياح على البحر الاحمر الى شمالية او
جنوبية .

وإذا كانت الريح الشمالية الغربية كثيرة المهبوب في مقاطعة بروفنسيا ، فما كان ذلك إلا لان مجاري الهواء المهابطة من جبال سيفان والالب مكرهة على ان تتحى " الرون " في واديه . ولكن ما هو مصدر الركام الفوائي الذي يجذب الساحل الافريقي والمنطقة الحارة ؟ على هذا السؤال جوابان :
الاول :

عند وصول الهواء الى درجات العرض هذه يحدث بحري ريع شرقية تهب من دائرة الانقلاب وتسلط من الجزر الحارلات حتى اميركا^١ ، فاذا ما بلغت القارة واعترضتها الجبال ، تحولت عن وجهتها الاولى واصبحت غربية في موازاة كندا .
الثاني :

ان الهواء المندفع من البحر المتوسط الى افريقيا يتمدد بفعل الحرارة ويرتفع الى الطبقة العليا . ويمكنه اذا بلغ بعض الارتفاع يكثف ويتفاض حجه . وقد يقال عندئذ انه يجب ان

١ لقد حسب السيد فونكلان ان سبب هذه الريح دوران الارض : ولكن اذا صح ذلك ، لم لا تكون الريح الشرقية دالة ، وكيف نفسر عندئذ طلوع الرياحين الدوريين الهابطين على الهند والمتعاقبين عليها قبل مرور الشمس في خط الاستواء وبعبءه ، يعني ان الرياح الغربية والجنوبية تسودها طوال السنة الا شهر التي تفضيها الشمس في المنطقة الشمالية ، والرياح الشرقية والشمالية تسيطر فيها مدة السنة الا شهر الاخرى التي تكون فيها الشمس في المنطقة الجنوبية .

الا تدل هذه العلاقة على ان اعراض الرياح مردها الى فعل الشمس في جو القارة والى هذا الفعل فقط ؟ ويجوز ان يكون القمر مفعول على الرياح كمفعوله على الاوتابورس ، ولكن تأثير سائر الكواكب عليها ضرب من الاوهام خفيق بفلكيات الاقدمين ...

يبيط الى اسفل بسبب انه استعاد وزنه . ولكنه فضلاً عن انه لو اقترب من الارض لاسترجع الحرارة وعاد الى التمدد ، فهو يكابد من الهواء الاسفل جهداً شديداً متواصلاً بسنده . فهاتان الطبقتان من الهواء الاعلى البارد والهواء الاسفل المتمدد في صراع مستمر ، فاذا ما اختلف التوازن بينهما ، سقط الهواء الاعلى بضغط ثقله على المنطقة السفلى حتى الارض .

ان تلك الاعراض هي التي تكون سبباً في ما نشاهده من الاعاصير التي يلوح انها تسقط من السماء وتنقل ، في اكثر الفصول حرارة الى اكثر المناطق قبلاً ، برودة المناطق القطبية وقرها . فاذا ما فارمها الهواء المحيط بها اقتصر فعلها على مدى معين محدود . اما اذا جادفت بحاري وتيارات سابقة لها فهي تزيد في شدتها وتستحيل عواصف تستمر ساعات طوالاً .

وتكون هذه العواصف جافة الريح اذا كان الهواء صافياً ، اما اذا كان مثقلاً بالغيوم فيرافقها سيل عرم من الامطار والبرد الذي يتجدد عند سقوطه بفعل الهواء البارد .

وقد يحدث في مكان الاخلال الذي الممت الى سقوط امطار متواصل تنضم اليها السحب المحيطة بها ، فتنتج عن امتزاجها تلك العواصف المائية المسماة بالاعاصير والزوايع . وما كانت هذه الاعاصير نادرة على ساحل سوريا . ويلاحظ انها اكثر ما تحصل في جو عاصف كثيف الغيوم .

وكثيراً ما يحدث هذا في الجبال التي تبلغ بعض الارتفاع . فعندما تكسو الثلوج ذراها تهب فيها عواصف جارفة يسميها البحارة الرياح الثلجية ، ويقولون عندئذ ان الجبال تدافع عن

نفسها ، لان تلك الرياح تدفع من يقاربها من اية ناحية انما .
ان خليج ليون وخليج الاسكندرون على المتوسط مشهوران
بما يحدث فيها من هذه الاعراض .

والرياح التي تمب على السواحل ويسببها العاصفة رياح البر
يستند الناس بتفسيرها الى القواعد نفسها . ويلاحظ الملاحون في
المتوسط انها تمب تباراً من البحر وليسلاً من البر ، وانها شديدة
في السواحل المرتفعة ، فيما هي اخف على السواحل المنخفضة .
والسبب في ذلك ان الهواء الذي يمتد قارة بفعل حرارة النهار ،
ويكثف قارة اخرى بتأثير برد الليل ، يتعاقب على الصعود والهبوط
من الارض الى البحر ومنه اليها .

ان ما عاينته في سوريا من هذا القبيل ملموس حسياً . فان
وجه لبنان المقابل للبحر تغمره الشمس طوال النهار ابتداء من
الظهيرة بنوع خاص وتثير فيه حرارة تعدد الهواء الذي يغطي
السفح . واذ يصبح هذا الهواء خفيفاً يحتل ما بينه وبين
البحر من توازن ، فيزحه هذا ويطرده الى اعلى . ولكن الهواء
الذي يحتل مكانه يسخن بدوره ويمر في اثره . وهكذا دواليك
حتى يتكون تيار شبيه بالذي نعاينه في انابيب المدافئ والمدخن .
فاذا ما غابت الشمس توقف هذا العمل ، وبرد الجبل وكثف
هواؤه ، واصبح يتكاثفه اقل واوزن ، فيهب ويتكون منه تيار
ينحدر من السفح الى البحر ، حتى اذا طلع الصباح زال بطول
الشمس في الافق ، وعاد الى سيرته بالامس . وهو لا يتخطى
البحر الى ابعد من فرسخين او ثلاثة لان اندفاعه هابطاً يتلاشى
بقاومة الركام الهوائي الذي يقابله .

أما استمرار الهواء في البرّ فمردّه الى علو مهابطه وانحدارها ،
ومداه أكثر انشاعاً عند اقدام لبنان وسلسلة الجبال الشّالية ، لأن
الجبال في ذلك القسم أكثر ارتفاعاً واشد انحداراً والحق جواراً
بالبحر .

ونهب عند مصب نهر القاصمية رياح هوج مفاجئة ^١ ، لأن
أهواء يستجمع في وادي البقاع العميق وينطلق من مجراه الضيق
انطلاقه من قوّة الانابيب . وهو أخف على الساحل الفلسطيني
لأن الجبال هناك أقل ارتفاعاً ، يفصلها عن البحر سهل يراوح
عرضه بين أربعة فراسخ وخمسة . وهو منعدم في غزة وعلى
الساحل المصري حيث لا نجد في الأرض انحداراً يادياً . وهو
شديد في الصيف والضعف في الشتاء ، لأن الهواء قلما انتابه التدد
في هذا الفصل .

إن حاليّ الهواء البري والبحري هما السبب في احد الاعراض
الذي يلاحظه الناس منذ زمن بعيد ، عنيث به خاصّة الأرض
بوجه عام والجبال بنوع خاص ، في اجتذاب الغيوم . فالذي
نفسى له أن يراقب السواحل المتعددة يرى أن الغيوم ، وهي
تشكون دائماً في البحر ، ترحف بعدئذ صوب اليابسة في سير
مستمر ، ثم ترفى أعلى جبالها .

لقد شاء نفر من الفيزيين أن يفسروا هذه الظاهرة ، فاستدوها
الى خاصّة اجتذاب . بيد أن هذا « السبب الخفي » لم يكن يوماً
من الأيام أوضح من « سالف الارتعاب من الفراغ » . ففي

١ تبلغ هذه الرياح حداً من العنف ثقلب معه السفن مما كدت تجربته بنفسى .

قضيتنا من العوامل المادية ما يجلي سبب العارض الذي نحن في صدده ، غيب مبادئ توازن السوائل التي يدفع بموجبها ركام الهواء الثقيل ركام الهواء الخفيف الى اعلى . وفي الواقع ، لما كانت القارة اشد سخونة من البحر ، ولو تعادلا مستوي ، كان لا بد ان يقوم بينهما تيار ينقل الهواء (والغيوم) من البحر الى الارض . ونكتشف هذه الغيوم بفقدان حرارة الجبال ومبلغ قابليتها للاستنشاق . فاذا صادفت ارضاً سهلة متساوية فهي تنزلق عليها دون ان تتوقف ، لان هذه الارض حارة ايضاً ولا تقوم فيها عقية تعترض الغيوم ونكتشفها .

وهذا هو السبب في انعدام المطر او ندوره صيفاً في مصر وفي البادية العربية وافريقيا . ان هواء تلك المناطق حار منحد يطرد الغيوم لانها بخار ، ولان كل بخار يرتفع الى اعلى بفعل الهواء الحار .

تسبح هذه الغيوم في المنطقة الوسطى حيث يدفعها التيار الى اقسام القسارة المرتفعة . ويبرد هناك ونكتشف ثم تسحب اجزاؤها امطاراً او ثلوجاً . وفي الشتاء تخفض الغيوم حتى الحضيض بسبب برودة الارض وتنتشر عليها بشكل ضباب .

ونلاحظ في هذه البلاد ان السحب والضباب تقترب من الارض ليلاً فيما تبعد عنها نهاراً ، ذلك ان الشمس ما تزال تثير حرارة تدفعها . وقد خبرت ذلك في القاهرة في شهري تموز وآب من سنة ١٧٨٣ . فكثيراً ما كنا نشاهد الضباب عند بزوغ الشمس اذ درجة الحرارة سبع عشرة . وبعد انقضاء ساعتين ، عند ارتفاع الحرارة الى اربع وعشرين درجة ، كانت السحب فلا

صفحة السماء وتنطلق صوب الجنوب .

وفي الفترة نفسها ، اذ كنت عائداً من السويس بين الرابع والعشرين من تموز والسادس والعشرين منه ، غمرنا الضباب سعياً ليلتين قضيناها في الصحراء . ولكننا ما كنا نشارف وادي مصر عند انبثاق الفجر حتى رأيناه غارقاً في بحر من ضباب ساكن ما لبث ان تحرك ونعالي عند الناح النهار . وما بلغت الساعة الثامنة حتى تكشفت الارض جميعها وتبعثت في الهواء غيوم شبيهة كانت تصعد من الوادي .

وفي السنة التالية لاحظت الاعراض نفسها في بلاد الدروز ، فقد تسلطت الغيوم في اواخر حزيران ، وغزا السكان نكاثرها الى فيضان النيل في مصر . وكانت في الواقع تقبل من تلك الناحية في اتجاه الشمال الشرقي .

وعقب هذه الطفرة طفرة أخرى من الغيوم في اواخر تموز وخلال آب . فكانت السماء تنشح بالغيوم كل يوم حوالي الساعة الحادية عشرة من النهار وتجبج الشمس ، وتغير السحب ذروة صين ، فيما كان بعضها يتسلق السفوح ويتراكم بين حقول الكرمه واحراش الصنوبر . وكثيراً ما احاط بي ضباب ابيض رطب ، وفاتر كثيف كان يفوتني معه منظر الاشياء على فبعد اربع خطوات . وعند الساعة العاشرة او الحادية عشرة ليلاً كانت السماء تترع فناعها فتأتلق نجومها ويصفو ادبها الى ان تطلع الشمس ساطعة متوهجة ، ثم تآزف ساعة الظهيرة فتعود الحالة الى ما كانت عليه بالأمس .

وقد اقلقني هذا التكرار الذي كنت اجهل معه مصير

الركام من الغيوم . اجلس ، ان فساً منها كان يتخطى سلسلة
صين ، وكان من حقي الافتراض انه ينشبي الى انثيلبات او
البادية .

ولكن الغيوم التي كانت تسير على السفح عند مغيب الشمس ،
اي مصر هو مصيرها ، ونعرف انها لا تتلاشى في مطر او ندى ؟
لقد بدا لي ان استقصي السبب ، فرفيت قمة مجاورة ، واطلقت
بصري في الوادي وفي البحر متبهاً خطأ منحرفاً يطول الى خمسة
فراسخ ، ولبت اتوقب ما سيحدث . فلم أرا بادي . ذي بدء
الا بحيرة من الانجرة فوق المياه . وكان هذا الافق البحري
غامضاً ، في حين ان افق الجبال كان جلياً واضحاً . وكانت اشعة
الشمس تضيء هذا الضباب شيئاً فشيئاً فارى الغيوم تفصل من
هذا الركام وتبعد صوب الجبال لتعلوها طوال النهار .

وافترضت عندئذ ان هذه الغيوم التي رايتها ترفى على هذه
الصورة ، هي ، في فسمها الاكبر ، غيوم الامس التي توقفت عن
الصعود اذ جددتها الهواء البارد ودفعها ربيع البر الى البحر .
وفكرت انها استوقفت هناك طوال الليل ، حتى اذا هبت الريح
البحرية ساقتها صوب الجبل وحملت معظمها فوق الذروة لتذوب
اندياً في الصحراء او تضيع في هوائها الجاف .

قلت ان هذه الغيوم لا تأتي بالندى ، وقد لاحظت ان السماء
الغائمة اشح به من السماء الصافية . والندى في كل وقت وحال
اقل في الجبال منه على الساحل وفي مصر . وتفسير ذلك ان
الهواء لا يستطيع ان يرفع الى ذلك العلو ما يحمله من رطوبة
زائدة ، لان الندى انما هو تلك الرطوبة الزائدة التي يذيبها الهواء

الساخن نهاراً ثم نجمدها برودة المساء فتهمي بغزارة تريد بمقدار
القرب من البحر^١ . وهذا هو السبب في ان الرطوبة شديدة في
الدلتا واخف منها في داخل الصحراء على ما قيل لي . واذا
كانت الرطوبة لا تهمي عند احتجاب السماء فلأنها اتخذت شكل
الغيوم او لان الغيوم تحول دونها .

وفي احوال اخرى ، اذ السماء صافية ، ترى غيوماً تتفرق
وتتلاش كال دخان ، او تتجمع رفعا في نقطة معينة حتى تصبح
كتلاً عظيمة . وهذا ما يحدث بنوع خاص على ذرى لبنان .
والغيم يعلم تلك الذرى دليل للفلاحين على ربح غريبة وشيكة
المحبوب .

وكثيراً ما رأيت عند مغيب الشمس تلك الابخرة تعلق في
صخور نهر الكلب وتكاثف شيئاً فشيئاً حتى تملأ الوادي وكأنها
بحيرة فيه . ويقول السكان ان تلك الابخرة تتولد من الوادي .
والواقع ان هذا الوادي المنحصر المنقصر الى المياه او بكاد ، لا
يولد هذه الابخرة التي يصح الظن انها تسقط من الفلك ، عند
هبوط الليل ، مطراً خفيفاً يتراكم حتى يصبح بحيرة غائمة .
ان الضباب تفسره المبادئ نفسها . فلا ضباب في البلاد

١ وهذا الامر يحل قضية مطرحتي في بابا ، وهي تنحصر في هذا السؤال : لماذا
يمرق الناس في بابا على شاطئ البحر اكثر منهم في الرملة التي هي على مسافة ثلاثة فراسخ
في البر ؟

سبب ذلك ان هواء بابا الثقيل بالرطوبة لا يمتس انحرافات الجو الا ببطء ، فبا هو
اكثر نهماً في الرملة حيث يمتس تلك الانحرافات بسرعة . وهذا ما يفسر ايضاً ان ابخرة
التنفس مربة في مناخاتنا شتاء لا صيفاً .

الحارة النائية عن البحر ، او في فصول الصيف الجافة لاث
الهواء عندئذ لا يحمل رطوبة زائدة ، وايضا يظهر في الخريف
عقب الامطار ، حتى انه يبدو في الصيف على اثر الامطار
العاصفة ، اذ تكون الارض قد تلقت مادة للتبخر واصبحت
في درجة من البرودة نوائم التجمد .

وفي مناخاتنا يعلو الضباب الحقول ، وفلا الف الاراضي المحروقة .
ولا يندر ان ترى عند مغيب الشمس ستارا دخانياً على الاعشاب
لا يلبث ان ينتشر صعوداً وانساعاً . وسبب ذلك ان الاماكن
الرطبة البليدة تجمع من الميزات لتكتيف الابخرة الهامة ما لا يتوافر
في الاماكن الغبارية .

وفى اعتبارات عديدة تتعلق بتكوين هذه الابخرة وطبيعتها ،
تلك الابخرة التي هي هي نفسها وان سميت فوق الارض ضباباً
وفي الرفيع غبوماً ... وهي مسألة مسن اختصاص الكيمياء لا
يسعني ان انطرق اليها في هذا البحث . وسأقصر درسي على
ملاحظة اخيرة تتعلق بالرعد .

يحدث الرعد في الدلتا كما يحدث في سوريا ، مع الفرق انه في
الدلتا وسهل فلسطين نادر في الصيف كثير في الشتاء ، في حين
انه على الجبال قليل في الشتاء كثير في الصيف . وهو في كلا
البلدين يقصف في فصول الامطار التي توافق مواعيد الاعتدالات
واخصها الاعتدال الحريقي . ومن الجدير بالنظر انه لا يقبل قط
من اجواء اليابسة بل من البحر .

وتطلع الزواجع على الدلتا وسوريا من البحر المتوسط ١ .

١ اجل ما يحدث في الصيف من هذا القليل . اما الدلتا فالرعد والغيوم تغطيها من

ومواقيتهم المفضلة المساء والصبح^١ . وترافقها سبيل غزيرة ،
وفي بعض الاحيان ، زخات من البرد تغطي الحقول ببحيرات
صغيرة في سحابة سابعة من الزمن . فهذه الاحوال ، وانحصها التلازم
بين الغيوم والرعد ، تؤول بنا الى التعليل التالي :

اذا كان الرعد ينشأ دائماً مع الغيوم ، وكان بحاجة مطلقة الى
واسطتها ليظهر ، فهو ناتج ، والحالة هذه ، من بعض عناصرها . واذن
كيف تتكون الغيوم ؟ انما تتكون من تبخر المياه . وكيف
يحصل التبخر ؟ انه يحصل من وجود عنصر النار .

ليس الماء بمجد ذاته قابلية التبخر ، بل يقتضي تبخره وجود
عامل ، وهذا العامل هو النار . وهذا ما يزيد القول ان التبخر
يكون بنسبة تفاعل الحرارة والماء . فكل ذرة ماء تبخرها ذرة
نار فتتزوج بهما ولا شك ذرة هواء . والغيوم ، وهذا تركيبها ،
نسج في الهواء حتى تطرا عليها احوال خاصة تذيبها . فاذا
اعتوضها عامل من شأنه ان يفتكك فتأزج ذراتها فجأة ، تفجرت
بدوي وبرق . فتضمحل منها مادة النار فوراً ولا يبقى من
الاجزاء المتأزجة الا الماء ، فيسقط من العلو الذي ارتفع اليه .
وهذا ما يفسر تلك الامطار الشديدة التي تعقب فصف الرعود
وتمطل عادة عند انتهاء الزوايع وتلاشي مادة النار .

البحر الاحمر احياناً . ويوم غادرت القاهرة في السادس والعشرين من شهر ابلول سنة
١٧٨٣ ، جت عليها عند هبوط الليل زوبعة من الجنوب الشرقي ترافقها الرعود ، ثم هطل
برد شديد من الحجم الكبير المستدير ، طوال عشر دقائق او اثني عشرة . فسنى لي مع
الرفاق ان غلاماً من كوبيين واسعين وتقول اننا حوثة الجليد في مصر .
١ وقد لاحظ ليظهر في موكا ويومبائي ان الزوايع تطالع من البحر دائماً .

وقد تتزوج مادة النار بالهواء وحده فتحدث ذلك البروق الذي
نسبها نيران الاق. ولكن هل ان مادة النار هذه تتميز عن
المادة الكهربائية؟ وهل يخضع امتزاجها وتفجرها الى قوانين
خاصة؟ هذا ما لا احاول بحثه ، لان هذه الابحاث لا تؤاينها
روايات السفر . وحسي ان اكون قد اقتصررت على الوقائع
واستخلصت منها الشروح التي افترضتها طبيعة الحال ^١ .

^١ يبدو ان النيازك مزيج تاريخي من نوع خاص . لقد اكد لي موارنة « مـار
الباس » ان احد تلك النيازك سقط منذ ثلاث سنوات على بعلبي الدبر فقتلها ، واحدث
انقباضاً يشبه انفجار القنارة .

القسم الرابع

الحالة السياسية في سوريا

الفصل الثاني والعشرون

سكان سوريا

تعرضت سوريا منذ غابر الأزمان لاضطرابات أدت إلى تآزج اجناس سكانها . وتعاقبت عليها في خلال الفين وخمسمائة سنة عشرة فتوحات دخلت معها على التوالي شعوب غربية أولها آشوريو نينوى الذين عبروا الفرات حوالي السنة ٧٥٠ قبل المسيح واستولوا على مجمل البلاد الواقعة شمالي اليهودية . وعقبهم كلدانيو بابل بحق السيف وافتتحوا سائر سوريا ما خلا مدينة صور . ثم تعاقب على البلاد فرس كسرى ، فيقدونيو الاسكندر .

ولاح عندئذ ان سوريا شتمت من عبودية الاجانب وانها ستنعم بحكومة خاصة يفرضها حقها الطبيعي . بيد ان الشعوب ، التي لم نجد في السلوقيين الا طففاة فساد ، رأت ، وقد فرضت عليها الانيار ، ان تختار اخفها وظافة ، فاصبحت بقوة سلاح بومبايوس احدى ولايات الامبراطورية الرومانية .

وبعد انقضاء خمسة قرون ، اذ تقاسم ابناء ثيودوسيوس تراثهم المتراكمي الاطراف ، ضمت سوريا الى امبراطورية القسطنطينية . وكانت هذه حالها عندما فتحها العرب تحت راية محمد . ومزقتها

منذ ذلك العهد الحروب الاهلية التي ثارت في عهد الامويين والفاطميين . ثم تنازعها على النواقي الصليبيون والمماليك والتتر ، حتى استقرت اخيراً في يد الاتراك العثمانيين الذين هم اسيادها منذ مائتين وثمانين سنة .

ونجم عن ذلك الاضطرابات المتتالية ان سوريا لم يبق فيها الا رواسب من الناس لمختلفي العناصر ، بنوع انه لا يحسوز النظر اليها كامة واحدة بل كمزيج اعم مختلفة . ويمكن تقسيم تلك الشعوب طبقات ثلاثاً :

١ - ذراري الشعب الذي سبق فتح العرب وهم الروم .

٢ - ذراري العرب الفاتحين .

٣ - الشعب المسيطر الآن وهم الاتراك العثمانيون .

ويجدر ان يقسم اهل الطبقة الاولى الى :

١ - روم منشقين اي منفصلين عن شراكة رومه .

٢ - روم لاتين متحدون برومه .

٣ - موارنة من اتبباع الراهب مارون ، كانوا مستقلين

عن الفتيين السابقين وانضموا الآن الى الثانية .

ويجب ان يقسم العرب الى :

١ - ذراري الفاتحين وهم القسم الاكبر .

٢ - المتأولة ومختلفون عنهم بذهبهم الديني .

٣ - الندروز المتميزون بذهب خاص .

٤ - النصيريين وهم متفرعون ايضاً من العرب .

وثمة شعوب ثلاثة من الرعاة الرحل هم التركمان والاككواد

وعرب البادية .

هذه هي اجناس الشعوب المنتشرة في البقاع الممتدة بين البحر
والصحراء من غزة حتى الاسكندرون .

والجدير بالنظر انه لم تبق من الشعوب القديمة سمات بارزة ،
فقد اختلطت ميزاتهم بميزات الروم الذين استقروا في البلاد منذ
عهد الاسكندر وامتزجوا بطول الزمن بسكان البلاد امتزاجاً
شديداً . فقد احتفظت الارض وحدها ، فضلاً عن بقايا عادات
واخلاق ، بآثار العصور الغابرة .

ان سوريا لم توجد ، شأن مصر ، ابوابها دون الامم الغريبة ،
فقد امتزجت بالغرباء ، دماً وطبعاً . وجرى هذا التجنيس وفق
النواميس التي سيرته في جنوبي اوروبا في ما عدا الفوارق الناجمة
عن طبيعة المناخ الذي يجعل سكان السهول الجنوبية اشد سمره
من اهل الجبال .

ولا يختلف لون الوجه في لبنان وبلاد الدروز عنه في الولايات
الفرنسية الوسطى . يطري الناس كثيراً بياض نساء دمشق
وطرابلس وفسطاطين المتناسقة . ونحن من هذا القبيل نصدق الامر
بالاعتماد على النواتر ، لان الحجاب الذي يبرقعن به بحول دون
النسب والملاحظة . والقرويات في بعض المقاطعات اقل توسوساً
من الأول ، ولسن دونهن عفة واحتشاماً . ففي فلسطين مثلاً تبدو
المتزوجات سوافر . بيد ان الشقاء والشظف قد محبا مسحة الحسن
عن سيائهن ولم يبق الا على جمال العيون . وثباهن الغضاضة لا
تحول دون غير الرائي حركات اجسادهن التي تدل على شكل
القوام ، فهو تعوزه الرشاقة على كونه متناسب الاعضاء . ولا
ادكر اني شاهدت في سوريا وحتى في مصر احديين اثنين او

مسيحيين .

بيد انه من النادر ان ترى هناك القمامات المشبعة التي نرغب فيها ، لانها غير مستحبة في الشرق حيث تلجأ الفتيات منذ الحداثة الى وصفات غريبة فكسبهن البدانة ، وذلك برأي امهاتهن . على ان الطبيعة تضع لحسن الطالع حداً قوي الانفس وثقارمه ، فنلاحظ ان الاجسام في سوريا حيث لا يشد القوام ليست أضخم منها في فرنسا حيث يبالغون في شدة وقصيقه .

ان السوريين معتدلو القمامات غامة ، وهم شأن سكان البلاد الحارة دون سكان الشمال بدانة . على انك تجد بين سكان المدن من الناس من تدل ضخامة بطونهم على ان الغذاء يوازن المناخ . وليس في سوريا مرض خاص بها الا حبة حلب التي شأنكلم عنها فيما البحث شؤون هذه المدينة . امسا الادواء الاخرى فهي الزحار والحجيات الناشئة عن تعاطي التمار الرديئة التي يأكلها الشعب بنهم . وهناك الجدري وغالباً ما يكون كثير القسك بالارواح . امسا الداء الشامل المعتاد فهو مرض المعدة . وسببه الافراط في اكل الاثار الفجة والخضار النيئة ، فضلاً عن العسل والجبن والزيتون والزيت واللبن الرائب والحليب الرديء . الاختار ، وهي المأكول العادية التي يقات بها الجميع . ومن صيانتها انبسا تولد احماضاً تؤذي الى حرقا الفم والقيء وافراز الصفراء .

واللغة المسألوفة في سوريا هي العربية . وقد ذكر نيبوهر ، بالاستناد الى ما سمع ، ان اللغة السريانية ما برحت تستعمل في بعض قرى الجبل . على اني لم اثبت في هذا الامر ، على كوني استفسرته بعض الرهبان الذين يعرفون البلاد معرفة قامة . غير انه

قبل لي ان سكان معلولة وصيدونيا الواقعتين على مقربة من دمشق يستعملون لغة فاسدة يصعب على المستمع فهمها . ولكن ذلك لا يعني شيئاً ، لان اللهجات في سوريا وفي سائر البلاد العربية تختلف من محل الى آخر . ويصح القول اذاً ان اللغة السريانية اصبحت مينة بالنسبة الى هذه المقاطعات . ان الموازنة الذين احتفظوا بها في طقسياتهم لا يفهم معظمهم منها شيئاً فيما يقرأونها . وهذا هو شأن اللغة البوذية . والرهبان والكهنة ، منشفين كانوا او كاثوليكين ، لا يفهمونها الا الذين درسوها دراسة خاصة في جزر الارخبيل . ومن المعلوم ان البوذية الحديثة قد نشوت الى حد انه لا تكفي معرفتها لمن يريد ان يقرأ ديموسين ، كما ان اللغة الايطالية لا المقي نوراً على لغة شيشرون .

اما اللغة التركية فلا يستعملها في سوريا الا رجال الحرب والحكومة والقبائل التركمانية ، ويتعلمها بعض سكان البلاد لحاجة مناجرتهم كما يتعلم الاتراك اللغة العربية . على ان بين هاتين اللغتين من التنافر من حيث اللفظ والنبرات ما يجعلهما غريبين الواحدة عن الاخرى . فلفظ الاتراك ترافقه غنة وجزالة . وهم من اجل ذلك يجدون صعوبة في تقليد اللغة العربية باجراسها الحادة واستشاقاتها الشديدة . ففي هذه اللغة من الاحرف المصوتة والحلقية ما اذا سمعته لأول مرة خيل اليك ان هناك قوماً يتفرغون . وهذه الميزة تجعلها شاقة المتناول على الاوروبيين . على اننا لو شكونا الى العرب خشونة لغتهم لانهمونا باننا نفتقر الى اذنة صادقة . واللغة الايطالية هي المفضلة عندهم . وهم يشبهون اللغة الافرنسية بالتركية والانكليزية بالفارسية . ولهجاتهم مختلفة . فاللغة العربية في سوريا

أكثر خشونة منها في مصر . فاللفظ عند أهل الشريعة في القاهرة
مثال السهولة والسهولة . على أن نبيوه لاحظ أن لفظ سكان البين
والشاطىء الجنوبي أكثر عذوبة ، وهو يضاف على اللغة العربية
سلاسة وانجاساً .

لقد شاء البعض أن يجد علاقة بين اللهجات واللهجات .
فيقولون مثلاً أن سكان الشمال أكثر من أهل الجنوب لاجتماعاً
على الشفاء والاسنان في محارج الحروف . وقد يكون ذلك صحيحاً
إذا اقتصرنا على بعض أجزاء القراءة ، لأن التعميم في هذا الحكم
يقضي ملاحظات أكثر شمولاً واتساعاً . فالتحفظ أجدر عند إطلاق
الحكم على اللغات وبما أن المرء يحول على تعليل الأمور
بالاستناد إلى لغته وبالنسبة إلى وهم شيء عن العادة يصير بصحة
التفكير والتعليل .

أن بين سكان سوريا الذين تحدث عنهم من هم منشرون في
مختلف أنحاء ، فيما نجد شعوباً منهم محصورة في أماكن معينة بتعبين
عليها تحديدًا ، فالروم والآتراك والعرب القرويون يدخلون في الفئة
الأولى ، مع الفرق أن الآتراك لا يقبلون إلا في المدن حيث
يأوسون شؤون الحرب والقضاء والصناعة . أما العرب والروم فهم
يقطنون القرى حيث تنألف منهم طبقة الحراث في الأرياف وطبقة
السوق في المدن . وأكثر القرى المأهولة بالاروام تقع في ولاية
دمشق .

أما الروم الملكيون التابعون لروما فهم أقل عدداً من الروم
المنشقين ويقطنون المدن حيث يأوسون الصناعة والنجارة وقد
أحرزوا في كثير منها نفوذاً ظاهراً بفضل حماية الفرنجة لهم في الأماكن

التي تقوم فيها المكاتب التجارية الأوروبية .
ويؤلف الموازنة امة تكاد تستألف بجمال البلاد الواقعة بين نهر
الكلب والنهر البارد من فمم الجبال شرفاً حتى البحر المتوسط
غرباً .

وبجوارهم الدروز المنتشرون من نهر الكلب حتى ضواحي صور
بين وادي البقاع والبحر .

وكانت بلاد المناولة تشمل فيها قبل على وادي البقاع حتى صور .
على ان هذا الشعب قد كابد من الاضطرابات ما اضعف شأنه . اما
النصيريون فهم منتشرون في الجبال من نهر عكاو حتى انطاكية .
ومنهم شيع مختلفة كالكلبية والقدموسية والشمسية . وليس فالتركان
والاكرواد والبدو مقرات ثابتة . فهم متشردون ابدأ بحبس ايامهم
ومواشيهم في مناطق معينة يعتبرونها ملكاً لهم .

فالتركان يجتسئون عادة في سهول انطاكية ، والاكرواد في
الجبال القائمة بين الاسكندروت والقرات ، والعرب على النخوم
السورية الملاصقة لصحرائهم ، حتى انك تجدهم في السهول الداخلية
كهول فلسطين والبقاع والجليل .

ولكي نكون لنا فكرة اصغر وضوحاً عن هذه الشعوب
نرى ان نقسطن في شؤون كل منها .

الفصل الثالث والعشرون

الشموب الرعاة أو الرحل

النبتة الاولى

التركمان

التركمان طائفة من التتر نزلوا من شرقي بحر قزوين في ايام الثورات الكبرى التي هزت دولة الختاي ، وانتشروا في سهول ارمينيا وآسيا الصغرى .

ان لغتهم لغة الاتراك نفسها ، وطريقة معاشهم تكاد تشبه طريقة عرب البادية . فهم رعاة مثلهم يقطعون المسافات والفلوات سعياً وراء المراعي . بيد ان الاراضي التي يتزلونها واقرة الخصب والكثا . وهم من اجل ذلك اقل شتاً من قبائل الصحراء .

ويشكل عشيرة عندهم رئيس لا تستند سلطته الى الانظمة ، بل الى مألوف العادة والاحوال . وقبلما كان هذا الرئيس مستبداً لان جماعتهم منضامة يسود اعضاؤها شيء من المساواة . وكل رجل يستطيع حمل السلاح بحمله ، لان اعتباره وأمنه يقومان على قوته . وثروتهم جميعها في الماشي من ابل وجواميس وماعز واغنام . وغذاؤهم الالبان والزبدة واللحوم الوفيرة . وهم يبيعون ما يقبض عن حاجاتهم في المدن والقرى ، ويقايضون عليها بالسلعة واللبسة

والدراهم والحبوب . ونساؤهم يغزلن الصوف وينسجن السجاد ،
وهي صناعة يارسنها منذ القدم .

أما الرجال فتتخصص مشاغلهم في تدخين الغلايين وحراسة
المواشي . فتراهم أبداً على صهوات الجياد ، رمح على الكتف ،
وسيف معقوف إلى الجنب ، وغداة في النطاق : فرسان أشداء
ورجال حرب ذوي بأس وشكيلة . كثيراً ما ينشب النزاع بينهم
وبين الأتراك الذين يرهبون جانبهم . ولكن نخاذل قبائلهم يقف
حائلاً دون تفوقهم ، ذلك التفوق الذي كان مضموناً لهم لو تألفت
قواتهم متحدة .

وقفة ثلاثون ألف تركي في موزعون بين ولايتي حلب ودمشق ،
وعما الولايتان الوحيدتان اللتان يترددون إليهما . وينزح معظم
قبائلهم في الصيف إلى أرمينية وقرمانية حيث يتوافر الكلأ ، ثم
يعودون في الشتاء إلى مناطقهم المعتادة .

والتركان يدينون بالاسلام ، ولكنهم فلما حفلوا بالدين . أما
أخلاقهم فلا يعرف أمرها إلا من نسي له أن يعايشهم . ولكن
الشائع عنهم أنهم كالعرب في الكرم والضيافة . وهم في كفاف
من الرزق على غير غنى واسع ، منسوسون بالشدائد والحروب وفي
مأمن من فساد أهل المدن وذل سكان القرى .

النسبة الثانية

الأكرد

الأكرد جيل من الناس منتشرون قبائل في آسيا السفلى .
أما موطنهم الأصلي فالجبال التي تنبجس منها فروع دجلة ، تلك

الجبال المحذقة بشطر نهر الزاب الاعلى والممتدة جنوباً حتى تخوم
العراق الفارسي . وفي اصطلاح الجغرافيا الحديثة تسمى تلك البلاد
كردستان . وقد ورد ذكرها في اقدم التواريخ والاساطير
الشرقية التي جعلتها ساحة للحوادث الميثولوجية المتعددة .

روي بيروذ الكلداني ومريابا الاوتمي اللذان ورد ذكرهما في
تاريخ موسى الخوريني ان كزيسوتروس الذي نجا من الطوفان
قد استقر على جبال غوردداوي . وموقع هذه الجبال من البلاد
يبدل على ان كلمة غورد او كورد مشتقة من اسمها .

وذكر المؤرخ كزينوفون ان هؤلاء الاكراد على كونهم
محاطين بامبراطورية الفرس من كل النواحي قد استطاعوا كبح
جراح جنود الملك الاكبر ، ولم يتبدل مراسيم مع الزمن لانهم
قلما حفظوا حرمة السلطان والباشوات . ونجبرنا نيبوهر الذي زار
بلادهم في سنة ١٧٦٩ ان يحكمهم اقطاعية ، ولعلها على غرار
حكومة الدروز . فلكل قرية رئيس ، والامة منقسمة احزاباً
رئيسية ثلاثة مستقلة ادت المزارعات بينها الى حالة فوضى الفصل
معها من الشعب عدد كبير من القبائل والعشائر اختارت حياة
الترحال التي ألفها العرب والتركمانيون ، واقتشرت في ديار بكر
وسهل ارضروم وأربكان وسبواس وحلب ودمشق .

وبقدرون عدد خيامهم ثمانية واربعين الفا ينطلق منها مائة
واربعون الف مقاتل . والاكراد كالكركانيين وعامة رحل ، ولكنهم
يختلفون عنهم في بعض نواحي العادات . فالتركمان يهرون بجانهم
عند زواجهم . اما الاكراد فلا يسلمونهم الا لقاء مهر . ولا
يعترف التركمانيون بطبقة الاشراف ، فيما يجلبها الاكراد الاجلال

كله . والتوكانيون لا يعرفون الموصية . اما الاكراد فمن المانور
انهم فقطاع طرق ، ويرعب جانبهم من اجل ذلك سكنت حلب
وانطاكية لانهم منتشرون هناك في الجبال القائمة شرقي بيلان حتى
كاس حيث يعرفون باسم « البغدلية » . ويبلغ عدد خيامهم
واكواخهم في هذه الولاية وفي ولاية حلب عشرين ألفاً ،
ويعتبرون اسلاماً على كونهم لا يحفلون بمراسم الديانة .

وفئة شيعية منهم تعرف باليزيدية يؤثرونها انها تكرم الشيطان ،
وهي فكرة شائعة في ديار بكر وعند نخوم فارس . واعلموا اثر
من الطريقة القديمة القائمة على مبدئي الخير والشر التي ما برحت
تسود هذه الاصقاع .

واللغة الكردية تختل ثلاث لهجات ، وليس فيها كالعربية حروف
حلقية ، ويقولون انها لا تشبه الفارسية ، فهي اذن قائمة بذاتها .
واكن اذا القينا نظرة على جاهلية هذا الشعب وعلاقته بالاشوريين
والفرس وغيرهم ، حملنا ذلك على الاعتقاد بان معرفة هذه اللغة قد
تلقى بعض الضياء على التاريخ القديم في هذه البلاد .

الباب الثالث

عرب البادية

عزلاء القوم الرحل في سوريا ، سبق لي ان صادفتهم في مصر ،
والملت اليهم الماعز لطيفاً في حديثي عن هذه الولاية لاني عرفتهم
فيها معرفة عابرة سبيل يجمل لغتهم . اما في سوريا فقد تسنى لي
ان انزل خيامهم قرب غزة حيث عايشتهم بعض الزمن واستطعت

ان اعرف من امورهم ما سانبسط فيه الآن .
اذا تكلمت عن العرب وجب ان نميز بين الفلاحين والرعاة ،
لان الفرق في نط المعيشة بين كلا الفئتين يجعل بينهما فارقاً
اكبر في الاخلاق والسجايا فصيحان مع غريبتين الواحدة عن
الآخرى او تكاذبان .

اما اصحاب الفئة الاولى فاعمل اقامة متعلقون بالارض ومرتبون
بمكومات نظامية ، وحالتهم الاجتماعية تشبه في كثير من الوجوه
ما نحن فيه ، ومنهم اهل اليمن ، والناس الفاتحين القدماء الذين
بنالف منهم او من معظمهم سكان سوريا ومصر وبلاد المغرب .
واعمل الفئة الثانية لا تربطهم بالارض الا مصالحة عابرة ، فهم
ابداً في تنقل مع خيامهم ، ولا تعصمهم شريعة او نظام . وانهم
في وضع لا يصح القول معه انهم متحضرون او متوحشون .
هؤلاء هم البدو النازلون الصحارى المترامية الاطراف الممتدة من
نجوم فارس حتى شواطئ مراكش . وعلى كونهم منقسمين
جماعات او قبائل مستقلة كثيراً ما تكون متعادية ، فهم امية
واحدة . وثائل لغائهم دليل راهن على ارومتهم الواحدة . الا
ان قبائل افريقيا احسدت عهداً من شقيقتها لانها نشأت بعد
الفتوحات التي ثولاها خلفاء محمد ، في حين ان قبائل جزيرة العرب
تتد اصولها في القدم الى ابعد العصور . وستكون هذه الاخيرة
بنوع خاص موضوعاً لبحثي ، لانها اقرب منه ولان اسم العرب
مخصوص بها لتكونها اقدم جماعاتهم عدداً واصفاها نسباً .

ويضيفون الى هذا الاسم مرادفاً فيقولون « بدوي » اي ساكن
البادية . وهو مرادف صحيح لان لفظة « عرب » في لغاتهم القديمة

كانت تعني الفلاة أو البادية .

وما كانت مباهاة أهل البادية بظهارة المنصر وتقاء الأرومة مجردة عن الدليل . فهم لم يستخذوا يوماً لغانح ولا اختلطوا بغيرهم فاتحين ، لأن الفتوحات التي افتتحت باسمهم يعود شرف القيام بها إلى قبائل الحجاز واليمن . أما قبائل الداخل فلم ينسج النبي منها إلا نفر قليل دأبه الطمع . لذلك ينعت النبي في القرآن عرب البادية بالعصاة الكفرة . وهم الآن هم ، على مر الزمن ، محافظون باستقلالهم ، محافظون على مصالحهم الأولى . وما ذكرته التواريخ القديمة عن عاداتهم وأخلاقهم ولغاتهم وأوصافهم ما يرح يصح فيهم اليوم . فإذا أضفنا إلى ذلك تلك الوحدة في الطبع التي استمرت في إبعاد الأزمنة ونستمر الآن في إبعاد الأمكنة بمعنى أن القبائل على رغم تباعدها ما يرحت متائلة متشابهة ، نبيت لنا الفائدة من درس الظروف التي لا بدت هذه الحالة المعنوية الخاصة .

يصعب علينا في أوروبا ، وفي فرنسا بوجه خاص ، حيث لا نرى شعباً متأثرة ، أن نتصور ما يحمل الناس على هذا النمط من المعيشة ، حتى أننا نتصور بصعوبة ما هي الصحراء ، وكيف تأهل الأرض الجلباء .

إن هناك عاملين يدفعان بعض الشعوب الآسيوية إلى الترحل . فالعامل الأول طبيعة الأرض التي لا تصلح للزراعة ، مما يضطر الناس إلى اعتماد الحيوانات التي تقتع بالحشائش البرية . فإذا كانت الحشائش موزعة متفرقة استهلكها الحيوان الواحد في بقعة واسعة وقضت الضرورة عندئذ أن تجوب المواشي

واسعات الفاوت . تلك هي حالة العربان في صحراء الجزيرة
وفي صحراء افريقيا .

اما العامل الثاني فمناخ العادات ، لان الارض صالحة للزراعة
وخصبة في كثير من الاماكن عند تخوم سوريا وفي ديار بكر
ومعظم المناطق التي يتوحد اليها الاتراك والتركمان ، ولكن تلك
العادات هي نفسها ناشئة عن الحالة السياسية التي تسود البلاد ،
بحيث يصح القول ان الحكومة هي علة العطل . وهذا مما تثبته
الوقائع اليومية . فان العشائر والقبائل المتوحشة اذا وقعت على
بقعة تنعم بالسلم والسكينة مضاعفت الى كفاف الرزق ، فهي
تلبث فيها وتعمل المحراث . وانك ترى بالعكس ان الحكومة
اذا احدثت بالجزر على سكان قرية من القرى هجروها الى الجبال
او تشردوا في السهول محاذرين ان يستقروا في مكان قد يفتاؤون
فيه .

ويحدث كثيراً ان نفراً من الناس الغارين من متناول
الشرايع او المظالم يصبحون لصوصاً ، فيتضامون عصابت مسلحة
ويتكاثرون حتى تتألف منهم «اورضات» او قبائل جديدة ، ويصدق
القول اذن ان حياة الترحل عن الاراضي الخصبة سبباً فساد
الحكم ، لان الانسان ينزع بطبيعته الى الاستقرار واستغلال
الارض .

ويبدو ان العرب كتب عليهم التشرد بسبب طبيعة صحرائهم .
فلنستل نحت سماء صافية لاهية سهولاً شاسعة تضل الابصار في
قلوبها ولا تقع على شجر او جداول او منازل او جبال ، وقد
تنوء العين في آفاقها المنبسطة كالبحار . وفي اماكن تنحني فيها

الأرض بشموجات أو تشخص بينها الصخور أو دكام الحصى . وهي
أرض جرداء تخلخل عراهمها نباتات متفرقة وشجيرات عوسجية
مبعثرة هنا وهناك . وفلسا افلقت عزلتها الغزلان والأرانب أو
الجراد أو الجرذان .

فذلك هي البلاد الممتدة من حلب حتى جزيرة العرب ومن
مصر حتى خليج العجم على مسافة مائة فرسخ طولاً على ثلاثمائة
فرسخ عرضاً . وأبست القرية واحدة في هذه البقاع الفسيحة ،
بل هي خربة غضرة عند النفوس السورية وفي شواطئ الفرات ،
وجيرة بيضاء في الناحية الداخلية الجنوبية ، وصخرة في صحارى
التيه والحجاز ، ورومية في الجانب الشرقي من اليمن .

إن هذه الفروق في خصائص الأرض تلاقى مثلها في حالة
البدو . فنرى مثلاً أن القبائل ضيقة العدد متباعدة المضارب في
النواحي المجدية كصحراء السويس والبحر الأحمر والقسم الداخلي
من الصحراء الواسعة المسماة بنجد . والقبائل أكثر عدداً وتدانياً
حيث الأرض أكثر كسفاً ، وهي كذلك بين دمشق والفرات .
وفي المناطق الصالحة للزراعة كولاية حلب وحمص وعزة تكثر
الحجرات وتتقارب . فالبدو في الحالتين الأوليين وعاء صرف يقفزون
من نتاج مواشهم وشيء من النسر فضلاً عن اللحوم الطازجة أو
المجففة التي يستعملونها طهيئاً . وهم في الحالة الثانية يعنون بالزراعة
ويضيفون إلى ما كمل اللحم واللبن القمح والشعير وحتى الأرز .

وعند القحط في الصحراء تاجم عن افتقارهم إلى البياض
والأنهر . والحاجة إلى الماء ناشئة عن طبيعة الأرض ، فهي مسطحة
تؤلق الغيوم على وجهها الحار كما تؤلق عن مصر . ولا تستقر

فوقها الا في الشتاء عندما تحول برودة الجو دون ارتفاعها اليه
ولجوتها الى مضر . وعراء هذه الارض جيب جفافها ، فلو اكتسبت
بأحراش الصنوبر لتبدل فيها الحال والمناخ .

ومن حسنات الامطار انها تبسر امر الزراعة شتاء في الاراضي
التي لزائبيها . ولكن الامطار لا تكون المنتظمة ولا الجدول ،
فاذا اقبل الصيف رجع الجفاف الى سابق حاله . وقد حاول
السكان ان يتلافوا هذه الخدوش فاحتفروا الآبار والركابا ليضربوا
فيها مؤونة السنة من الماء ، ولكن تلك الانشاءات تقتضي اموالاً
وامحالات ، فضلاً عن تعرضها لشتى المخاطر . فقد تلفت الحرب في
يوم واحد عمل اشهر طويلاً وموارد السنة جميعاً . واذا حل
الجفاف ، وكثيراً ما يحل ، ذهب بالفلل وعم القحط ونضب
الماء . صحيح انك اذا حفرت الارض على اعماق معينة ، رأيت
الماء ينبجس تحت قدميك ، ولكنه ماء اجاج ضائع في بئر صحارى
جزيرة العرب وافريقيا ، وكثيراً ما ينضب فيتلاقى الظمأ والجحاة .
ولولا مساعدة الحكومة في هذا الصدد لافقرت القرى .

من البين ان الزراعة في بلاد كهذه محدودة المحاصيل ، وانه
من الاضيق لسكان يعيشون في ظل الحكومة التركية ان يعيشوا
أرحلاً لا زراعاً مقيمين . وفي المناطق الصخرية او الرملية كالتيه
والحجاز ونجد تنعش الامطار العوسج والشج والحوذان ، وينمو
القصب والاعشاب الغالجة في المستنقعات ، فيكتسي السهل حلة بهجة

١ ان ملوحة الماء ناجية عن طبيعة الارض وهي تنقل الى النبات ، ولكن مقدار
هذه الملوحة ينقص كلما اقتربت الارض من الجبال ، ولا ثبث ان تضعف .

خضراء ، فينعم القطعان والرعاة بالقيض والحير زمناً ، حتى يعود
القيظ ، فيجف كل شيء ، وتعود الأرض غبراء ناعمة لا تظهر
فوقها الا جذوع باسنة قاسية لا تفوى على رمبها الحيول ولا
الابقار حتى ولا الماعز .

وتصبح الصحراء عندئذ غير صالحة للسكن وينحجم هجرها ، لو لم
تقيض لها الطبيعة حيواناً يضاهي بصلابته وقساوته عقوق
الأرض وجديها ، غلبت الجمل . فما من حيوان مثله يتوافق مزاجه
ومناخها . فكان الطبيعة كيفته بأحوال البادية وميزاتها ، فأحلته
في بقاعها المجدية ، وكونته على وجه يستطیع معه مكابدة المشاق
ونحمل الجوع والظبا . فلم تعطه شكل البقرة ولا طبيعة الجمل
او الفيلة ، بل جعلت له رأساً صغيرة تعلو عنقاً طويلة لا لحم
فيها ، وجردت فرائده من كل عظم لا يساعده على الحركة ، وحبته
فكماً قوية يسحق فيها اصلب الطعام ، وحاذرت ان يأكل كثيراً
فضيقت معدته واجبرته على الاجترار . وكست قدمه بكفلة من
اللحم تعرضه للانزلاق على الوحول ونحوه دون نسلقه اي مرتفع
بحيث لا يمكنه ان يسلك الا ارضاً جافة رملية مستوية الاديم
كأرض جزيرة العرب . وكانها اعدته للمبودية فمنعت عنه الاتياب
وجردته من وسائل الدفاع . فما جعلت له قرن الثور ولا حافر
الفرس ولا سن الفيل ولا نخفة الايل ، فاي شيء يستطيعه الجمل
اذن لمقاومة الاسد او النمر او الذئب ؟

ونرى من اجل ذلك ان الطبيعة وارته ، محافظة على بقاء
جنسه ، في قلب الصحارى الواسعة حيث يحول انعدام النبات
دون اقبال الطرائد ، وبحول انعدام الطرائد دون اقتراب الضواري

المفتونة .

ولولا عصا الظالمين التي طردت الانسان من الارض الآهلة لما
فقد الجمل حريته ، ولكنه دجن واصبح الواسطة السكنى اجذب
الاراضي واعقها . فهو يسد حاجات اسياده جميعاً . فحليب الناقة
يغذي البدوي وعياله ، فمن لبن رائب الى جبن الى زبدة .
وكثيراً ما ينحرون الجمل الناساً للحمه ، ويصطنعون من جلده
النعال والامرجة ، ومن وبره الملابس والاخبية ، وينقلون على
ظهره اقل الاحمال . واذا ضنت الارض بالعلف على فرس البدوي
العزيزة عليه لم تضن عليه الناقة بالبن ، دون ان تطلب عوضاً
الا بعض العوسج والشيخ وشيئاً من النوى المسجوقة .

تلك هي اهمية الجمل الذي لولاه لما اعلنت البادية بأنسي .
وتلك هي الاحوال التي هيأتها الطبيعة للبدو لتجعل منهم جنساً
بشرياً متيزاً بطبيعته ، وتجعل السوريين ينظرون اليهم نظرتهم
الى قوم غير عاديين . ومن هؤلاء قبائل عنزة وخيبر وطى المتغلغلة
في البادية في منأى عن المدن ، وهي لا تقرب منها قط .

وفي ايام عمر الزاهر وصل بعض فرسانهم الى عكا فاثاروا
من الفضول بين السكان ما كان قد اثار مثله عندنا متوحشوا اميركا .
فكان الناس ينظرون بدهشة الى اولئك الرجال وهم انحف بنية
واخل جسماً وامد سواداً من اي بدوي عرفوه ، فشمه سيفان
جافة دقيقة ، وعراقيب دون ربلات ، وبطون لاصقة بالاصلاب ،
وشعر كشعر الزنوج مجعد . اما هم فكان كل شيء يدهشهم ، ولم
يكن باستطاعتهم ان يدركوا كيف ان البيوت والمآذن تبقى
منتحبة ، وكيف ينجرأ الناس على السكنى تحت سقوفها ، مستقرين

أبدأ في المكان الواحد . ولكن الذي اذهلهم بوجه خاص منظور
البحر ، هذه الصحراء المائية ، التي جاوزت افهامهم . وعيناً
حدثهم الناس عن الجوامع والصلاة والوضوء ، فكانوا يسألون ما
يعني كل هذا ، وما عسى ان يكون موسى والمسيح ومحمد ، ولم
لا يكون السكان قبائل متفرقة وانباع زعماء متناحضين .

بيد ان عرب الحدود ليسوا بهذا المقدار من فئة الاختيار .
فئة عشائر وادي البقاع ووادي الاردن وفلسطين التي تعيش في قلب
البلاد لا تختلف حالها عن حال الفلاحين . ولكن عرب الصحراء
يجتفرون هؤلاء على انهم غير الفلاحين وعبيد الاتراك .

والبدو عامة صفار القامات ، تخاف الابدان ، مسقعو الوجوه .
ولكن هذه الميزات اكثر وضوحاً فيهم في قلب الصحراء منها في
جوار البلاد المروثة . وهنا ايضاً تراعى ابرز فيهم ممسكاً هي في
جيرانهم الفلاحين . حتى انك تجد هذا الفرق نفسه في نزلاء القيم
الواحد . ولاحظت ان المشايخ وخدمهم اكثر بدانة واطول
قواماً من غيرهم . ومرة ذلك الى وفرة الغذاء عند اهل الفئة الاولى
وقلة عند اهل الفئة الثانية . ويصح القول ان البدوي العادي
يعيش في سقاء وشظف معتادين ، وقد لا يصدق عندنا ان ما يتناوله
البدوي من الطعام يومياً لا يجاوز زنة مائة وثلاثة وعشرين غراماً .
وهذا النقص يبلغ حده عند قبائل نجد والحجاز ، حيث يقطع
الرجل بست غرات او سبع مغموسة بالسمن المسبج وبعض اللبن

١ وهذا السبب يثير مفعوله ايضاً في القايمة بين الجمال العربية والجمال التركمانية .
فهذه الاخيرة تعيش في بقاع خصبة غنية بالمراعي مما جعلها اقوى عضلات واكثر لحمًا
من الاولى .

الخلو أو الرائب قوفاً ليومه . وبحسب نفسه معيبداً إذا اضاف
اليها بعض الدقيق الحشن او كتلة صغيرة من الارز .

وهم يحتفظون باللحم للاعباد الكبرى ، ولا ينحرون الجداء الا
في الاعراس او المآتم . ومن حق المشايخ الاثرياء ذوي السباح
وخدمهم ان يذبحوا صغار النوق ويأكلوا الارز مطبوخاً باللحم .
والبدوي لا يستكشف ايام القحط عن احقر الطعام . ومن هنا
نشأت عادة في الزهامة الجراد والجردان والحراذين والحيات مشوية ،
وفي التعدي على الحقول المزروعة وسلب المارة .

وهذا الغذاء الضئيل هو السبب في تخافة بنياتهم وعزال اجسامهم
التي هي اقرب الى الرشاقة منها الى الصلابة . وفي مزاجهم ما
يستوقف نظر الطبيب . فاجسادهم قليلة الافراز حتى في العرق ،
ودمهم يفتقر الى المطالة ، فلولا الحر الشديد لعدم سائلته . وهم مع
ذلك صجاج الابدان ، واقل تعرضاً للأمراض من سكان الحضر .

ومن البدوي اذن ان تلك القناعة في المعاش ليست فضيلة
محض اختيارية او ناجمة عن التسامح . لا شك ان الحرارة القصوى
التي فيها يعيشون تحث من نشاط المعدة وتجعل هذا الزهد شيئاً
مستطاعاً مبسوراً . ولا شك ايضاً ان اعتيادهم القحط يحول دون
تدد المعدة ويصبح وسيلة لهم لتكادته . بيد ان العامل الرئيسي
في تلك العادة هو ، شأنه عند غيرهم من الناس ، إما الضرورات
التي تفرضها عليهم طبيعة الارض ، على ما ذكرت ، وإما الحالة
الاجتماعية التي هم فيها على ما سأذكر .

قد مر بنا ان عرب البادية منقسمون قبائل ، فكل قبيلة
ارض تملكها . وهم لا يختلفون من هذا القبيل عن الشعوب

الزراعية الا يكون هذه الارض تمتد الى مدى اوسع يقتضيها
رعى القطعان على مدار السنة . ولكل قبيلة نجح او نجبات
موزعة في تلك البقاع التي يحجوب العربان اجزاءها تباعاً كلما جفت
المراعي . فلا يأهل من تلك الفلوات الا رقع تبدل من يوم الى
آخر ، ولكن القبيلة تجتازها في كل مداها استفادةً لواردها طوال
السنة . فمن تطاول على حدودها عند مشهكاً لحق الملكية . وهذا
ما لا يختلف عندهم عن شرعية الحقوق بين الامم . فاذا دخلت
قبيلة ارض غيرها عوملت معاملة اللص والعدو ، ونشبت الحرب .
ولما كان بعض القبائل مترابطاً بالنسب او الخلف فالحرب تشملها
عصباً واحلاًفاً .

وهذه طريقة الحرب عندهم : اذا بلغ الاعتداء مسامع القبيلة ،
امطى رجالها صهوات الجياد وتأتروا المعتدي . فاذا ما التقوه
فاوضوه ، وكنىوا ما نسالوا ، والا تمساجوا رجالة او فرساناً ،
وتقابلوا بالرماح المشرعة وقراموا بها على كونه طوية الساق .
وقلما تنازعوا الغلبة طويلاً ، فهي بنت الصدمة الاولى ، اذ يطلق
المغلوبون العنان لحيوهم ويدبرون في سهول البادية حتى يوارهم
الظلام .

اما القبيلة المغلوبة فهي تنزع مضاربها وتبتعد في سير حثيث
سعيّاً الى ملاذ لدى بعض احلافها . فيسوق الظافرون قطعانها
وينصرفون ، ولا تلبث ان تعود بعد الهزيمة الى مراتعها . بيد ان
القتال والتغلب تمتد نتائجهما في ما يعقبهما من احقاد تستمر معها
المنازعات . فتنة شريعة النار التي تفرض اقتداء دم القنيل بدم
القاتل ، وهو حق يؤول الى الضيق الناس باليت نسباً . فلبث

أهم الأذن بالتأخر لحق به العار ، وهو من أجل ذلك يترصد
الفرس للانتقام ، ولا يرضيه أن يهلك خصمه بفعل غيره ، فيتحول
بانتقامه إلى اقرب الناس من ذلك الخصم . وتنتقل هذه الاحقاد
كالآرث من الأب إلى الابناء ، ولا تحمد الا بالتقراض احد المتنازعين
او نوافقيهما على قتل المجرم او على قسبة من المال او المشايبة .
وفيما خلا هذه الترضية فلا صلح ولا مهادنة ولا مصاهرة بينها ،
وقد تمتد التقاطع الى قبيلتيهما ، فلا تعرض قضية او مسألة حتى
تتعارف ان بينهما دم ، وهذا الكلام بمثابة الدماء المنيع .
وتتعدد الحوادث على توالي الزمن ، فينتقل النزاع الى معظم
القبائل حتى يصح القول انها في حالة حرب معنادة . وهذه الحال ،
بالاضافة الى نكح معيشة البدو ، تجعل منهم شعباً حربيّاً ، على
كوتهم لا يفتنون فنون القتال .

وتقوم عيالتهم في شيد حلقة غير منظمة تعاقب حوفاً
خيالهم على خط واحد وفي ابعاد متفاوتة . وهي تسبح من وبر
الماعز او الابل . وألوانها سوداء او غبراء بخلاف اخية التركمان
الضاربة الى البياض . وتنصب على ثلاثة اوتاد او خمسة لا يزيد
علوها عن خمس اقدام او ست ، بما يجعلها مغطاة الشكل . وتبدو
هذه الخيمات على اليمد وكأنها تقع سوداء . ولكن البدوي يبصره
النافذ لا يخطئها ولا يفوته فيبصرها .

فكل عبة تقيم في خيمة بشرطها حجاب فاصل بين جزئها ،
واحدتها خاص بالساء . وفيه قسعة تقوم في حواشي الحلقة المحظرة
فيها المشايبة كل مساء . وليس هناك مناريس نعصم الخيم ، فجراسه
الكلاب ، وهي العسس ايضاً . وتبقى الخيول مرسجة معبدة

للكوب لدى اول نذير . ولكن حالة المحميات فوضى ، فلا نظام فيها ولا توزيع مهام ، فسهل مفاجئتها على من يهاجمها . ويؤدي ذلك الى ان كل يوم يشهد حوادث السلب والخطف التي هي شغل العرب الشاغل .

والحالة عند القبائل المجاورة الاتراك اشد غلغلاً واضطراباً ، لان هؤلاء العرباء يدعون ملكية البلاد بحق الفتح وينظرون الى العرب نظراً الى الانتماء المتعديين او الاعداء المقاتلين الخطرين ، فيشيرون في وجههم حرباً صامتة او معلنة . ولا يعدم الباشاوات وسيلة لاقلاقهم ، فتارة ينارعونهم ارضاً مستأجرة ، وتارة يكرهونهم على اداء جزية غير واجبة . واذا تخاصم شيخان على امر ، ظاهروا احدهما ثم الآخر حتى يقضيا على الاثنين معاً . واذا رهبوا جانب زعيم شجاع او حكيم اوقفوا به عن طريق السم او الحنجر ولو كان من احوالهم .

والعرب يعدون الاتراك مغتصبين خونة ، ويسعون ابداً الى ايذائهم . ولكن الابرياء يتحملون دون المذنبين سوء المآل . ويدفع الفلاحون غالباً ثمن ما جناه رجال الحرب ، اذ لا يكاد ينشب القتال حتى تنلف زروعهم ، وتنهب مواشيتهم ، وتقطع سبلهم ، ويقضى على تجارتهم . فيصبح الفلاحون : الى اللصوص ! وهم على صواب . ويطالب البدو بحق الحرب ، وقد لا يكونون ملومين . ومهما يكن من امر ، فما كانت هذه التعديات الا لتجعل بين البدو والمزارعين تباعداً نستحكم معه العداوة .

تلك هي حالة العرب في خارج بواديهم . فهي عرضة لشيء الطوارئ والاحداث بحسب ما يكون مسلك زعمائهم حسناً او

ردبشاً . وقد يحدث ان قبيلة ضعيفة الشأن يعظم شأنها وتنمو ، فيما
تنخفض قبيلة مرعوبة الجانب حتى يؤول امرها الى التلاشي ، ليس
بانقراض افرادها بل باندماجهم في قبيلة اخرى .

وتتألف القبيلة من بطن او بطون رئيسية يحمل افرادها لقب
الشيخ او السيد . وهي من هذا القبيل بمثابة اعيان روما في
الامس ، واشراف اوروىا اليوم . ويسودهم صاحب المقام الاول
فيهم ، ويولي جميع امورهم ، وقد يلقب بالامير . وكلما ازداد عدد
اقربائه واولاده واحلافه قويت شوكتة وعلا قدره . ويلتحق به
عدد من الخدم يصبحون عائلة عليه . وقد تنضم اليه اقفاذ اخرى
ضئيلة المقام تفتقر الى حماية وملاذ . ويسمى هذا التضم قبيلة ،
فيميزونها من غيرها باسم رئيسها وباسم العشيرة السائدة فيها . واذا
اشاروا الى افرادها نادوهم « اولاد فلان » وان لم يكونوا من
دمه وكان قد توفي منذ زمن بعيد . فيقولون : بني نعيم ، واولاد
طلي . وقد انتقل هذا الضرب من الكلام الى اسماء البلدان على
سبيل المجاز ، فقالوا اولاد مصر واولاد الشام ، وقد يقولون اولاد
فرنسا واولاد موسكو . وما كان هذا الامر خالفاً من الاهمية
لمن تولى الايقال في التاريخ القديم .

ان الحكم الذي يسود تلك الجماعة جمهوري وارستقراطي حتى
واستبدادي في وقت معاً . ولا يصح الجزم انه هذا او ذاك .
فهو جمهوري لان الشعب صاحب الكلمة الاولى في جميع القضايا ،
فلا يقضى بشيء الا برضى الغالبية وموافقها . وهو ارستقراطي
لان اسرة المشايخ تنعم بامتيازات تستند الى القوة . وهو
استبدادي لان للشيخ سلطة متناهية تكاد تكون مطلقة . فاذا

كان شديد المراس استطاع ان يتجاوزها . ولكن هذا التعسف يقف عند حدود ضبطها . فاذا اسى الشيخ مظلمة ، كانت يقتل عربياً ، فلا مفر له من العقاب ، ولا تحول رفعة مقامه دون تطبيق شريعة النار عليه . فاذا تمتع عن اداء فدية الدم قتل حياً ، وهو امر سهل على من يباشره .

واذا ارهق الشيخ رعاياه بقسوته تخلوا عنه الى قبيلة غيره . ويقتل اقرباؤه من السطاة فيخلعونه ليعطفوه . فلا يستطيع ان يستغفر عليهم العرباء ، او ان يعرفهم شعباً واحزاباً باغرائهم او دشوتهم . فهو لا يتفاضل للقبيلة مكوساً او ضرائب ، لان معظم رجالها في عسر حال ، في حين ان مسا بلكه زهيد متقل بالنفقات .

اجل ، ان الشيخ يدفع نفقات الذهاب والاياب ويستقبل الزائرين من حلفاء واصحاب مهابات ، ويقوم على مقربة من خبسته مضرب واسع يتزل فيه الغرباء وغايور السبيل ، وتعتقد فيه اجتماعات المشايخ بالاعيان للتفاوض في الوحييل او الإقامة ، وفي الصلح او الحرب ، وفي امر المشاكل مع الاثراك ، وفي فصل القضايا والمنازعات بين الافراد . وتقدم هذه الوفود القوية والحيز والارز ، وفي بعض الاحيان الجسدي او الجمل مشوباً . وخلاصة القول ، على الشيخ ان يكون واسع الدار ، مبسوط السباط . وتقرض عليه هذا الكرم ضرورة المحافظة على نفوذه وسلطانه ، فهما منوطان يبلغ سخائه وسماحه . والبهودوي الجائع يضع في رأس الفضائل فضيلة الكرم التي اوفر له الغذاء . وما كان هذا الاعتراف باطلاً ، فقد اثبت الاختيار ان المشايخ الاخساء لم يكونوا

يوما بعيدي النظر ، وهذا ما يبرر قوتهم : « كف متقبضة وقلب مغلق » .

وليس للشيخ ، بعد هذه النفقات ، الا قطعانه وبعض الحقول المزروعة ، وغشائه من الغزوات ، وبعض اثارى يتقاضاها عابري السبيل . وهو ربيع محدود ضئيل على ما ترى . ان الشيخ الذي قصدت اليه في غزه في اواخر سنة ١٧٨٤ كان بحسب اعظم مشائخ تلك الانحاء شوكة وجاهاً . على اني لم اتبين ان نفقاته تزيد على نفقات مزارع كبير . وكانت منقولاته عبارة عن اعباء وسجاد واسلحة وخيول وإبل لا تجاوز قيمتها خمسين الف ليرة ، مع الملاحظة ان ثمن الجمل الواحد عشر ذهبات فرنسية ، وثمن الخيول الاصلية الاربعة التي كانت له سنة الف ليرة . فاذا تحدثنا عن البدر ، والحالة هذه ، وجب الا نضلنا كلمة « الامير » او « المولى » . فبدلونها عندهم اقرب الى الحقيقة اذا قابلنا مشائخهم بمزارعي الجبال السليمي الطوبى الذين يمثلونهم في بساطة اللبس والحياة المنزلية والاخلاق .

ورب شيخ يقود خمسمائة فارس لا يستعصم من ان يسرح فرسه ويلجأ بنفسه او يقدم لها العلف تبناً وشعيراً . وامراته ، في خباته ، تعد الفيرة ، وتعيجن وتطهين ، وبتانه وقريبانه يغسلن الثياب ، ويذهبن الى العين منحيجات ، ويحملن قلى الماء على رؤوسهن ، كأنهن الصورة التي رسمها هوميروس والثوراة في قصة ابراهيم . وهي صورة يصعب على المرء ان يمتثلها ما لم يشاهدها عياناً .

١ لا تدري ما هي قبة النيرة في ذلك الزمان . واعلمنا قبة الفرنك . - العرب .

يقاس فقر البدوي بفقر رئيسه . وكل ما تملكه العشيرة
يتمتع به عادة بما يأتي : بعض الجمال والنوق والماعز والدجاج ،
والفرس مع سرجها ، والخيمة ، ورمح طويل ست عشرة قدماً ،
وسيف معقوف ، وبارودة صلبة بقذاحة أو الكرة ، وغليون ،
ومطبخة نقالة ، وفداز ، ونحوي من جلد ، ومحصة لبن ، وحصيرة ،
وبعض الالبسة ، وروءاء من الصوف الاسود . وثمة بعض الخلاخل
الزجاجية أو الفضية تحملها النساء في الذراع أو الساق . فإذا توافر
هذا كله كانت العشيرة في سعة من العيش .

ان ما يعوز البدوي في الدرجة الاولى الفرس ، فهي وسيلة
رزقه في الغزوات وقطع السبل ، وهي مفضلة عنده على الجواد
لانها لا تضل ، وانها اكثر طواعية منه ، فضلاً عما تدره لغارسها
من لبن يرتوي به عند الحاجة او يتخذ طعاماً .

والبدو بسبب ضيق معاشهم لا يتفنون الصناعات ، فهي بنسبة
حاجاتهم . وكل ما يعرفون منها نسج الاخشية والحصائر ، واستخراج
السمن . وتقتصر متاجرهم على مقايضة الجمال والماعز والاحصنة
والالبان بالاسلحة والالبسة وبعض الارز او القمح ، وشيء من
التفود يطورونه . وليس عندهم علوم ، ولا يملكون اي الماس بعلم
الفلك او الجبر او الطب . ولا يكتب عندهم قط . واندر ما
يعرفونه القراءة ، حتى الشيوخ منهم . ومدار البيان عندهم رواية
القصص والاعخبار كقصة الف ليلة وليلة مثلاً . وهم شغف خاص
بتلك الافاصيص ، فهي تملأ معظم اوقات الفراغ عندهم ، واطول
الفراغ عندهم طويلاً .

وفي المساء يجلسون على الارض عند باب الحباء ، او تحت اذا

كان الهواء بارداً ، فيجنيحون على شكل حلقة حول نار من الروث
المجفف ، والغلابين في افواههم . ويسترسلون بأدى ذى يده في
احلامهم صامتين . ثم يقطع احدهم السكوت فجأة ، فيبدأ بهذا
الكلام : « في ذلك الزمان وسالف العصر والاولان ... » حتى يأتي
على آخر قصة شيخ قتي وبدوبة نضرة ، فيخبر كيف لحها الفتي
للمرة الاولى خلعة وشغف بها . ثم يصف الجملة بحبيبها ،
ويطوي عذبا السوداءين الواسعتين الناعمتين كعيني الغزالة ،
ونظرها الكئيب المشتاق ، وحاجبيها المتعنيين وكأنها قوسان من
الآبنوس ، وقوامها اللين المستطيل كالرمح . ولا ينسى مشيتها
الرشيقة ، وفي كاذر الفتي ، وحديثها السودتين بالكحل ، وشفتيها
الموشومتين ، واظفارها المصبوغة بخضاب ذهبي ، وصدرها المشقل
برمانتين ، وكلامها وهو قطرات العسل .

ويذكر كيف تفعل الاشواق فعلها في الفتي الوهات فتضني
جسده حتى يصبح ظلاً هزيلاً . ثم يتبسط في تفاحيل محاولاته
ليحظى برؤيتها ، وتنتع اعليها ، وأمرها وأمره ، حتى ينتهي الى
الجمع بينهما سعيدين في خبائه .

وتقابل عندئذ اصوات السامعين : « ما شاء الله ! »

وللببدو اغنيات غرامية هي اقرب للطبع والشعور من اغنيات
الترك واهل الحضر . ذلك ان اولئك الغناء يعرفون الحب ، فيما
يستهلك هؤلاء للشهوات فلا يعرفون الا الاستمتاع . وكثيراً ما
قابلت بين حالة البدو القاطنين في الصحراء بنوع خاص ، وحالة
هنود اميركا ، فرأيت بين كليهما مشابة من عدة وجوه ، وفلت في
نفسي : لماذا لا نرى عند العربان شراسة هنود اميركا ؟ ولماذا لا

نجد عندهم هذا الميل لأكل اللحوم البشرية ، في حين أنهم يكابدون
القحط والمجاعات ؟ وما هو السبب في أن أخلاقهم اقرب الى
السلامة والامتزاج بالمجتمع ؟

واليكم الاسباب التي استخلصتها من واقع الحال :

ان اميركا غنية بالمراعي والبهيمات والغابات ، وما كان احراها
ان تكون بلاد الرعاة . ولكن غايتها ملاذ الحيوانات ، فهي تعصم
فيها بعيدة عن سلطة الانسان . والضدي من اجل ذلك مسوق
بطبيعة الارض الى الطراد والقصص ، فهو صياد لا راع . وقد
سامحت جميع عاداته الملازمة لحالته في صيورونه رجلاً جافياً
خشن الطباع ، واكسبت مشقات القصص جسمه صلابة وخشونة .
ويقتابه جوع شديد يسده فجأة بفيض من لحم الطرائد فيصبح
هيماً هيماً . وقد تعود سفك الدماء وتزريق الطريدة فألف القتل
ومشهد الالم . فاذا عذبه الجوع اشبهى اللحم . واذا برى لحم قريبه
في متناوله يأكله بسائق طبعه . وتبعث تجربته الاولى عادة تأصلت
فيه ، حتى أصبح سفاكاً شرساً ، وانتقلت الى نفسه غلاظة اعضائه .
اما حالة العربي فهي جد مختلفة ، لان الافداز رمنه في سهول
واسعة غاربة لا ماء فيها ولا غاب . فلم يكن له ان يصبح
صياداً لانعدام الطرائد في كل ما جاوره . وحمله الجمل على اعتياد
حياة الرعاة التي تألفت منها عناصر مزاجه . ورأى في متناوله
طعاماً كافياً مستوراً على كونه يسيراً ، فتعود القناعة . واكتفى
باللبن والنمر فلم يشته اللحم ولا سفك الدم . وما تعودت يده
القتل ، ولا ارتاحت اذناه الى انين الوجع ، واحتفظ بقلبه الانساني
الرفيق .

ولما عرف هذا الراعي الهجبي كيف يستخدم القوس تغيرت
حاله بعض الشيء ، وسهل عليه ان يقطع واسع الفلوات بسرعة
فاصبح متسرداً . وبعد ان كان جشعاً بسبب القحط اصبح لهما
بسبب الطمع . وعلى هذه الصورة استقر طبعه ، فهو نهاب اكثر
منه محارباً . وما كانت شجاعته دموية ، لانه لا يهاجم الا لاسباب .
فان لقي مقاومة لا يرى في الغلبة ما يبور المخاطرة بحياته . ولا
يبيح الا سفك دمه . فتراه عندئذ مقدماً على الانتقام ببأس يضاوي
حرصه السابق على تجنب الخطر .

وكثيراً ما نعدوا على العربان ميلهم الى الغزو . وانى وان
كنت لا اعذرهم عليه ارى انهم لا يغزون الا الغريب الذي يعتبرونه
عدواً . فالغزو يرتكز اذن الى سق مألوفة عند معظم الامم .

اما اجتمع عندهم فيسوده من الثقة والتجرد والكرم ما يشرف
اغرق الناس في الحضارة . ففى شيء هو اقبل من حق الضيافة
الذي تقدمه جميع قبائلهم ؟ اذا جاءهم غريب ، ولو كان عدواً ،
ومن خيمة البدوي ، اصبحت في حرز حرز . ومن العار والدنائة
ان يثار الاعرابي من ضيفه ، واذا رضي البدوي ان يؤاكل ضيفه
والجزء والمناج كان ذلك ميثاقاً على انه لا يخنونه ، فيحفظ عهده
ولا ينحول عنه .

ان السلطان ، على صولته وشوكة ، قد لا يستطيع استرداد
لاجبي في قبيلة ما لم يفن القبيلة عن بكرة ابيها . ان هذا

ضيوف العرب مثال ، فمنه المستجير ، وهو الذي يستعين بحسبانهم ، ومنهم
المطاب ، وهو من يتد اطاب خيمته في جوار خيامه . مكانه مبالغة .

البدوي الجشع خارج مخيمه ، ما انت تطأ قدماه حي فيلانه
 حتى يصبح جواداً سخياً . ومهما يكن ، ما يملكه زهيداً فهو
 يقاسم غيره عليه . وفيه من رقة الشئال ما يدفعه الى هذا السماع
 دون ما طلب . فاذا جلس الى الطعام ، لم يجلس الا عند
 مدخل خيمته ليدعو غايوي السبيل . وهو صادق في كرمه
 فلا يحسبه فضيلة يحمد عليها ، بل واجباً مفروضاً عليه . وتراه ،
 من اجل ذلك ، يأخذ من مال الآخرين ما خولهم من حق على
 ماله ، حتى تحسب انت طريقة المعيشة عند العرب يسودها
 نظام الشراكة في المكتنيات . بيد انهم يعرفون الملكية ، ولكنها
 لا تخضع عندهم لتلك الصرامة التي تنسبها عند القوم المزارعين
 بسبب اتساع حاجات الترف . وهم مدينون بتلك القناعة الى
 تعذر تنعمهم بكل ضرور الاستمتاع . على انه وانت تصكّن
 فضائل الجمهور عند العرب وليدة الضرورات والاحوال ، فما كانوا
 من اجل ذلك اقل جدارة بالتقدير والاعجاب . فحسبهم نعيماً
 ان تصكّن تلك الضرورات قد افامت عندهم طريقة حكم يرى
 عقلاء المشرعين انها افضل طرائقه ، غيت بها تلك المساواة في
 اقسام المال وتوزيع المراتب بين الطبقات . فهم ، وقد حرمتهم
 الطبيعة وجوه الاستمتاع التي جادت بها على غيرهم ، اقل
 تعرضاً لعوامل الفساد والمهانة ، حتى لبصعب على مشائخهم انت
 يجزّأوا من الجماعة نفراً يعمل على استعبادها واضعافها . واذا كان
 باستطاعة الفرد ان يكفي نفسه مؤونتها ، فهو يحتفظ بطابعه
 واستقلاله ، حتى يصح القول انه يجد في الفقر مصدر حريته العامة
 وضيائتها .

ان هذه الحرية تشمل الشؤون الدينية نفسها . فبين اهل الحضارة والبدولة من هذا القبيل فارق جدير بالنظر ، اذ بينا يكابد الاولون نيرين من الاستبداد السياسي والديني ، نرى ان الآخرين مُعْتَقِن من كليهما .

من البين ان البدو المتأخين للتراث ما برحوا ، من باب السياسة ، يحتفظون ببعض المظاهر المذهبية ، ولكن تمسكهم بها يشوبه التراخي وقلة الاعتداد ، مما يجعلهم في نظر سوام كفاراً لا شريعة لهم ولا انبياء . وهم يقولون دون محاباة : ان الدين لم يسن لامثالنا ، اذ كيف ينهانا الوضوء ولا ماء عندنا ؟ وكيف تؤدي الزكاة ولا مال لنا ؟ ولم نصوم رمضان ونحن نقضي السنة صياماً ؟ ولم نخرج الى مكة والله في كل مكان ؟

وكل منهم يتصرف بحسب هواه ويفكر وفق مشيئته . ويسودهم التسامح الناعم ، على ما تبين من حديث كان لي مع الشيخ احمد بن بكر زعيم العشيرة الواحدية .

فقد قال لي ذلك الشيخ : « ماذا ننوي الرجوع الى الفرنجة ما دمت لا تنفر من عاداتنا ، ونعرف معالجة الرمح ، وركوب الخيل ؟ فامكت عندنا ، نعظك عبا وخباء ، ونزوجهك بدوية ذات حسن وحشية ، ونهبك قرساً اصيلة ، وننزلك ربعا على الرحب والسعة . »

فقلت له : ألا تعلم اني ولدت بين الفرنجة ونشأت على دينهم ؟
فما عسى ان يظن العرب في رجل كافر جاحد ؟
فقال :

— ألا ترى ان العرب لا يأبهون لامور الدين ، وانما تتبع

طريق الضيق والوجدان ، فالاعمال للناس والدين لله .
وحدث ان شيخا آخر كنت في حديث معه وجه اليّ هذه
العبارة دون ان يتعمدها . قال : اسمع وصلي على النبي ، فعوضاً
عن ان اجيبه الجواب المعتاد : صليت ، قلت له مبتسماً : انني
مصغ اليك .

فأدرك الشيخ خطأه وتبسم هو ايضاً . وكان يسمع الحديث
تركي من القدس ، فقال وجدة في كلامه :
يا شيخ ، كيف توجه الى كافر كلاماً لا توجه الى غير
المؤمنين ؟

فأجابه الشيخ :

- هي زلة لسان . ولكن القلب سليم . اما انت الذي تعرف
عادات العرب فكيف يجوز لك ان تهين غريباً آكلاً الخبز
والملح ؟
ثم اتنى اليّ وقال :

- هل ان شعوب « فرنكستان » الذين حدثني عنهم ، والخارجيين
على دين الرسول ، هم اكثر عدداً من المسلمين ؟

فقلت : انهم سنة اضعاف المسلمين بما فيهم البدو ...

فقال : تعالى ربك العادل ، فهو يزن الاعمال في موازينه .
يجب الاقرار ان الامم المتحضرة قلما تعرفت الى خلقيات
كخلقيات عرب البادية الجذرة بالاعجاب . وانك تجد الفضائل
نفسها بين التركمان والاككراد ، ولعلها من خصائص حياة
الوعاة .

ومن الغريب ان هؤلاء القوم قلما اعتدوا براسم الدين الخارجية ،

فلا كهان ولا معابد ولا عبادة منتظمة عند البدو والتوكلان
والاكرااد .

وقد آن لنا الآن ان نتصرف الى وصف سائر الشعوب النازلة
بلاد سوريا ، ونعالج حالة اجنابية اخرى جد مختلفة .

المقدمة

٥	كلمة المعرب
٧	المقدمة

القسم الأول طبيعة مصر

١٢	الفصل الأول : مصر عامة ومدينة الاسكندرية
٢٢	الفصل الثاني : النيل واتساع الدلتا
٣٢	الفصل الثالث : ارتفاع الدلتا
٤٦	الفصل الرابع : في الرياح واعراضها
٤٩	السموم او الحمى
٥٣	الفصل الخامس : المناخ وانقواء

القسم الثاني

حالة مصر السياسية

٥٧	الفصل السادس : سكان مصر واجناسهم المختلفة
----	---

٧١	الفصل السابع : موجز تاريخ الممالك
٨٠	الفصل الثامن : موجز تاريخ علي بك
	الفصل التاسع : موجز الحوادث منذ موت علي بك
٩٧	حتى السنة ١٧٨٥
١٠٨	الفصل العاشر : الحالة الراهنة في مصر
١١٠	الفصل الحادي عشر : ميليشيا الممالك
١١٢	أفصة الممالك
١١٣	جهاز الممالك
١١٥	أسلحة الممالك
١١٦	تدريب الممالك وقوانينهم
١١٧	القن الحربي عند الممالك
١١٩	الانتظام عند الممالك
١٢١	آداب الممالك
١٢٣	الفصل الثاني عشر : حكومة الممالك
١٢٤	حالة الشعب في مصر
١٢٦	النقاء والنجاسة في السنوات الأخيرة
١٢٣	حالة الفنون والنفوس
١٣٥	الفصل الثالث عشر : حالة التجارة
	الفصل الرابع عشر : بوزخ السويس ومسألة اتصال البحر
١٣٨	الأحمر بالبحر المتوسط
١٤٤	الفصل الخامس عشر : الجمارك والضرائب
١٤٦	تجارة القطن في القاهرة

١٥٠	.	.	.	الفصل السادس عشر: مدينة القاهرة
١٥٢	.	.	.	سكان القاهرة والقطر المصري
١٥٤	.	.	.	الفصل السابع عشر: أمراض مصر
١٥٤	.	.	.	العمى
١٥٦	.	.	.	الجذري
١٦١	.	.	.	الطاعون
١٦٥	.	.	.	الفصل الثامن عشر:
١٦٥	.	.	.	صورة موجزة عن مصر
١٦٩	.	.	.	مبانيات الرحاين
١٧٢	.	.	.	الفصل التاسع عشر: الخرائب والأهرام

القسم الثالث

سوريا الطبيعية

١٨٠	.	.	.	الفصل العشرون: الجغرافيا والطبيعية
١٨١	.	.	.	منظر سوريا
١٨٢	.	.	.	البحال
١٨٧	.	.	.	طبيعة البحال
١٨٩	.	.	.	البراكين والزلازل
١٩٠	.	.	.	الجبال
١٩٣	.	.	.	الأنهار والبحيرات
١٩٥	.	.	.	المناخ
٢٠١	.	.	.	حيوانات الهواء

٢٠٢. خصائص المياه

٢٠٣ في الرياح

الفصل الحادي والعشرون : نظرة في عوارض الرياح والغيوم
والامطار والضبباب والصواعق ٢٠٦

القسم الرابع

الحالة السياسية في سوريا

٢٢٢ الفصل الثاني والعشرون : سكان سوريا

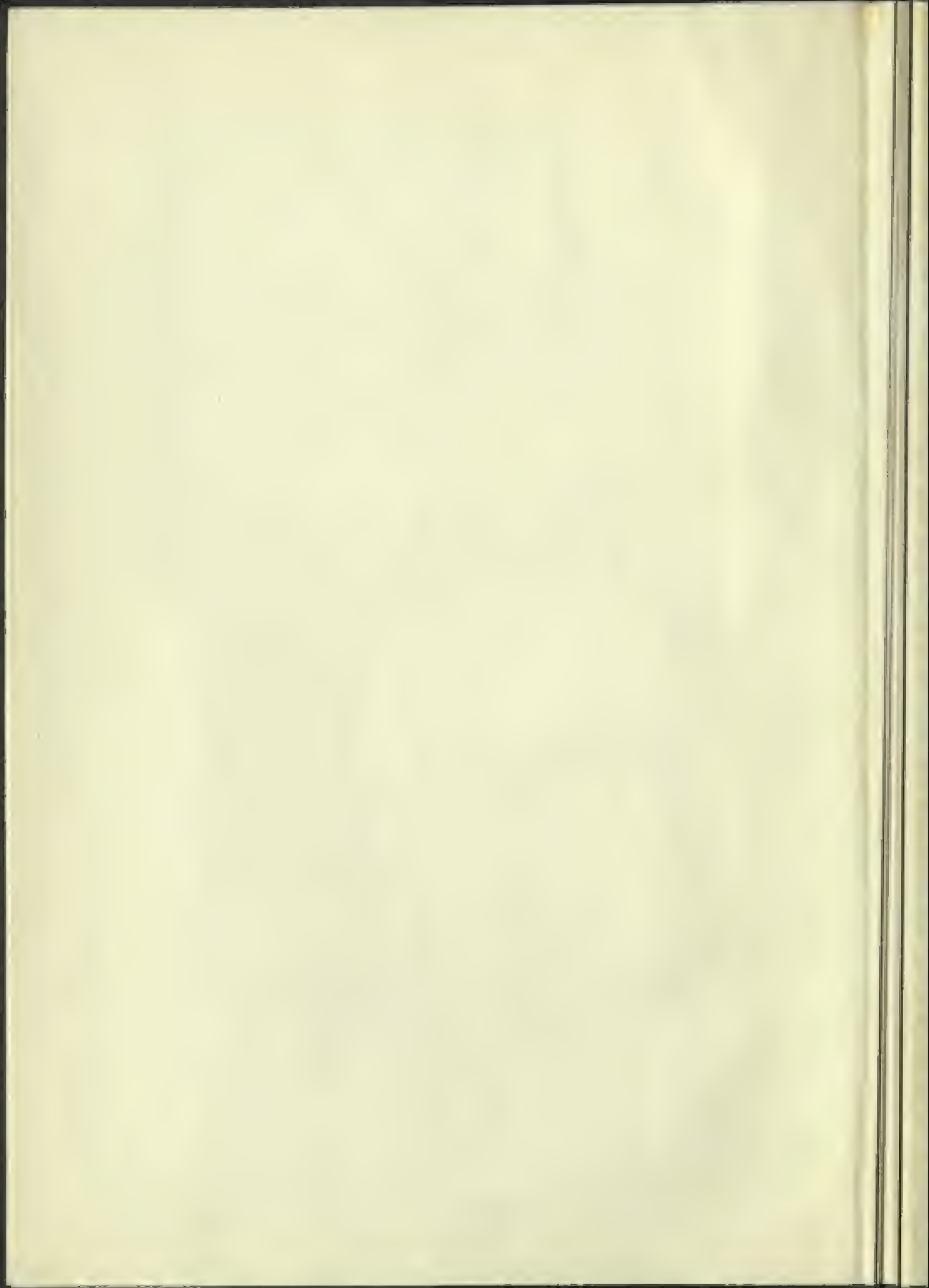
٢٢٩ الفصل الثالث والعشرون : الشعوب الرعاة او الرحل

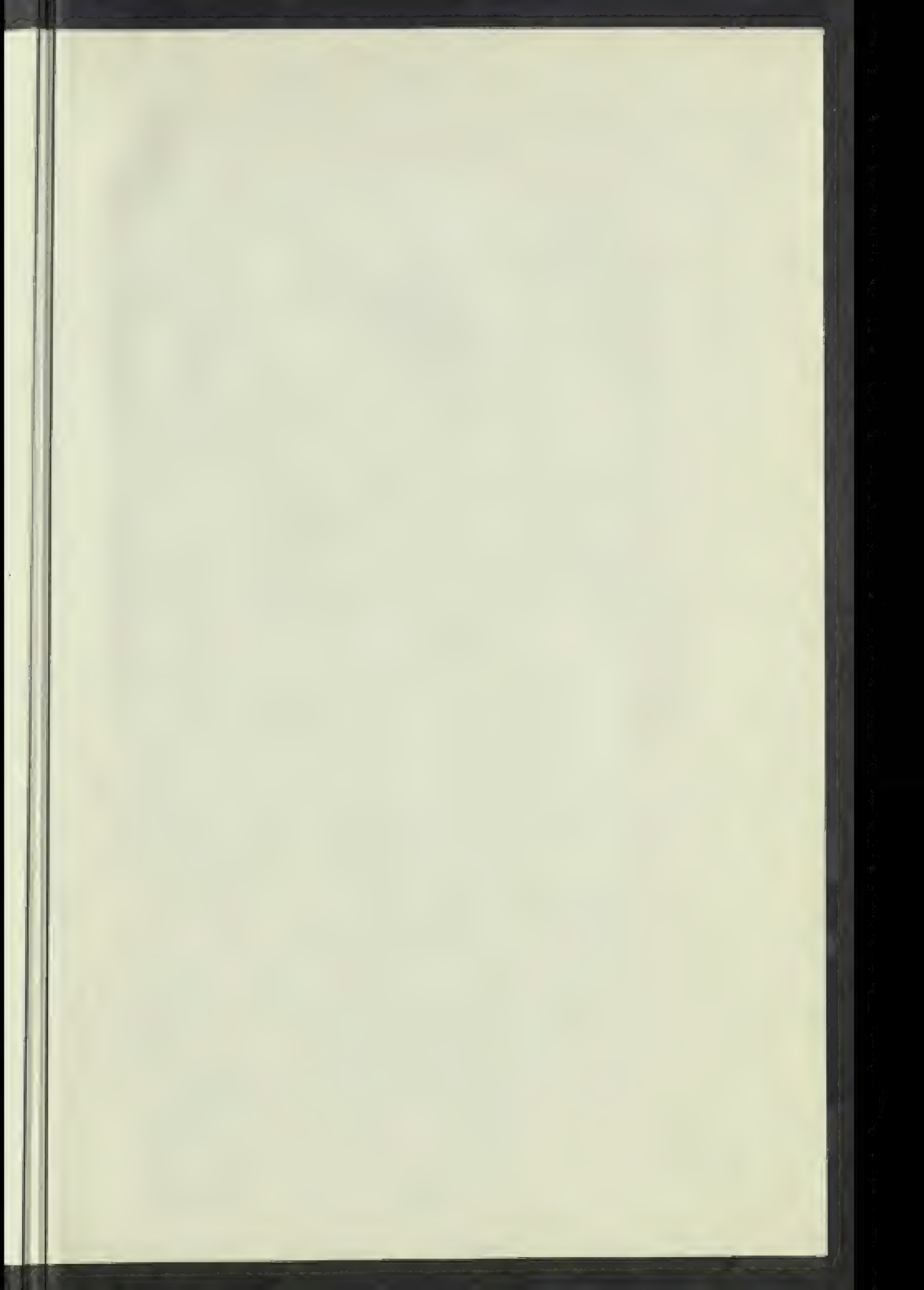
٢٢٩ التركمان

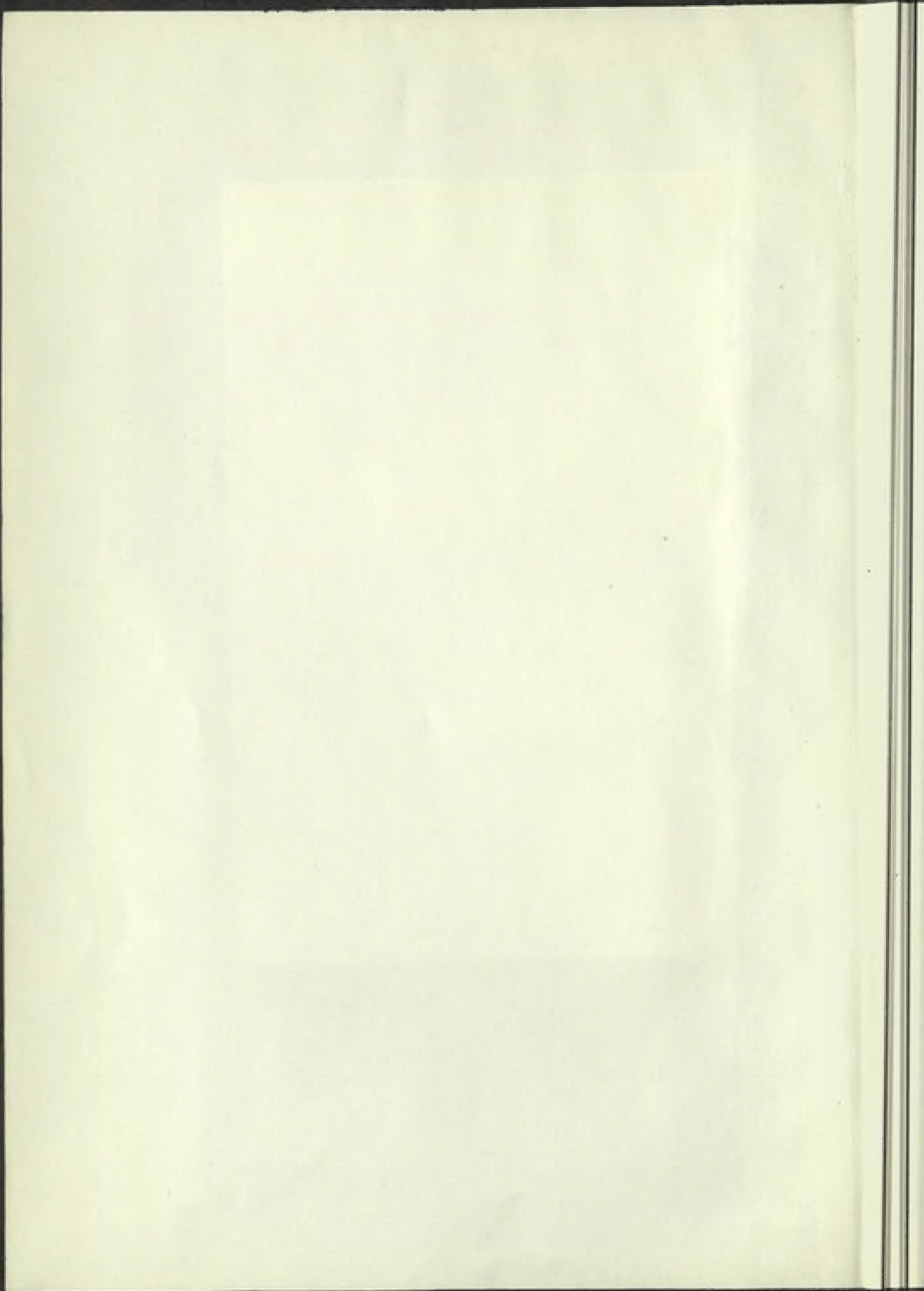
٢٣٠ الاسكندر

٢٣٢ عرب البادية

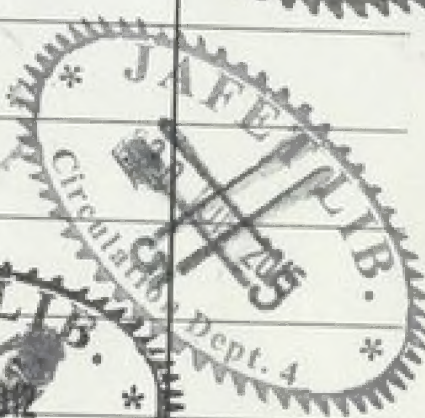
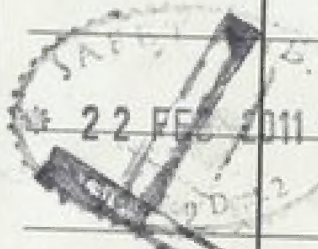
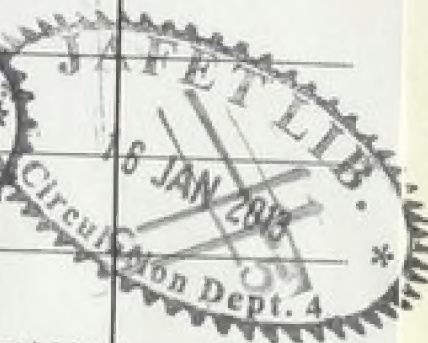
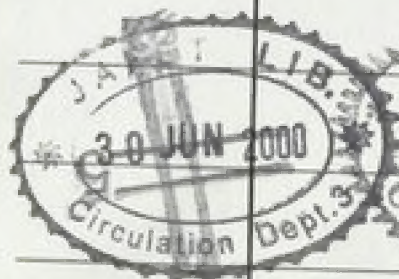
اتمى طبع هذا الكتاب على مطابع نصار
في اليوم الاول من تشرين الثاني
سنة ثمان واربعين وتسماية والغب .







DATE DUE



915.69:V92tAb:v.1:c.1

المستأقن ،الوار

ثلاثة اعوام في مصر وبر الشام
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01040093

915.69
V92tAb
v.1

